

3 1142 00409 8870



New York University  
Bobst Library  
70 Washington Square South  
New York, NY 10012-1091

DUE DATE

DUE DATE

DUE DATE

\* ALL LOAN ITEMS ARE SUBJECT TO RECALL \*

RETURNED  
MAY 17 2004









الى صاحبها

طه حسين  
Faqih al-Adala  
wa-al-Nagd

طه حسين

جاستوره فصيلت

معاصم التقيات



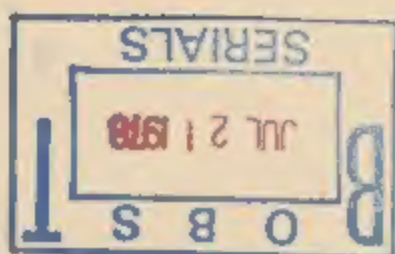
# فضول في الأدب والنقد



مطبعة المعارف  
مكتبة الجليل



PJ  
7503  
T3  
1945



~~PN  
81  
T3~~



## مع أدبائنا المعاصرين

يقال إن التفكير ظاهرة اجتماعية لا فردية ، بمعنى أن الفرد لا يفكر ولا يقدر ولا يروى إلا من حيث هو عضو من أعضاء الجماعة التي يعيش فيها والتي يستحضرها في نفسه استحضاراً ملحوظاً أو غير ملحوظ حين يفكر أو يقدر أو يروى . ولولا أنه يلحظ أمثاله ونظرائه الذين سيظهرون على خواطره وآرائه لما فكر ولا قدر ولا روى . ومعنى ذلك أن هذا الإنسان الفرد الذي ينشأ في جزيرة نائية ، مقطوعة الصلة بحياة الناس ، أو يضطر إليها قبل أن يتم نضجه العقلي يعيش فيها مفكراً مقدراً ومروياً متدبراً ثم يستكشف حقائق الأشياء وأصول التفكير والمنطق ، هذا الإنسان صورة من صور الأساطير لم يوجد ولم يعرف وليس من اليسير أن يوجد أو يعرف . ويقال إن مصدر هذا أن التفكير أثر من آثار اللغة ومظهر من مظاهرها ، لا سبيل إلى أن يوجد بدونها ، لأن الخواطر والآراء مهما تكن لا تستطيع أن تخطر للنفس أو تلاعبها أو تستقر فيها إلا إذا اتخذت لها من الألفاظ صوراً وأزياء تمنحها الوجود وتمكّنها من الخطور على البال والاستقرار في الضمير والخضوع لما تخضع له الخواطر في النفس المتحركة من التواصل والتقاطع ، ومن التقارب والتباعد ، ومن الائتلاف والافتراق .

يقال هذا ويقال أكثر من هذا ، ولست أدري — وما يعني أن أدري —  
أحق هذا أم باطل ، وخطأ هذا أم صواب ! وإنما الشيء الذي يظهر أنه لا يقبل الشك ولا يحتمل الجدل ، هو أن الإنتاج الأدبي ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن

تكون إلا في الجماعة التي تسمع الأثر الأدبي أو تقرؤه فتأثر به ، راضية عنه أو ساخطة عليه ، معجبة به أو زاهدة فيه . وإذا جاز أن يوجد الفرد الذي يفكر لنفسه ويستكشف لنفسه حقائق الأشياء وأصول التفكير والمنطق ، فما أظن من الجائز أن يوجد الفرد الذي يصور خواطره وآراءه في الألفاظ التي تنطق أو تكتب وتسمع أو تقرأ ، وهو لا يريد بهذا التصوير إلا نفسه ، ولا يوجه هذا التعبير إلا إليها . وقد يخيّل إلى الأديب ذي الشخصية القوية الممتازة الذي يغلو في الامتياز حتى يشذ عن معاصريه ، أنه لا يكتب للناس ولا ينتج لهم لأنه واثق أو كالواثق بأن الناس لن يفهموا عنه ولن يسمعوا له ، فهو إنما يكتب ليرضى نفسه بإظهار ما يكتب وإعلان ما يسر . ولكن هذا الأديب إن وجد — وما أكثر ما يوجد — إنما يخدع نفسه عن حقيقة الأمر ، فلو أنه يريد أن يظهر للناس على ما يفكر ويقدر في يوم من الأيام لما صور تفكيره وتقديره في الألفاظ والعبارات ، ولما أودعه الصحف وأسرّه إلى الأوراق

وأطرف من هذا أن الأديب الممتاز قد لا يكتفي بتصوير خواطره وآرائه في الألفاظ والعبارات وإيداعها الصحف والأوراق ، ولكنه يرسلها إلى المطبعة ، فإذا خرجت من المطبعة نسخاً كثيرة فرقها على المكتبات لتذيعها في الناس . ولعله أن يشارك في إرسالها إلى الصحف ، ولعله أن يرسلها إلى النقاد ليقرأوها ولينقدوها وليحكموا عليها وليعلنوا إلى الناس ما يكون لهم فيها من رأى ، ولعله أن يغضب إذا لم يجد لخواطره وآرائه صدى فيما تكتبه الصحف ، وفيما يتحدث به الناس . وهو مع ذلك يؤكد لنفسه — وللناس — أنه لم يقصد بما كتب وبما أذاع إلى الجمهور ، وإنما جاشت في نفسه خواطر فلم ير من إظهارها بداً ، وخطرت له آراء فلم يجد عن إذاعتها منصرفاً

وأظرف من هذا كله أن الأديب قد يجد على النقاد أن أهملوا كتابه أو أعرضوا عنه ، وقد يشتمهم بالحسد ويصممهم بالفيرة ، وقد يعتب على هذا الناقد أو ذاك من أصدقائه لأنه لم ينوه بكتابته في الصحف ، ولم يختصه بفصل أو بقطعة من فصل من هذه الفصول التي يذيعها في كل أسبوع

كل ذلك وهو لم يكتب للناس وإنما كتب لنفسه ، ولم يفكر للناس وإنما فكر لنفسه ، ولا يخطر للأديب أنه إذا أراد إرضاء نفسه فليس في حاجة إلى الكتابة ، ليس في حاجة إلى أن يتحدث إلى الناس ، لأنه في هذا المعنى أو ذاك ووقوفه عند هذا الرأي أو ذاك إنما حسبه أن يفكر فيها يساء وكيف يشاء ، ليرضى إن راد الرضى وليسخط إن أراد السخط . ويلذوق كل ما يعقبه التفكير والشعور الحسن من اللذات والآلام

هذا خداع من الأديب لنفسه حيناً وللناس أحياناً . والحق الذي لا شك فيه أن الأديب أجدر الناس بأن يكون هذا الحيوان الاجتماعي الذي تحدث عنه الفيلسوف القديم . فهو لا يعيش إلا بالناس وهو لا يعيش إلا للناس . منهم يستمد خواطره وآراءه ، وإليهم يوجه خواطره وآراءه . ينتج إن غذوا حسه وشعوره وعقله بالظواهر والحوادث والمواقف . وينم إن أحس أنهم يسبقون ما يقدم إليهم من غذاء . وهو مفلس إن عاش في بيئة لا تغزو الحس والشعور والعقل ، وهو مبئس إن عاش في بيئة لا تستمع ولا تظفر نه أنها تستمع بما يقدم إليها من ثمرات

وفي الحالة بين الأديب وقرائه أو قارئ بين الأديب المنتج والجمهور المستهلك — كما يقول أصحاب الاقتصاد — شيء من الدعاية والعبث وشيء من الدل والتيه ، ينتج للأديب أن يغضب حين لا يكون للغضب موضع ، وأن يرضى حين لا تدعو الدواعي إلى الرضى ، وينتج للجمهور أن يشتط في الطلب ، وأن يتجنى فليح

في التجنى ، وأن يقصر حين تحسن العناية ، وأن يعنى حين يحسن الإهمال .  
وأمر الانتاج والاستهلاك في الأدب جارية على هذا منذ أقدم العصور ، ويظهر  
أنها تستجري على هذا مادام في الناس أدباء ينتجون وقراء يستهلكون .

هذا الشاعر ، أو هذا الكاتب ساخط على الجمهور ، أو متكر له ، أو متبره  
به ، يوسمه لوماً وتأنباً ، ويلج عليه بالتوبيخ والتقريع ، ويتمنى أن تنقطع بينه  
وبينه الصلة ، ويود لو يقرينه وبينه الأسباب . والجمهور مع ذلك راض عنه ،  
رفيق به ، متعجب إليه ؛ يرى فيما يوجه إليه من اللوم والتأنيب نصحاء ورشداً ،  
ويجد فيما يسوق إليه من التوبيخ والتقريع لذة ومتاعاً ؛ وبلقى سخطه العنيف  
بالإتسام الحلو الرقيق ؟ ! وهذا الشاعر أو الكاتب يتلطف للجمهور ويرضاه ،  
ويسرف في هذا التلطف له واستفاء الوسائل إلى قلبه ؛ ولكن الجمهور لا يحفل به  
ولا يلتفت إليه ، ولا يفت عند ما يهدى إليه من هذه الأزهار النضرة التي  
تتملق أحب القرائز إليه وآثره عنده .

ومن هنا يكون بين الأدباء من بلائم عصره ومن لا يلائمه ، ومن يفهم  
في عصره ومن لا يفهم إلا بعد عصره بقرون . ومن هنا يكون بين الأدباء من  
يتاح له الحد السريع ، ويكون منهم من يتاح له الحد البطيء . ومن هنا يكون  
بين الأدباء من يفسد الحقد عليه أمره وفنه . ويكون بينهم من يتاح له القصد في  
ذلك ، فلا يبطره العوز ، ولا يؤله الإخفاق . وإنما يسلك بين ذلك سبيلاً  
وسطاً ، فيلتبس لذته ومتمتعته في فنه وفي آثاره ، أكثر مما يلتبس لذته ومتمتعته  
في رضى الناس عنه وإعجابهم به وشهالكهم عليه .

والهم أن الأدب مهما يكن أمره . كائن اجتماعي لا يستطيع أن يتفرد ، ولا  
أن يستغل بحياته الأدبية ، ولا يستقيم له أمر إلا إذا اشتدت الصلة بينه وبين  
الناس ، فكان صدى حياتهم ، وكانوا صدى لإنتاجه ، وكان مرآة لما يذيع فيهم

من رأى وخطر ، وما يفهم به من هذه الآثار الأدبية على اختلاف ألوانها وهو في حاجة إلى أن يشعر بهذه الصلة ، وإلى أن يراها قوية متينة ، مترددة به وبينهم كما يتردد الرسول بين الحيين . ذلك يدفعه إلى العمل ، وينشطه الإنتاج ، ويدفعه نفسه بالمعاني . ويشير فيها لخطاير والآراء ، ويشيع في لغته القوة الخدة والنشاط . وبلاطم بين هذه اللغة وبين قلوب الذين يقرأونه ويسمعونه على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم في جمهور الناس . ومن هنا نشأ لون من الأدب هو الذي يحقق الصلة بين المنتج والمستهلك ، ويحققها على أتم وجه وأقواء وأفعه ، أنه يقوم مقام الرسول بين هذين العاشقين اللذين يختصن حيناً وباتلفان حيناً آخر ، وهما الأديب والجمهور . وهذا اللون الجديد من الأدب هو النقد الذي يبلغ من الناس رسالة الأديب فيدعهم إليها ويرغبهم فيها ، أو يصرفهم عنها ويذهبهم بها . والذي يبلغ الأديب صدى رسالته في نفوس الناس وحسن استعدادهم لما شدة ازورارهم عنها ، أو فتورهم بالقياس إليها . ولعله أن يبين للأديب أسباب إقبال الناس عليه وإعراشهم عنه . ولعله أن ينصح للأديب بما يزيد إقبال الناس عليه إن كانوا مقبلين ، ويخفف إعراشهم عنه إن كانوا معرضين ، فهو رسول الحكيم الذي نصح القدماء باتخاذهم لدوى الحاجات . هو حكيم بالقياس إلى الجمهور ، لأنه يدل الناس على ما يحسن أن يقرموا . وعلى ما يحسن أن يفهموا ما يقرمون . وهو رسول بالقياس إلى الأديب ، لأنه يبين للأديب مواقع فنه من الناس ، وقد يدلّه على الخطأ إن وقع فيه ليتجنبه ، وعلى الصواب إن وفق فيه ليتزيد منه ، وقد يدلّه على التقصير الفني ليتقيه ، وعلى الإجازة الفنية ليتتقنها فما يستأنف من الآثار

ولكن هذا النقد الأدبي لا ينشئ نفسه ولا يقوم بالرسالة في الهواء بين الأديب وقرائه ، وإنما ينشئه إنسان أديب له في أكثر الأحيان ما للأديب المنتج من

انحصار الحمودة والمذمومة ، مخادع نفسه ومخادع الناس في كثير من الأحيان عن فنه ، وعما يقصد إليه بهذا الفن . فما أكثر ما يخيل الناقد إلى نفسه ! وما أكثر ما يخيل إلى الناس أنه لا يتقد هذا الكتاب أو ذاك إلا لنفسه لا رغبة في النقد وإثرائه وإرضاء لميله الطبيعي إلى أن تستقر أمور الصواب والخطأ ، وأمور الإحسان والإساءة الفنية في نصايها ! وهو في حقيقة الأمر إنما يتقد لنفسه وللناس كما ينتج الأديب المنشئ . لنفسه وللناس ، يجد اللذة والمتاع في الإنشاء لنفسه ، لأنه تخلص من عبء ثقل . ولأنه تأثير في غيره من الناس وتسلط عليهم ، ولأنه فعل إيجابي إذا أردت الإيجاز ، كما يجد اللذة والمتاع في تأثر الناس به وفيهم عنه وإكبارهم له وإيمانهم بما يدعو إليه . وكما يجد اللذة والمتاع أحياناً في مقاومة الناس له وإرغامهم عنه ، وتبذدهم في الإنكار عليه ، وفيما يستقيمه ذلك من أخذ ورد ، ومن جذب ودفع ، ومن حلال وحوار ومن خصام ومراء . أبعث

في الناقد الخلق بهذا الوصف مزايا الأدب الخلق بهذا الوصف وعميوبة ، لا يكادان يفتقران إلا في أن أحدهما -- وهو الأديب -- يتخذ طبايع الأشياء وحقائقها مادة لأدبه ، وموضوعاً لانتاجه ، على حين يتخذ أحدهما الآخر وهو الناقد صور الأشياء ، ومناذجها أي الأدب نفسه مادة للنقد وموضوعاً . ومع ذلك فليس من الخلق أن الناقد لا يعلم بطبايع الأشياء وحقائقها ، وربما كان الحق عكس ذلك . فما أكثر ما يحتاج الناقد إلى أن يعالج الموضوع الذي عالجها الأديب ليبين أو ليعين ما عسى أن يكون قد عرض للأديب من صعوبة ، وما عسى أن يكون الأديب قد سلك إلى تذليل هذه الصعوبة من طريق ، وما عسى أن يكون الأديب قد وفق إليه من إجادة أو قد تورط فيه من إساءة

فالناقد آخر الأمر أديب بأدق معاني الكلمة . والنقد آخر الأمر أدب بأصح

عانى الكلمة أيضا ، وربما أتاحت للنقاد مزايا لا تتاح للأديب المنشئ ، فالناقد  
 يقرأه كالأديب ، والقراء يقرأه كالمناقد كما أنهم يقرأون للأديب أيضا ، ولكن  
 الناقد يقرأه صافية واضحة جليلة كما حسن ما يكون العناء والوضوح والجلال ، وهذه  
 الآلة تعكس صورة الأديب نفسه كما تعكس صورة القارئ ، وكما تعكس  
 صورة الناقد ، فالصفحة من النقد الخلق بهذا الأسر مجتمع من الصور لهذه  
 سميات الثلاث : نفسية المنشئ ، المؤثر ، ونفسية القارئ ، المنشئ ، ونفسية الناقد  
 الذى يقضى بينهما بالعدل ويزن أمرهما بالقسطاس

وواضح جدا أنى إنما أعظم من أمر النقد وأكبر من شأنه وأرفعه إلى هذه  
 السماء المستأزلة التى تظل الأديباء والقراء جميعا ، لأنى أريد أن أنتهز هذه الفرصة  
 سعيدة كما يقال = فرصة إصدار « الثقافة » - لأخرج منها إلى هذه السماء  
 متأزلة ، ولأشرف منها على الأديباء جميعا ، فى فصول من النقد أتناول بها  
 غير أولئك وتأثر هؤلاء ، وما ينبغي لى أن أقصر فى ذات نفسى ولا أن أضيق  
 يث يجب أن أضع من الأديباء والقراء ، فإن هذا التوضع لم يصبح ملائما  
 بدع فى هذه الأيام ، وإنما ينبغي لى أن أستطيع وأن أنكف الاستطالة ، وأن  
 أضع وأنكف الانزاع ، لأنى لا أريد أن أقبل على الأديباء والقراء مسالما ولا  
 وادعا ، وإنما أريد أن أقبل عليهم محسما وملحا فى الخصام ، والله يعلم ما أفعل  
 لك حبا فى الخصام أو إيثارا له أو رغبة فى الاستعلاء والكبرياء . وإنما أفعل  
 ذلك تعمداً لا يطاق قوم نيام ، قد حال عليهم النوم حتى كاد يشبه الموت . وهؤلاء  
 تقوم النيام هم الأديباء والقراء . أولئك ينتجون وهم نيام ، قد أمتوا النقد أو  
 استياسوا منه ، فهم ينتجون فى فتور ، ويرضون عن أنفسهم أو يستخطون عليها ،  
 لأنهم قد اطمأنوا إلى أنهم لن يظفروا من الناس بما يدل على الرضى أو يدين عن  
 السخط . وهؤلاء يقرءون وهم نائمون ، قد تعودوا أن ينفقوا الوقت بين حين وحين  
 بقراءة هذا الكتاب أو ذاك ، لهذا الأديب أو ذاك . لم تدعهم إلى القراءة ورغبة



قوية ولا خصومة عنيفة ، حول رأى من الآراء أو مذهب من مذاهب الإنشاء ، وإثما دعيتهم العادة إلى القراءة . دعيتهم العادة ودعاهم الفراغ الثقيل أيضاً . فإذا تريد أن يصنع الرجل المتقف حين نتيبه الصحف بأن فلاناً قد أخرج كتاباً ، وماذا تريد أن يصنع حين يتحدث إليه الناس عن هذا الكتاب ويأثرونه عن رأيه فيه ؟ لا بد من أن يلج به إنمة يسيرة قصيرة . ترفع عنه اللوم وتبرئه من مذمة الجهل وتتيح له أن يقول إذا سئل : نعم لقد رأيت هذا الكتاب ونظرت فيه ، ولست أرى به بأساً . أو أنا أرى به بعض البأس . والناس لا ينتظرون منه أكثر من هذا ، وهو لا ينتظر منهم إذا سألهم أكثر من هذا أيضاً . وكذلك ينتج الأدباء وهم نيام فكأنهم يحسون بالإنجاج ، ويقرأ القراء وهم نيام فكأنهم يحسون بالقراءة !

ويشمل الحياة الأدبية في مصر فتور مهلك أو مدن من الهلاك . ولا بد من أن ينجاب هذا الفتور ، ولا بد من أن يذاد هذا النوم . ولا بد من أن ينشئ الأدباء ويقرأ القراء وهم أيقاظ . والنقد وحده كفيلاً بإيقاظهم . ولكنه لن يبلغ أسمعهم فيما يظهر إلا إذا رفع صوته رفعا عنيفا وهز النائمين هزا قويا ، واضطرم إلى هذه الحركة المضطربة التي يضطر إليها النائم المرق في النوم حين يزعم الصوت المرتفع أو الهز العنيف . وما من شك في أن النائم الذي يستيقظ وجلا مضطربا يفتت موقفه أشد انفتت . وأنا مستعد والحمد لله لأتلقى مقبلة النائمين الذين أريد إيقاظهم . بل يظهر أنى مستعد لأكثر من هذا ، فالنائم إذا أفاق وثاب إليه رشده وعادته إليه نفسه كف عن انفتت والوم في أكثر الأحيان ، ورضى عن موقفه وحمله عنه . ولكنى مستعد فيما يظهر لتقبل اللوم المستمر والمقت المتصل . لأنى أرى في ذلك تقوية لهذه الحياة الأدبية التي اشتدت حاجتها في هذه الأيام إلى القوة والنشاط ، ولأنى أخشى إذا أيقظت النائمين بالعنف ثم عدت في أمرهم إلى الهدوء والدعة أن يعودوا إلى الراحة وأن يستحبوا النوم .

ما أدري ما هذا الجنى الذى يلج على ويريدنى على ألا أنام ولا أنم . وقد حاولت أن أستنقذ منه نفسى وأن أغريه بغيرى من النقد فلم أبلغ مما أردت شيئاً وهذه كتب كثيرة قد ظهرت منذ أعوام لطائفة من أدباءنا الشيوع والشباب . جمعها لى هذا الجنى جمعاً ووضعها بين يدى وضعاً ، وهو يلج على أن أقرأها . وفى أن أشدها . وفى أن أذيع رأى فيها وحكى عليها ، وفى أن أتعرض من أجل ذلك للوم اللامعين وسخط الساخطين ! والفريب أن هذا الجنى لما ذكر أمين ناصح يريد أن يخذلنى عن نفسى ، ولا عن الناس ! فهو يزعم لى أن الأدباء سيقولون لى ما أبدؤهم به أو بشر ما أبدؤهم به . فقد ظهرت لى كتب وستظهر لى كتب ، أى كتاب يستطيع أن يظهر بأرمى كله ؟ وأى كتاب من كتب الناس يأتية النقد من هذا الوجه أو ذاك . وإذا فبنقد الناس كتبى كما أقند كتبهم ، وسيكلمنى الناس بالصاع صاعين ، وبالبيع باعين . كما قال لى الأستاذ العقاد بعض رسائله منذ أكثر من عشرين . وإذا فهذا الجنى يصور لى نتيجة هذا النشاط الذى أستاذفه على أنهار د وقد وخصومة وحكومة ، واضطراب الجدل والحوار ، ويخبرنى بين هذه الحبة العينة الخصبية ، وبين حياة أخرى ادنة وادعة . ولكنها عقبة محدبة ، لا تقف فيها ولا رد ، ولا خصومة فيها لا حكومة . ولا جدال فيها ولا حوار ، وإنما هى حياة الراحة والمافية والحدود . واضح جداً لى أختار الأولى . ومتى رأى الناس لى أختار اليسير مما مريض لى من الأمور ؟

أمر الأدباء وأمرى إلى الله ، إذا قلستأف حياة النقد وازد التى عرفناها من بعض أوقاتنا ، فذقنا منها هذه المذاة المؤلمة ، وهذه الخلاوة المرة التى لا يستقيم دوماً مزاج الأديب !

وليكن أول ما نيلو به أنفسنا من ذلك كتب صديقنا « أحمد أمين » زعيم لجنة التأليف والترجمة والنشر وزعيم مجلة « الثقافة » . فإن أحب شىء إلى أن أبدأ بمداعبة أقرب الأدباء إلى ، وأدنام منى ، وآثرهم عندى .

## فيض الخاطر

لمؤلفه أحمد أمين بك

أنفق صباه وأول شبابه تلميذاً وطالباً كما أنفقها جميعاً ، ولكنه ذهب إلى  
الكتاب مجلس على الحضير . وشارك في حياة الكتاب كلها ، إلا ما كان من غمس  
الأيدى إلى المرافق في ماجور النول الثابت . وفي ماجور الحال ، فقد كانت  
الكتاب قريباً من داره ، وكان يتفدى مع أسرته . ثم تحول عن الكتاب  
إلى المدرسة الهندية ، فشارك في حياتها المنظمة المتأثرة بتقليد الترجمة عصره ، ثم  
تحول إلى الأزهر الشريف ، فعاد إلى الحياة المحافظة الخالصة التي تأثرت بها أسرته  
تأثراً شديداً ، فقد كان أود من عند الأزهر . ثم اتصل بمدرسة القضاء ، فانتقل  
من المحافظة الخالصة التي كان يطمحها . ثم الشيخ محمد عبده . إلى محافظة معتدلة  
كان ينظمها ويشرف عليها عاطف بركات في مدرسة القضاء . ثم خرج من هذه  
المدرسة ، وجعل يبحث عن نفسه فلا يهتدى إليها . أولاً يكاد يهتدى إليها ،  
وجعل أصدقائه والمتصلون به يبحثون عن نفسه أيضاً فلا يهتدون إليها  
أولاً يكادون يهتدون إليها . بحث عن نفسه بين الفقهاء الذين يفرغون للفقه  
تنفيذاً وتطبيقاً ، فكان معهما ، وكان قاضياً شرعياً . وبحث عن نفسه بين  
الفلاسفة الذين ينظرون ويقرءون ويفهمون ما ينظرون وما يقرءون ، فحاول  
الترجمة في الفلسفة ، والكتابة في الأخلاق ، ولكنه لم يرض عن نفسه قضيماً  
ولاً قاضياً ولا مفلساً . وما أظن أن أصدقائه والمتصلين به قد رضوا عنه في هذه

الأطوار كلها ، فقد كانوا يروته أرفع منها منزلة ، وأبعد أمداً ، وأوسع أفقا .  
 على أنهم اهتموا إلى ناحية مشرقية من نواحيه حين ألفوا جنتهم هذه التي مالت  
 لنزاهة علماء وأدباء وكلاماً وكتباً ، والتي لم يكفها ذلك كله . حتى أرادت أن تشق  
 بين الناس بهذه الصحيفة التي تعرضها عليهم كل أسبوع : فاختاروه رئيساً  
 جنتهم هذه ، وجعلوا يحددون انتخابه لرياسة هذه اللجنة كل عام منذ أنشئت  
 في الآن ، وقد نيف عمرها على العشرين ، وأحسبها قد بلغت عيدها القضي ،  
 كما يقول الفرنجة ، أو كادت تبلغه . فقد عرف منه أصدقاءه إذا جداً وحرماً ،  
 صدقاً وإخلاصاً ، ونسجاً للعاملين به والعاملين معه ، فأثروه بخير ما يؤثر به  
 صديق الصديق من الحب والثقة . ولكنهم ظلوا حائرين في أمره . كما كان  
 حائراً في أمر نفسه ، لا يعرفون أين يضعونه : أيسعون بين القضاة ؟ أيعضونه  
 من الفلاسفة ؟ وأذكر أني رأيت منذ اثني عشر عاماً أو نحو ذلك ، فإذا هو  
 يلق بكل شيء ، منصرف عن كل شيء ، يريد أن يفرغ من نفسه لشيء .  
 سفله عنها وعن الناس ، وبشعره أن خيانه خطراً وأثراً . ثم اتصل بالجامعة  
 فرجع لها ، ونهض بشكائيمها ، وما هي إلا أشهر حتى أخذ يفتح نفسه من بعيد  
 تأييد المسافر في الصحراء علماً من هذه الأعلام التي تهدي الناس وتمصمهم  
 من الجور عن قصد السبيل ، وجعل يدعو من نفسه قليلاً ، وكاد أن منها شيئاً  
 تهربت له واضحة مشرقة ، حتى إذا كان منها غير بعيد أخذ شيء من الذهول ،  
 صدره الرضى والأمن والطمأنينة ، بعد السخط والخوف والتلق ، فكان أشبه  
 نبي . بأولئك اليونان الذين تقوا ما تقوا ، وشقوا ما شقوا . في سفرهم البعيد  
 ورحلتهم الشاقة ، إلى بلاد القرس وفي عودتهم منها ، حتى إذا استأنسوا من  
 الأمن ، وأشرفوا على المكروه ، بدا لهم البحر ، فعاد إليهم الأمل ، واستلأت  
 قلوبهم رجاء ، وصاحوا في صوت رجل واحد : البحر البحر . وكان بحر صاحبنا

الأدب العربي ، وكانت الصيحة الأولى لصاحبنا « فجر الإسلام » . وما هي إلا أن يبلغ الساحل ويندفع في هذا البحر الذي انتفى إليه ، حتى يعرف نفسه حق المعرفة ، ويصاحبها مصاحبة العالم بها المستغنى لأسرارها ، البصير بدقائقها المستغل لكنوزها ؛ وإذا هو يظهر ما أخفى من « نعي الإسلام » ، ويخرج من خرج من الشباب ، وينشر ما نشر من الفصول والمقالات ، ويؤلف ما ألف من الكتب في صميم الأدب ، أو على هامشه ؛ وإذا أصدقاؤه يبتدون إلى نفسه أيضا ، فيرضون ويطمشون ، ثم يقبلون على ما جعل يقدم إليهم من ثمرات فينعمون ويستمتعون . وإذا هذه النفس التي كانت غامضة حتى على صاحبها تظهر وتبهر وتشرق ، حتى يعرفها القريب والبعيد ، وحتى تنشر من صوتها الهادي المشرق ردا ، رقبيا شافا ، ولكن فيه حرارة نبض الحياة . وإذا هذا الردا يغمر الشرف العربي كله ، ثم يتجاوز به إلى الشرق الإسلامي ، ثم تمتد أطراف منه حتى تبلغ الغرب السبعي فتعجب وتروق . والظريف أني كنت أسأله اليوم عن نفسه ، أيعرفها ؟ فإذا هو لا يعرف منها شيئا ، أو لا يعلم أنه يعرف منها شيئا . هو يعرف نفسه ولا يعرفها ؛ يعرفها معرفة لا شعورية ، يضيئها ويملكها ويستغلها ويصرف أمورها كما يريد ، أو كما يسر لتصرفها ، فإذا سأله عن ذلك لم يعرف منه شيئا ، أو لم يحسن أن يصور لك منه شيئا . وأظن أني قد وصلت الآن إلى الصورة الدقيقة التي تمثل صدقنا أحمد أمين

فهو رجل قد جمع هاتين الخصلتين المحبتين إلى النفوس : خصلة الذكاء النافذ البعيد العميق . وخصلة البساطة الخادعة الظريفة التي تثير الابتسام على شفتيك — وقد تدفلك أحيانا — إلى أن تفرق في الضحك إغراقا . ضمه أمام مسألة من مسائل العلم الأدبي ، أو أمام مشكلة من مشكلات الحياة العملية ، وثق بأنك ستري رجلا نافذ البصيرة صادق الرأي ، نافذا من المشكلات إلى أعماقها ،

ثم تحدث إليه عن نفسه ، أو تحدث إليه في أسرار حياته اليومية ، في ذهابه إلى الجامعة ، وعودته إلى داره ، في ذهابه إلى لجنة النشر ، وزيارته لأصدقائه ، فسترى منه طرائف الأعاجيب ، سترى منه ألوان السهو وقتون التسيان ، والإقدام على ما كان يجب أن ينصرف عنه ، والانصراف عما كان يجب أن يقدم عليه ، والتنبه لذلك كله بعد وقوعه ، واختلاط الأمر عليه بعد أن يتنبه لما تورط فيه .

وهناك صورة أخرى دنيئة نصديقنا أحمد أمين ، تألف من متناقضين ، وأنا أعلم أن الناس قد زعموا منذ فكروا أن التناقض لا يجتمع ، ولكنها تجتمع في صديقنا أحمد أمين ، وإن يعدم التماسكة تعليلًا لأجتماع التناقض هذه ، فهم الآخرون على كل تعليل .

هذه الصورة الدقيقة الثانية تألف من الهدوء الهادي ، ومن الثورة النائرة . أحمد أمين هادي ، قد عرف بذلك حتى ضربت به الأمثال فيه ، وهو نائر قد عرف بذلك حتى أشفق الذين يحبونه منه وأشفقوا عليه . فهم يحذرون فيما يكون بينهم وبينه من صلة أن يؤذوه فيدفعه ذلك إلى الثورة ، وهم يشفقون عليه إن غضب لأنهم لا يعرفون أحداً يتأثر بالغضب كما يتأثر به .

وسيقول إنى قد أظنبت وأسبغت ، وبسطت في المقدمة وما أبلغ كتاب « فيض الخاطر » بعد ، ولكن ترقق أيها القارئ الكريم ، فإن كتاب « فيض الخاطر » ليس إلا خلاصة طريفة عذبة ممتعة لهاتين الصورتين ، وهذه المتناقضات التي تألف هاتين الصورتين . في هذا الكتاب ذكاء أحمد أمين وبساطته ، وفي هذا الكتاب هدوء أحمد أمين وثورته . ولك أن تقرأ الكتاب من أوله إلى آخره ، وأن تعرض ما فيه من الفصول والمقالات على

هذه الخصال الأربع ، فتجدها مثلة فيه أصدق تشيل وأقواه . تراها تتمثل  
بجهة وتتمثل بتأريق ، تراها في فصل واحد ذكياً بسيطاً ، وهادئاً ثائراً ، وتراها  
في فصل آخر وقد غلبت خصلة أو خصلتان من هذه الخصال على ما كتب ،  
فظهر الذكاء ، والهدوء ، وظهرت البساطة والثورة . وتستطيع أن تلاحظ بين هذه  
الخصال كما أحببت جمعاً وتفريقاً ، وحذفاً وإبقاءً ، فلن يفت منها فصل من  
فصول الكتاب .

وفي الكتاب ستون وثلاثمائة صفحة ، وفيه أربعة وسبعون فصلاً ، وقد قسم  
لى أحمد أمين من صفح الثقافة قدرًا معينًا لا ينبغي أن أعدوه ، فلا تنتظر منى  
أن أفضل لك القول في الكتاب تفصيلًا . وما أدري أى الأمرين خير لأحمد  
أمين نفسه : هذا الإيجاز الذى أضطر إليه اضطراراً ، فأخفى من محاسنه  
وعيوبه ما كان فى إظهاره بعض النفع ، أم هذا الإطناب الذى أطلع فيه  
ولا أظفر به ، والذى كان ينبغي لى أن أضمر صديقنا على بعض أشكال نفسه ،  
فأرضيه حيناً . وقد أسخطه حيناً آخر . ولكنى مع ذلك مضطر إلى أن أقف  
عند مواضع قليلة من هذا الكتاب ، لأبين ما وصفت من هذه المتناقضات التى  
يأتلف منها صديقنا أحمد أمين .

وأول ما أقف عنده بالطبع هو مقدمة الكتاب ، لأنها أول ما أقرأ من  
الكتاب ، فقد قرأته كله مجتمعا ومتفرقا . ولكن لأنها تدعو إلى الوقوف .  
فأحمد أمين يثبتنا بأنه نشر هذه الفصول — لأنها قطع من نفسه يحرس عليها  
حرصه على الحياة ، ويجهد فى تسجيلها إجابة لحريرة حب البقاء . والظريف  
الذى لا أشك فيه أنه قد كتب هذا الكلام صادقا حين كتبه ، ولكنه صدق  
مصدره الاقتناع والاندفاع ، لا الهدوء والروية . وأنا أعرف أن من الأدباء من  
يرون آثارهم الأدبية قطعاً من نفوسهم يبحرون بذلك ويرددونه ، ولكنهم إذا



سألوا عنه لم يحتموه ، وإذا امتحنوا فيه لم يثبتوا عليه . فما عسى أن تكون قطع النفس هذه ؟ وهل من الحق أن الكاتب — وإن كان أحمد أمين — يحرص على آثاره حرصه على الحياة ؟ وهل لو امتحن صديقنا في ذلك يثبت للامتحان ويحرص على هذه المقالات حرصه على الحياة ، ويدافع عنها كما يدافع عن حياته ويتأذى لما يصيبه فيها كما يتأذى لما يصيبه في حياته ؟ كلا . إنما هو كلام أدباء لا أكثر ولا أقل ، وإلا فويل لأصدقائه إذا قدوم في هذه الفصول واشتدوا عليه في النقد . وألحوا عليه في التحليل والتعليل والتأويل ، إنهم إذا يؤذونه في حياته ، ويشرحون نفسه تشریح الحقيقة ، لا تشریح الخجاز ، وهم أرفق به وأشد له حبا من ذلك . أفترأه إنما قال في هذا ليصرفه عن نقد هذه الفصول ، ويرغبهم عما قد ينالونها به من التشریح والتحليل ؟ كلا . فأنه أعرفه بحب الصدر سمح الخلق ، محتملا للنقد . ولكنه أديب أحب أنرا من آثاره ، وعبر عن هذا الحب فعلا كما يفعله الأدباء ، وخرج عما هو معروف به من الأناة والرياسة والهدوء . وأخرى في هذه المقدمة ، ليست أقل من هذه ظروفا ، وهي مذهبه الفني ، فهو من أصحاب المعاني لا من أصحاب الأنكاذ ، وهو يؤثر الإيجاز ويكره الإطناب ، وهو يؤثر القصد ويكره الزينة . وكل هذا حسن ، وكل هذا يقبل من الأستاذ حين يقوله ، لأنه يقوله صادقا فيه ، مؤمنا به . ولكن دع المقدمة وامض في قراءة الكتاب ، فترى فيه فصولا تروع بالفاظها أكثر مما تروع بمعانيها ، وتسترى فيه فصولا تعجب بإطنابها أكثر مما تعجب بإيجازها ، وتسترى فيه فصولا تروق بزيتها أكثر مما تروق بإثارها للقصد ، واكتفائها بلبسة المتفضل . والأستاذ صادق مخلص حين كتب هذه الفصول التي تروع باللفظ لا بالمعنى ، وتعجب بالإطناب لا بالإيجاز ، وتروق بالزينة لا بالقصد : وهو مناقض لنفسه في هذا المذهب الفني الذي صورده وقضى به على نفسه ، ولكنه أديب ، وليس على الأديب

بأس من التناقض ؛ فهو لا يتناقض في لحظة واحدة ، ولا في حال واحدة ، ولا في ظروف بعضها . ولكن ما يكتبه من الآثار يشل لحظات مختلفة من حياته ، فيظهر مختلفاً متبايناً كما اختلفت هذه اللحظات وتباينت ، وإلا فاقراً « من غير عنوان » صفحة ٢١ ، وحديثي : أموجز هو أم مطلب ؟ أرائع هو بلفظه أم بعماده ؟ قصة المقال بسيرة جداً . قد ساء فهم الأستاذ فساه رأيه في الحياة ، وحين فهم الأستاذ لحسن رأيه في الحياة ، ونس في المقال أكثر من هذا ، إذا حصلت ما فيه . ولكنه أدى هذا المعنى اليسير القريب المؤلف ، الذي لا يحتاج تصويره وأدائه إلى ذكاء خارق ، وإلى علم عميق ، أداه في ثلاث صفحات ونصف صفحة من كتبه ، فراعته وراقته وأعجب ، لأنه أطلب وأسهب ، وأقن في اختيار اللفظ ونقص ما قال من أنه يؤثر الإيجاز على الإملاب والقصد على الزينة والخلية .

والأستاذ أحمد أمين قصة خريفة . فقد خطر له ذات يوم أن الأدب القوى خير من الأدب الضعيف ، وأكبر الضل أنه كان قد ضاق ببعض ما يكتب المحدثون ، وببعض ما قرأ من أدب القدماء ، فاندفع ، وما أكثر ما يندفع الأستاذ أحمد أمين إذا اتبع ، ومد ظل الضعف على الأدب العربي كله ، ووصحنا في قديتنا وحديثنا وصحة مؤذية حقاً ، لم يتردد الكاتب التركي الأديب إسماعيل أدهم في قبولها وتسجيلها في « الرسالة » على أنها حقيقة لا جدال فيها . ولكن هذا الفصل الذي كتبه الأستاذ مندفعاً محلاً أحفظ بعض الآنسات ، فكتبت إلى الأستاذ ترميه بأنه لا قلب له ، أو بأن له قلباً ولكنه لا يخفق . ووارحمته للأستاذ الصديق القوي العنيف ، الذي لا يحب أدب الضعف ، وإنما يحب أدب القوة ، لقد رمته الآنسة فأصمته . وإذا هو يكتب فصلاً من أروع فصوله عنوانه « القلب » . وإذا هو يصور لنا في هذا الفصل أدباً قوياً ضعيفاً ،

خشنا ناعماً عنيفاً لينا ، مصدر قوته غضب صاحبه لقلبه ، ومصدر ضعفه حرص صاحبه على أن يكون له قلب حاس . واستتاع صاحبه برقة الشعور ودقة الحس ، وبأثر صاحبه بما يتأثر به الأدباء ، فيدفعون إلى الضعف حين يحتاجون إلى الضعف ، وإلى القوة حين يحتاجون إلى القوة . وأظرف من هذا كله أن الأستاذ أحمد أمين نفسه لا يؤمن بأن الأدب العربي كله أدب ضعف . وإنما خطر له هذا الخطر ذات يوم أو ذات لحظة ، فسيطر عليه كدأب غيره من الأدباء ، فكتب هذا الفصل . وأنت واحد في هذا الكتاب نفسه دفاعه عن الأدب العربي ، وإلحاحه بالنقد العنيف على الذين يعرضون عن هذا الأدب ويزهدون فيه ، ويصورونه أو يتصورونه على غير وجهه . والأستاذ صادق في الخائين ، لأنه أدب يتأثر بالخطأ الطاريء ، والفكرة العارضة ، فيكتب وينشر ، وما دام أثره الأدبي قطعة من نفسه ، وهو يحرص عليه حرصه على الحياة ، ويسجله إجابة لفرجة حب البقاء ، فهو يثبت كل ما كتب وينشره مجتهداً ، لا يحفل بما يكون فيه من تناقض أو اختلاف ، وليس عليه من ذلك بأس ، فهو أدب ، ونفس الأديب معرضة لهذا التناقض وهذا الاختلاف ، ومن حق الناس عليه أن يروا نفسه في جميع أطوارها ، وأن يظهروا على ما تسيطر إليه من الاضطراب والاختلاف .

وأريد أن أقف مع الأستاذ أحمد أمين عند فكاهة طريفة في كتابه ، وهو هذا المقال الذي أشرت إليه . والذي عنوانه « من غير عنوان » . فهل لهذا المقال عنوان ؟ أم هو خلو من العنوان ؟ فإن تكن الأولى فكيف يكون المقال بغير عنوان ؟ وإن تكن الثانية فما موضع هذه الكليات الثلاث التي نجدها في القهرس ونجدها على رأس المقال ؟ كيف يتصور الأستاذ مقالا له عنوان وهو من غير عنوان ؟ أما أنا فتصور هذا تصوراً واضحاً كل الوضوح : فهو لون من ألوان التناقض الذي يبيحه الأدباء لأنفسهم . والذي شاع وذاع في هذه الأيام ،

واصطنعته الصحف السياسية فيما يكون من معارضتها للحكومات القائمة . فتراها تنشر الفصول أو أشباه الفصول بهذا العنوان « من غير تعليق » ، لأنها ترى في نشرها تنشر من الأخبار غنى عن الشرح والتفصيل . ولكنى أعترف بأن « من غير عنوان » هذه أبرع وأبدع من هذه الكلمة التي ذاعت في الصحف السياسية .

وبعد . فقد كنت أريد أن أشق على الأستاذ ، وأن أشتط على كتابه ، وأن أظهر بعض الأشياء التي لا يكون النقد اللاذع قد لاذعاً بدونها ، وأنا بعد حريص على أن يكون نقدي لاذع في هذه المقالات . ولكنى قد بلغت هذا الموضع من مقالى ، وإذا أن قد تجاوزت القدر المقسوم لى من « الثقافة » . ومع ذلك فهناك شيان لا أستطيع أن أحتم هذا الفصل دون أن ألم بهما وأشير إليهما : فأما أولهما فهو أن الأستاذ أحمد أمين يسرف في حبه لهما في إعراضه عن جمال اللفظ ، وغلوه في أن يكون قريباً سهلاً . وسألت مائوفاً ، ومفهومياً من العامة وأوساط الناس ، حتى يضطره ذلك إلى أن يصطنع بعض الاستعالات العامة التي لا حاجة إليها ، ولا تدعو النكتة الفنية إلى استعمالها ، وإنما هو تعمد من الأستاذ وكفاف يفسد عليه الجمال الأدبي أحياناً ، ويعزى بعض نقاده أن يزعموا أن إنشاء ليس إنشاء أدبياً ، وهو مع ذلك من أحسن ما يكون الإنشاء الأدبي لو لم يتطرف صاحبه -- أحياناً -- بهلجة نسجه ، متعمداً لذلك ، متكلفاً له ، مسرفاً فيه . وما أضرب لذلك إلا مثلاً واحداً ، وهو « قصة الخیار » الذي يقدره الزينى بضخامته ، ويقدره المذنى بنحافته ؛ ويبيعه ذلك بالكوم ، ويبيعه هذا بالرطل . هذا كلام لا حاجة إليه ، إلا أن يعتمد الأستاذ التطرف به والتقرب إلى لغة العامة . وما أكره أن أهبط إلى العامة ، بل يجب أن أدلو منهم ، ويجب أن أرفعهم إلى حيث يدورون الأدب الرفيع ، هذه هي الديمقراطية الصحيحة ،

ولكن يجب أن نحتاط أشد الاحتياط . فقد نسي . فيه الديمقراطية الأدبية ، فنفس الأدب ونبتذله . والأستاذ بعد هذا قدوة لقرائه وطلابه والمعجبين به ، فيحذر أن يحجب إليهم الإسفاف والابتذال .

هذا أحد الأمرين . والأمر الآخر يتصل ببساطة الأستاذ التي أشيرت إليها في أول هذا الفصل . فما أكثر ما يقف الأستاذ عند الذنوب التي لا تخفى على أحد فيسبها بسفا ويفصلها تفصيلا . ويطن فيها كأنه يعالج بعض المشكلات العامة . ذلك عيب الأستاذ . قد تعودوا أن يسطوا لطلابهم أسرار الأمور . أهونها ، فهم يلحظون الطلاب حتى حين يكتبون . على أن بساطة الأستاذ لا تقف عند هذا الحد ، فهو مؤمن بالعلم وبالتقوانين ، وأريد قوانين المنطق والطبيعة ، إيماناً لا يخلو من البساطة التي تنسب أو تنكح تنسب البراعة . وانظر إليه يريد إصلاح الذوق وترفقه ، كما ينظر لعلم الطبيعة والرياضة والكيمياء . وانظر إليه في كل نقده للحياة الاجتماعية ، فهو يأخذ هذه الأمور كلها بالجد ، ويعالجها كما يعالج فصلا من فصول « نعي الإسلام » .

وكيف أستطيع أن أدع الأستاذ الصديق دون أن أنسى أجل الثناء وأخلصه ، على هذه الفصول الحلوة التي تصور الحياة المصرية تصويراً رائعاً ساذجاً أخاذاً . كمقال « سيدنا » ؟ بل كيف أدع الأستاذ الصديق دون أن أعجب أشد الإعجاب بمقاله « سلطة الآباء » ، هذا الذي صور فيه تطورنا الاجتماعي أروع تصوير وأروع وأسرع إلى القلوب ، وإن كان قد امتاز فيه بأخص ما يمتاز به الأديب العفيف ، من الإسراف والإغراق والجرح ، وأظهر حياتنا الحديثة مظلمة أكثر مما ينبغي ، سيئة أكثر مما هي . وأنا على ذلك أرحم هذا الأب البائس الشقي : وأرى له من هذا الذل الذي طرأ عليه ، بعد أن كان عزيزاً كريماً .

## رجعة أبي العلاء

لمؤلفه عباس محمود العقاد

كنت أريد أن أحصى هذا الحديث لكتاب آخر من كتب الأستاذ العقاد لم يظهر بما هو أهل له من النقد ولم يستقبل بما هو أهل له من الاحتفاء وهو قصة « سارة » .

و كنت أتأهب لقراءة هذه القصة للمرة الثانية لأجدد العهد بها وأتذكر ما سح لي من الخواطر أثناء قراءتها الأولى . وإذا البريد يحمل إلى من الأستاذ العقاد كتابه « رجعة أبي العلاء » هدية منكورة . فأعرضت عن فاتنة القاهرة إلى حكيم المعرفة ، وهذا أيسر ما يستحقه مني الحكيم الشيخ . ثم أعرضت عن نقد تلك القصة الغرامية إلى نقد هذه الصورة الفلسفية ، وهذا أيسر ما ينبغي لمثل من إشار الجدل أثر على الدعاية الخيرة .

وقد رغبتني في نقد هذا الكتاب أمران : الأول أنه كتاب جديد لم يقرأه أكثر الناس وإن كان بعض القراء قد ألموا بهذا الفصل أو ذلك من فصوله حين كانت تنشر في البلاغ . ومن الخير أن نعرف إلى القراء كتاباً جديداً لا يعرفونه أو لا يكادون يعرفونه ، فنجمع بذلك بين النقد الذي نقصد إليه وبين التعريف الذي قد يدفع إلى القراءة ويرغب فيها : والثاني أي قد أملت كتابين في أبي العلاء فظهر أحدهما منذ خمسة وعشرين عاماً ، وأرجو أن يظهر الثاني في الأسابيع المقبلة إن شاء الله . فثنا أحب أبا العلاء ، وأكلف به وأحب التحدث

عنه والتحدث إليه والاستماع للذين يتخذونه موضوعاً للحديث ومناقشتهم ، حين  
نخوضون من حياته وأدبه وفلسفته في هذا الباب أو ذاك . ولم أكن قد قرأت  
ما نشر الأستاذ العقاد من فصول كتابه هذا في البلاغ ، ولم أكن قرأت إلا  
عسلاً واحداً من هذه الفصول ، ثم صرفتني عنها شواغل الحياة وانتظار أن  
يظهر الكتاب جملة بعد أن ظهر تفاريق . وقد جلست إلى الكتاب جلستين في  
اليتين فجنيت منه ثمرًا حذاً وظهرت منه بمتاع قيم ، ووجدت فيه لنفسي غذاء  
ما وجدت لنفسي فكاهة ، وكما وجدت فيه عن نفسي ترويحاً وعليها ترفيحاً .  
يرأى في الأستاذ العقاد وفي آثاره الأدبية والفلسفية معروف ، فهو من هؤلاء  
الأدباء القليلين الذين لا يقرؤون لمقطع الوقت ، ولا يستعان بهم على احتلال  
المراعى ، وإنما يقرؤون لالتماس الفائدة ، واكتساب العلم ، واجتلاب المتعة .  
هو من هؤلاء الأدباء القليلين الذين لا يقرأ آثارهم اليوم لنسائها غداً وإنما  
يقرأها ثم تستبقى الكثير منها في أنفسه ولا يخلص منها حتى ولو بذلنا الجهد  
في ذلك ، لأن صاحبها يكتبها عن سهولة ولا يتجها في يسر . ولم يفتاوطها من  
قريب ، وإنما جدها فيها واجتهد ، وكدها فيها واحتمل المشقة . فكان ما حصله  
منها خليقاً أن يثبت ويستقر ، وأن تتصل به الأيام ، وهو أيضاً من الأدباء  
القليلين الذين لا يقرؤون في سهولة ويسر ، ولا يفهمهم في غير جهد وكد ، وإنما  
يقرؤون في أناة وروية ، ويفهمهم بعد نظر وتفكير ، لأنهم يكتبون عن أناة  
وروية ، وينتجون بعد نظر وتفكير . وقد أنفق الأستاذ العقاد في تأليف هذا  
الكتاب نوعين من الجهد هما خليقان بالرضى كله والإحجاب كله ، وبالثناء كله :  
فأما أول هذين الجاهدين فهو جهد البحث والدرس والمراجعة والاستقصاء وسؤال  
الزوميات عما أضمرت وما أظهرت ، واستخبارها عما أسرت وما أعلنت ،  
يبحث معها في هذا السؤال حيناً ويترجح معها حيناً آخر ، ويرفق في هذا الاستخبار



مرة ويعتف بها مرة أخرى ، ويستخلص منها ما عندها أحياناً ويفرض عليها ما عنده أحياناً أخرى .

وأما الجهد الثاني فهو جهد التروية والتفكير ، وجهد القياس والاستنتاج . فالأستاذ العقاد ليس مؤرخاً في هذا الكتاب ، ولكنه مؤرخ ومتنبئ ، إن صح هذا التعبير . بل قال إنه مؤرخ ومتنبئ ، وواصف محقق أيضاً . يتحدث إلينا عما كان ، ويتحدث إلينا عما هو كائن ، ويتحدث إلينا عما سيكون ، أو عما يقدر أنه سيكون . لم يرد أن يصور لنا أبا العلاء فحسب . أو قل لم يرد أن يصور لنا أبا العلاء كما كان . وإنما أراد أن يصوره كما يمكن أن يكون لو أن الله أنشده ورده إلى الحياة . والله وحده هو القادر على أن ينشر أبا العلاء ، وهو القادر على أن يعطينا من أبي العلاء الصورة الصادقة ، لو أن أبا العلاء عاش في هذا الزمن الذي نعيش فيه . فما نحن فتيكمون حين نحاول ما لا طاقة لنا به ، ونطلب ما لا سبيل لنا إليه . ومن التكلف ما ينتهي بانتهابه إلى الإخفاق ، ويضطرم إلى الإحالة ، ويدفعهم إلى ألوان من السخط ، ومن التكلف أيضاً ما يخطئ ، بانتهابه ما أرادوا ، ولكنه ينتهي بهم إلى خير مما أرادوا ، ويتيح لهم إمتاع قرائهم بنون من ألوان الأدب طريف . وهذا هو الذي كتب للأستاذ العقاد . فقد أراد أن يعطينا صورة من أبي العلاء لو عاش في هذا العصر ، فأعطانا صورة من الأستاذ العقاد الذي يعيش في هذا العصر ، وما أحسبنا قد خسرنا شيئاً بل اعتقد أننا قدر بعنا كثيراً . فمن أعسر الأشياء وأبعدها عن متناول الأديب مهما يكن ذكي القلب نافذ البصيرة أن يبلغ الغاية من تصوير الحقيقة التاريخية ، فكيف باختراع الصورة لشيء ، لم يكن وليس من الممكن أن يكون ؟ أريد أن أقول إن من أصعب الأشياء على الأديب أن يعطينا صورة صادقة من أبي العلاء نفسه كما عرفه المعرفة ، وكما عرفه معاصروه ، فكيف السبيل إلى أن يعطينا

الأديب صورة من أبنى العلاء العصري الذي لا يعرفه أحد ولا يمكن أن يعرفه أحد، لأنه لم يوجد وليس يمكن أن يوجد؛ وأقل الناس علماً بالتاريخ الأدبي دراسة لصناعته يعرفون أن كثيراً من المؤرخين ربما حيل إليهم أنهم يصورون الكاتب أو ذاك وهذا المكر أو ذاك، ولكنهم في حقيقته الأمر لا يصورون أنفسهم، يسكنون أنفسهم على رجال التاريخ ويصفون أنفسهم حين يصفون رجال التاريخ، يفهمون النصوص الأدبية كما يستطيعون. وكما تريد طنائعهم مرجعهم. لا كما أراد الأديباء والمفكرين الذين آمنوا هذه النصوص أو كتبوها. كيف بالمؤرخ الأدبي إذا أراد أن يبحث شخصاً من أشخاص التاريخ ويتذججه في جديدة معاصرة لا يكاد يعتمد فيها إلا على الشواهد والقرائن، ولا يكاد يندمها إلا من الوهم والخيال؟

وكذلك أراد الأستاذ العقاد أن يرد أبا العلاء إلى الحياة فلا يصنع شيئاً، إنما أحيانا من أبنى العلاء ذلك الشخص المعروف أو الذي لا تعرف من أمره شيء، ولعلنا نجعل من أمره أكثر من تعرف، وليس على الأستاذ العقاد من ذلك، فقد حاول حيث لا سبيل إليه، وحاوله وهو يعلم أن لا سبيل إليه. أراد الدعاية والمزاج فلا ينبغي أن يحل عليه الجهد والتحقيق. وأظرف من هذا أن الأستاذ العقاد أراد أن يرتحل بأبي العلاء بعد أن بعثه بعثاً جديداً، أن يطوف به في أقطار الأرض فلا يصنع شيئاً، وإنما ارتحل به في طائفة من الكتب التي قرأها، وفي ألوان من العلم الذي أحاط به، وفي فنون من الآراء التي اقتبها واستقصاها، ذلك لأن الأستاذ العقاد نفسه لم يرتحل ولم يطوف في أقطار الأرض، وإنما ارتحل وهو مقيم وطوف وهو مستقر، وعرف الدنيا وهو لم يتجاوز حدود مصر. وهذه مزية من مزايا الأستاذ وقضية من فضائله، ولكن الله لا يكلف الناس فوق ما يطيقون، ورائعة السجائر ربما تكن جميلة لا تستطيع

أن تعطيك إلا ما عندها كما يقول الفرنسيون . وعند الأستاذ العقاد أدب وعلم وفلسفة ، فقد ملأ يديك أدباً وعلماً وفلسفة ، ولكنه لم يرحل إلى أوروبا ولا أمريكا فلا يستطيع أن يرحل بك ولا يأتيك العلاء إلى أوروبا ولا إلى أمريكا . ينزل بك ويأتي العلاء في ألمانيا وفي روسيا وفي السويد والنرويج والدانمرك ، وفي بلاد الإنجليز وفي إسبانيا وفي أمريكا ، ولكنه لا يركب من هذه البلاد شيئاً ، ولا يظهر ولا يظهر أبا العلاء إلا على بعض ما عنده من آراء أصحابها وبعض سيرهم . وينتهي بك إلى مصر . فيظهرك منها على طبيعتها الرائعة وأهرها الجليل . ذلك لأنه يعرف مصر ، فدرآها رأى العين ، فهو قادر على أن يعطيك منها شيئاً ، وهو أمين كل الأمانة . ولا يستطيع أن يعطيك من أوروبا ولا من أمريكا شيئاً لأنه لا يعرفهما . استغفر الله واستغفر الأستاذ العقاد ، بل لأنه لم يرها رأى العين ، ولم يلم بهما إلا من طريق الكسب

وأظرف من هذا وذلك أن الأستاذ العقاد أراد أن يخلب حبه على عقله فلم يصنع شيئاً . لأن عقله كان في هذه المرة أقوى من خياله . وماذا تريد أن يصنع وهو يعرض لمشكلات الفلسفية والسياسية والاجتماعية العليا ، وله في كل هذه المشكلات آراؤه ومذاهبه ؟ أترام يعرض عن هذه الآراء والمذاهب ويرسل خياله القوى على سجيته ؟ ولكن في هذا خطراً شديداً ، فقد يجمع الخيال وقد يمتد إلى غير غاية ، وقد يؤيد من الرأي ما لا يرى العقل . والأستاذ العقاد ديمقراطي مخلص يفيض الشيوعية كل البغض ، ويفيض الفاشية كل البغض . ويؤثر ما في الديمقراطية من الاعتدال والتمدد ، فلا بد من أن يفرض هذا كله على أبي العلاء ، ولا بد من أن يظهر لنا أبا العلاء ، ديمقراطياً معتدلاً عدواً لسلطان موسوليني وهتلر وستالين ، بل للأستاذ العقاد ميل إلى بعض الديمقراطية دون بعضها الآخر ، فهو يؤثر ديمقراطية أهل الشمال ، فلا بد من أن يفرض هذا على

أبي العلاء ، فأبو العلاء إذا يؤثر أهل السويد والنرويج والدانمرك على شعوب  
أوروبا كلها . والأستاذ العقاد يعجب بما في حياة الإنجليز من توازن ، فلا بد من  
يعجب أبو العلاء من هذا التوازن أيضا . وكذلك أصبح أبو العلاء صورة  
الأستاذ العقاد ، ولم يصبح الأستاذ العقاد صورة لأبي العلاء . والمسألة التي تحتاج  
إلى جواب ، ولكننا لم نظفر بهذا الجواب هي هذه : أيرضى أبو العلاء عن هذه  
صورة التي فرضها عليه الأستاذ العقاد لو أنه عرفها أم يسخط عليها ؟ أما الأستاذ  
عقاد نفسه فيجبنا بأن أبا العلاء لا يرضى عن هذه الصورة . لأن أبا العلاء لا يريد  
أن يكون شيئا غير أبي العلاء . فقيم إعطونا هذه الصورة ؟ وفيما عرضها علينا ؟  
فهم إزعاج الشيخ عن مرقده ؟ وفيما شكله السفر في الطائرات والقضارات والسفن  
بشكله ما لا يطيق وما لا يحب ؟ في شيء واحد هو هذا الميت الخصب ، وهذا  
حب الممتع ، الذي يعتمد إليه الأدب نبعطيته ما عنده ، وليطورك على ما في نفسه .  
ما ينبغي لك أن ترسم للأدب طريقه أو تعرض عليه هذه الخطوة أو تلك في  
الإنجاز ، وإنما ينبغي أن تقبل منه ما يعطيك راضيا عنه أو ساخطا عليه . فأبلا له  
ما نأمر منه . وأن نحمد له ما يبدل من الجهد والحمولة لإمتاعك وإرضاء نفسك ،  
سواء أوفق إلى ما تريد وإلى ما تريد من ذلك أم لا يوفق . فلنحمد الأستاذ  
عقاد جهده ولنشكره لمحاولته وتسجيله كثيرا من التوفيق في تصوير أبي العلاء .  
القديم ، وإن كنا نظن أنه قد أخطأ من صورة الشيخ بعض ملاحظها ، وذهب  
في تفسير بعض شعره مذاهب ما أظنه كان يرضاها وما أظنها تلائم الحق من أمره .  
فقد روى الأستاذ العقاد من حديث أبي العلاء عن الخمر مثلا شعرا كثيرا ، وهو  
يرى أن الشيخ لعنه قد ذاق الخمر في الأديرة التي ألبسها ، وهذا جائز ، وجائز  
أيضا أنه ذاقها في غير الأديرة حين كان يعيش عيشة الشعراء في الطور الأول من  
حياته ، بل جائز أيضا أنه قد ذاقها في بغداد حين كان يعيش عيشة الفلاسفة

والعلماء ، ولكنني لأحسبه شرب الخمر أوهم بشربها بعد العزلة كما يظن الأستاذ ، وما أحسبه اشتاق إليها ، وما أرى أن في شره ما يصور هذا الشوق ، وإنما هي مذاهب الرجل في التعبير والتصوير ، لا ينبغي أن تؤخذ على ظاهرها .

ويجري الأستاذ العقاد بين أبي العلاء وتلميذه حواراً يكثر فيه الاستشهاد بالقرآن الكريم . وأكبر الظن أن هذا النوع من الحوار وهذا النحو من الاستدلال لا يلائم روح أبي العلاء ، وإنك لتقرأ « الفصول والعاليات » ، وهي كتاب وعظ وتمجيد لله فيما يقول صاحبه . فتعجب مقدار استشهاد أبي العلاء بالقرآن والحديث . وقد لاحظت أن الرجل لا يستشهد بها إلا على اللغة ، وعلى اللغة وحدها . ثم إن الأستاذ يحصل أبا العلاء من هذا الاستدلال ما لا يطبق ، فهو يجري على لسان أبي العلاء أن السكرنة لا رأى لها ، وهو يحمل أبا العلاء على أن يستشهد بذلك بآيات من القرآن الكريم كقول الله تعالى : « ولكن أكثرهم لا يعقلون » وكقوله : « وإن قطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » ، وما أشبه إلا أن الأستاذ يوافقني على أن هذا النحو من الاستدلال شديد الخطر ، بل هو قد نبه على ذلك بالنص ، فأجري على لسان التلميذ أن الله يأمر بالشورى ، ثم أحرى على لسان أبي العلاء أن الله يأمر بسؤال أهل الذكر ، ويفضل العلماء على غير العلماء . وواضح جداً أن كل هذه الآيات ملائمة أشد الملائمة لمواضعها التي جاءت فيها ولأغراضها التي سيقى إليها ، وإنما تكلف شططاً من الأمر حين نسوقها للاستدلال على أن للسكرنة رأياً في الحكم أو على أن السكرنة لا رأى لها فيه . وقد أراد الأستاذ أن يجعل لأبي العلاء منزلة بين أبي نواس وبين عمر الخياط ؛ وما أدري موفق هو في هذا إلى الصواب أم غير موفق ؟ ولكنني أعلم أن أبا العلاء خليق أن يقرن إلى أبي نواس في مذهبه الخلق وفي إعراضه عن الذات لأنها لا يمكن أن تتسعه كلمة .

وهناك هناة كنت أحب أن يبرأ منها الكتاب ، فقد تصور تلميذ أبي العلاء  
 الشيخ يمكن أن يكون قاضى القضاة وقاض واحد للمعزة يكفيها ، وما أحسب  
 أن قد كان لها قضاة في عصر أبي العلاء ، وقد جرى على لسان التلميذ وعلى لسان  
 شيخ كلام أهل فيه النحو بعض الإجمال . وما أظن أن أبا العلاء كان ينصب  
 نجر حيث يجب الرفع . وما أظن أنه كان يقبل من تلميذه أن يضع « من »  
 « إن » ما . وما أشك في أن هذا من خطأ النطبعة ولكنه حليق أن ينبه إليه .  
 وفي الكتاب ذكر حيرة المنبت الذى لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، وما أعرف  
 المنبت حائر ، وإنما المنبت مسرف في الإسراع يمرض نافته للمطب ، فلا يغنى  
 إسرافه في السرعة شيئاً . فلا حيرة هناك ولا حائر .

وبعد فإن في الكتاب فصولاً رائعة رائعة ، يجذفها القارىء من اللذة والمتاع  
 لا بعض منه هذه الملاحظات ، ولولا ما يكن فيه إلا أنه يمكن القارىء الشاب  
 الإلمام بهذه الآراء التى تصطدم ويشتد بينها الصراع فى حياة العالم الحديث .  
 عرفت الأستاذ المقاد من هذه الآراء ، لكان هذا خبيراً أن يجعل قراءته مصدر  
 متصل وغذاء للعقل والروح .

## إلى صديقي أحمد أمين

أخي العزيز :

قرأت فصلك الأخير الذي تناول فيه النقد فصورته ما رأيته من ضعفه ،  
والتفت له العطل والأسباب . وما أكثر ما يتمكن أن يتصل بينك وبينى من الجدل  
لو أننى وقعت عند هذه القضايا التى أرسلتها إرسالا ، وحكمت بها على النقد قبل  
عشرين سنة ، وعلى النقد الآن ؛ وعلى الأدب قبل عشرين سنة ، وعلى الأدب  
الآن ! ولكن الفصل فصل صيف ، لا يسمح بالجدل الطويل والحوار المتصل ،  
لأننا مشغولون عن هذا وذاك بما تعلم من أعمالنا اليومية الثقيلة التى يقتضيها آخر  
النشاط الدراسى وأول هذه الأيام التى يفرغ فيها كل منا لنفسه ودرسه وراحته  
وراحة من يتصلون به ، فلن أجادلك فى أكثر هذه القضايا التى لا أكاد أقبل  
رأيك فيها . ولو أنى أرسلت نفسى على سجيته لما جادلته فى شئ ، مما ألمت به  
فى هذا الفصل ، وتقرأته كما أقرأ كثيرا مما تكتب مستمتعا دائما ، عارفا أحيانا ،  
ومتكرا أحيانا ، ومتحدثا إليك بما أعرف من آرائك وما أنكر .

نعم لو أنى أرسلت نفسى على سجيته لا كتبت بما كان بينك وبينى من  
حديث أول أمس ، ولكنى مدفوع هذه المرة إلى أن أتجاوز السجبة ، وأخرج عن  
العادة المألوفة ، وأرد بعض الأمر إلى نصابه ، لأنك تجاوزت فيه ما ينبغى من  
الإنصاف . وأنا أبرأ إليك من الغرور وأربأ بك عن الجور ، وما أشك فى أن  
أمثالى من الكتاب الذين عرضت بهم أو عرضت لهم فى فصلك القيم يبرأون إليك



من الغرور ويربأون بك مثلي عن الجور ، ويزنون مثلي أنك عرضت لقضية  
ولقضيتهم هم في النقد عرضاً سريعاً . حظ المبالغة فيه أعظم من حظ التثبت  
بدر الأناة

وأظنك قد عرفت الآن القضية التي أريد أن أجادلك فيها ، والمذهب الذي  
لو أحرفك عنه . فأنت ترى أن جماعة النقاد الذين كانت اليهم قيادة الرأي  
أو قيادة الحياة العقلية منذ حين . قد اصطنعوا الشجاعة أول أمرهم ، وآثروا  
راحة أو كانت الصراحة لهم خلقاً ، فكسبوا كما كانوا يرون ، وأخذوا يحفظونهم  
من الحرية ؛ لم يحفظوا بالجمهور ، ولم يخافوا الرأي العام ، ولم يحسبوا لمقاومة  
الظلم حساباً . وشأن عن شجاعتهم تلك ، وعن مراحبتهم هذه . أن يشعروا في  
العقلية نشاطاً ؛ فأنهم مصر ، فكان الصراع العنيف بين القديم والجديد ،  
من الخصام الشديد بين الحرية والرجعية ، وألفت الكتب ونشرت المقالات  
باعت القصود ، وانتفع الأدب بهذا كله واستفاد النقد . وكل هذا صحيح عندي  
فإنك فيه ، ولكنك ترى بعد ذلك أن هؤلاء الكتاب قد أودوا في مناصبهم  
ونفسهم وفي سمعتهم وفي أرواحهم . فلم يثبتوا للأدى ، ولم يعمدوا في المقاومة ، ولم  
يهم أتباعهم وأوليائهم على الثبات ، وإنما عطفوا عليهم عطفاً أفلاطونياً لا يشبه  
نجدته أمثالهم في أوروبا من الأتباع والأولياء . فلانوا ودانوا ، وجاروا وداروا ،  
ونابوا العافية ومضوا مع الجمهور إلى حيث أراد الجمهور ، ونشأ الجيل الجديد فاقتدى  
بأسوته الكبار وسار سيرتهم ، وأصبح النقد مصانعة ومتابعة ، وأصبح الأدب  
تقليداً

وهذا أيها الأخ العزيز هو الذي أخالفك فيه أشد الخلاف . وأنكره عليك  
أعظم الإنكار ، يدعني إلى ذلك أمران : أحدهما أن رأيت بعد كل البعد عن أن  
يصور الحق ؛ والثاني أن رأيت عسقي ، وأؤكد لك أنه يحفظني كل الإحفاظ

ويؤذي كل الإيذاء : ولعله يحفظني ويؤذي أكثر مما أحفظني وآذاني كل  
 ما لقيت من ألوان المشقة والإعنات . قبل من الحق أن هؤلاء الكتاب الذين  
 تشر إليهم قد أدركهم الضعف والوهن ، فالأولاء الجمهور ، وصانعو السلطان ، وآثروا  
 العافية في أنفسهم وأموالهم ومناصبهم ؟ ومتى كان هذا ؟ أحيان عصفت العواصف  
 بمصر فأفسدت أمرها السياسي والعقلي وألفت نظامها الحر الغناء ، وقرضت عليها  
 نظاماً آخر مصنوعاً ألقيت فيه كرامة الأفراد والجماعات وتجاوز العيث فيه بالحرية  
 كل حد معقول ؟ تعال أيها الأخ العزيز نبحت معاً عن هؤلاء الكتاب أين كانوا  
 في ذلك الوقت ؟ وماذا صنعوا ؟ وإلى أي حد جاوروا وداروا وآثروا العافية ؟ لست  
 في حاجة إلى أن أتهمهم . فأت تعرفهم كما يعرفهم الناس جميعاً . لم يكن لأكثرهم  
 منصب في الدولة : ولعل كنت من بينهم الوحيد الذي كان يشغل منصباً من  
 المناصب ، فلما عصف العاصفة أقصبت عن هذا المنصب فأدركت الزملاء ووقفت  
 معهم حيث كانوا يقفون ، ومضيت جميعاً إلى حيث كان يجب أن تمضي ، واحتضنت  
 جميعاً ما كان ينبغي أن نحتمل من الأثقال . فكما أيها الأخ العزيز ألسنة السياسة  
 وسيوف القادة ، والسفراء بينهم وبين الشعب . وكنا سباطاً في أيدي الشعب يمزق  
 بها جلود الظالمين تمزيقاً . وكنت ترى وكان غيرك يرى آثارنا في الظلم والظالمين  
 وبلائنا في مقاومة العدوان والمعتدين ، وحفاظنا لهذا الشعب الذي لم يكن له قوة  
 إلا قوتنا يومئذ . وكنتم تعجبون منا بذلك وتحمدوننا لنا وتؤيدوننا فيه . وكنتم  
 تقومون على الشاطئ . وترونا ونحن نغالب الأمواج ونقاوم العواصف ، نظهر عليها  
 حيناً ونظهر علينا أحياناً ، فكان بعض الناس يحسب لنا إذا خلا إلى نفسه لا إذا  
 رآه الناس ، ويعطف علينا إذا لم يحس السلطان منه هذا العطف . ولست أزم  
 أني قد استأثرت بهذا الفضل ، فقد كان نصيبي منه أقل من نصيب كثير من  
 الزملاء . لم أدخل السجن وقد دخله منهم من دخله . أترى أن مواقفنا تلك كانت

تف التزمين ؟ أترى أنا شغلنا عن النقد الأدبي بأنفسنا وأموالنا وإشارتنا للعافية  
 راتنا للسلطان ؟ أم ترى أنا شغلنا عن النقد الأدبي بالدفاع عن قوم لم يكونوا  
 نمون عن أنفسهم ، لأنهم لم يحسنوا هذا الدفاع أو لم يقدروا عليه أو لم يريدوا  
 تنويرها فيه ؟ أليس أول ما يجب على المؤرخ الأدبي وعلى المؤرخ بوجه عام  
 يكون منصفاً ! أترى من الإنصاف أن تزعم أن الذين حفظوا للشعب المصري  
 مقاومته للظلم وأدوا إليه رسالة ساسته وفدته ، وأدوا إلى ساسته وقادته  
 كل من يضطرب في نفسه من الآمال والأمانى ، وما كان يثور في قلبه من  
 الحلف ، كانوا منهزمين يدارون ويجارون ويؤثرون العافية ؟

مهلاً أيها الصديق ! فقد يفهم من الشعوب فصر إذا كره ، ولكنه لا يفهم من  
 ملة الناس وقادة الرأي وحفظة التاريخ . والقريب أن رأيت هذا في إخوانك  
 كتاب يظهر أنه قد أعجبت حتى أنك عن حقائق ما كان ينبغي أن يلمح عنها .  
 لاء الكتاب المنهزمون في رأيت لم تشقهم هذه السياسة العنيفة المذكورة عن  
 ب ولا عن النقد . وإليك لعلهم جميع كانوا يخصصون في السياسة وجه  
 رشم يفرغون لأدبهم آخره . وكتبهم قد أنتج في الأدب أثناء المحنة ، وفي  
 ب الخالص الذي لا يتصل بالسياسة ولا يشت إليها بسبب ؛ ومنهم من اتخذ  
 جن وسيلة إلى هذا الإنتاج ؛ ومنهم من لم تصرفه طامة الحياة العنيفة وشدة الحياة  
 صة عن أن يجول في عالم الفن جولات ثم يعود منه ومعه زخارف في الشعر أو  
 الترفيه إليها إليكم لتلذذوا بها وتستمتعوا شذاها ، وتستعينوا بذلك على المضي  
 أعمالكم الهادئة المطمئنة .

مهلاً أيها الصديق ! فقد يحتمل إلى أن هؤلاء الكتاب أنفسهم لم يهتموا بالنقد  
 في ذلك الوقت ولم يقصروا في العناية به . وإذا لم تكذبني الذكارة فليهم قد  
 تدرك أنت وتناولوا كتبكم فيما ينبغي لها من العناية والدرس . وإذا لم تكذبني

الذاكرة قد كانوا يفرضون على أنفسهم برغم اليأس وأتقاها وأهوالها ، وبرغم الحياة الشاقة التي كانوا يحسونها ، والتي عرفت منها شيئا وغابت عنك منها أشياء ، كانوا يفرضون على أنفسهم أن يقرأوا ما يظهر من الكتب والدواوين وأن يقولوا رأيهم فيه . كانوا يفرضون على أنفسهم صفحة أدبية في الأسبوع يفرغون لها اليوم أو أكثر من اليوم ، ويعرضون فيها للنقد كما تحبه وترضاه . ولست أدري كيف نسبت أن المقالات التي كانوا يذيعونها في النقد أثناء هذه الأعوام الأخيرة قد كانت تثير من الخصومات شيئا كثيراً ، منه ما يشور بينهم هم ، ومنهم ما يشور بينهم وبين الأدباء الناشئين . ولعلك لم تنس بعد أن خصومة ثارت بيني وبين هيكل حول نورة الأدب ، وأخرى بيني وبين العقاد حول اللاتينية والسكسونية ، وثالثة بيني وبين العقاد حول ديوان من دواوينه . فانت ترى أن إخوانك لم يقتضروا ولا يفكروا ، ولم ينام بعضهم بعضاً ، ولم يأكل بعضهم شر بعض . ولعلك لم تنس أن قد اتخذت « الزاد» في بعض الأحيان وسيلة من وسائل النقد ، فكنت أشدد حيناً على الكتاب الذين استمرت مررتهم وتم لهم النصح ، وأرق حيناً آخر لاكتئاب الذين لم تستمر لهم الأمور بعد . وأنا أفهم أن تطالبنا بالمزيد ولا تكفني منا بعدا فطلي ! فتعني تطالب أنفسنا بالمزيد ولا تكفني من أنفسنا بما نتعج : ولكن هذا شيء ، ووصفنا بالمداورة والمخزاة وإثارة العافية شيء آخر .

وبعد فليس السبيل على الذين أدوا واحبهم الأدبي كما استطاعوا وما زالوا يؤدونه كما يستطيعون برغم ما يتلأ حياتهم من الضموم وما يعترض طريقهم من الشوك ، وإنما السبيل على الذين يتعج لهم الهدوء ويستمتعون بالبال الرخي والحياة المستقيمة المطمئنة ثم لا يتقدمون لأنهم لا يقرءون ، أو لا يتقدمون لأنهم يقرءون ويشفقون إن أعلنوا آراءهم أن يتفكر في الناس ، وأن يسلفهم أصحاب الكتب بالسنة حداد .

إلى هؤلاء أيها الصديق تستطيع أن تسوق الحديث ، وعلى هؤلاء أيها الصديق  
عليك أن تصب اللوم صبا .

وأخرى لا أريد أن أختم هذا الفصل قبل أن أذكرها إتماما . أنت تذكر قوما  
سكنوا على عرش الأدب وقد آمن بعضهم بعضا وحافهم الناشئون ، فأت إذا  
الخصومة بين من يسمون « الشيوخ » ومن يسمون « الشباب » جدعة .  
لست توافقني على أن التفكير في هذه الخصومة لا يخرج من بعض الحزن . فقوم  
الخصومة فيما أعلم أن الأدباء الناشئين ضعاف أتركون محزونين . يخجل إليهم أن  
يرشحهم من سجل الأدباء ، محوذا مع أن النقد يثبتهم فيه إقبالا . يريدون أن  
يواالجهد السير مابله أسلافهم بالمطوعة والمجبرة واحتمل الأذى وكثرة القراءة  
درس . ويريدون أن يتم لهم ذلك مابين طرفه عين وانباهتها . كما يقول القائل :  
هم كبرياء . لا تخلو من سخط . ومن سخط يذكر بأخلاق الأطفال : فهم إن  
نبوا رأوا لأنفسهم العصمة ، ولم ينتظروا من النقد إلا لنا ، وحدا . فإن أدركهم  
من النقد قالوا : حسد وتكبر واضطهاد وأثرة وتضييق لهم . وفيهم غرور يخجل  
كل واحد منهم أنه ممتاز من أترابه جميعا . ومما أنسى قلنا أنسى كاتبا أضاع  
لذة وصداقة وجبا وعطفا لأشي . إلا لآتي جمعت بينه وبين كاتب من معاصريه  
فصل واحد ، وكان ينبغي أن يمتاز في رأيه ، وإلا لآتي دعوته إلى أن يستزيد  
من القراءة فعد هذا إسرافا واعتداء .

أمام هذا الجيل الرخو من الأدباء الناشئين يضيق الماقد المخلص بالنقد ويتردد  
في يصد عنه صدودا في بعض الأحيان ، ولكنه لا يلبث أن يرى حق الأدب  
فيه ، فيستقبل من أمره ما استدبر ، ويثني على قومه وهو يعلم أن ثناءه سيملوهم  
برا وميخرجهم عن أطوارهم ، ويعيب قوما وهو يعلم أن عيبه يباهم سيدهم  
إلى اليأس إن كانوا أخيارا ، وسيدفعهم إلى القحّة إن كانوا شرارا .

ونحن نرغم هذا بل من أجل هذا نحظى في طرقتنا ، لا نقف كما يظن بعض  
الناس ، ولا نرجع كما يظن أنت أيها الصديق : لأنك في أكبر الظن قد لا تقابله  
أحياناً ، وقد نطلب منا ما نطلب من أنفسنا ونحول ظروف الحياة بيننا وبينه .  
أما بعد . فإني أحب أن أؤكد لك أني أنا خاصة ما زلت عند رأيك القديم في  
صريحاً إلى أقصى حدود الصراحة ، جريئاً إلى أقصى حدود الجراءة ، مستعداً في  
هذا العام إلى أن أستأنف ما فعلت منذ عشر سنين ، وإلى أن أستأنف ما فعلت  
منذ أربع سنين . وإني لشديد الأسف أن كانت ثقة الأستاذ كراتشكوفسكي  
أقوى وأشد من ثقتك أنت : فإنه لما تردد في مقدمة ترجمته « الأيام » أن يكتب  
بأن ما عرض لي من الخطوب ليس كل شيء ، وأنه ينتظر أن يعرض لي مثله  
ولكن الأمور مرهونة بوفاء فلا تعجل ، فمن يدري ؟  
وأنا أرجو بعد هذا كله أن نلتقي هذا الفصل بصدر رحب : فإني أهديه إليك  
تحية صديق يضمن لك أصدق الحب وأوفاه .

## الانجليز في بلادهم

للكنوز ما فقد عظيم باشا

إذا كتب تاريخ الحياة المصرية التي نعيشها بعد أعوام طوال أو قصار فأكبر  
أن المؤرخين سيمنحون الدكتور حافظ عفيفي باث ، وسيجلون في أمره شيئين  
ضيق فيها يسجلون من الأشياء حول هذا الرجل الذكي اللبق الرشيق ،  
يجلون أن كثرة المعاصرين له لم تحب سفرته عن مصر في الندرة ، لأنها كانت  
الصدق باشا ، ولأنها أعادت نظام صدق باث إلى حد بعيد سيفداه المؤرخون  
ن ، ولأنها بهذه المعونة مدت آماد الاستبداد لهذا الطاغية وأخرت استرداد  
ب حقه ورجوعه إلى حريته .

ولكنهم سيسجلون بعد ذلك لهذا الرجل الذكي اللبق الرشيق الموفق أن سفرته  
لم تكن شرًا كليًا ، وإنما كان فيها خير كثير . ومن الجائز جدًا أنهم قد يستكشفون  
سياسيًا لا يعرفه الناس الآن وقد يعرفه المؤرخون في يوم من الأيام ، ولكن  
من المحقق أنهم سيسجلون خيرًا من مع آخر لا يتصل بسفارة وزيرنا الداهية كما  
تسببه الصحف الهازلة ، وإنما يتصل بحياته في بلاد الانجليز ، وهذه الثمرة الحلوة  
التيمة الباقية التي عاديها من هذه البلاد ، وأهداه إلى قومه في هذه الأيام ، شأنه  
ب ، أو كأن الظروف غريد ، أو كأن توفيقه يريد أن تكون هذه الثمرة الباقية  
كثيرة عما يُظن أنه قد أساء به إلى كثير من مواطنيه .

وهذه الثمرة التي نتجت وحدها من جهود الدكتور حافظ عفيفي باشا أثناء سفارته عن قومه في بلاد الإنجليز هي هذا الكتاب العظيم الذي أخرجه في هذا الأسبوع والذي تفضل بأهدائه إلى أمس ، والذي لم أقرأ منه إلى الآن إلا قليلا . ولكن لا أتردد في أن أقول إنه سيبقى وسينقى بقاء طويلا ، وسيجلى اسم صاحبه بين كبار الكتاب الذين سيكون لهم في الحياة العقلية والسياسية لهذا البلد أثر عظيم . ويمكن أن نذكر أن الذين يؤرخون للشورة الفرنسية لا يستطيعون أن يهملوا تأثير الرسائل الإنجليزية التي كتبها « فولتير » أثناء شبابه بعد أن أقام في بلاد الإنجليز أعواما تتعدى تبلغ الأعوام التي أقامها الدكتور حافظ عفيفي باشا في هذه البلاد . ولا يستطيعون أن يهملوا أثر هذه الفصول التي كتبها مونتسكيو عن الإنجليز في كتاب روح القوانين . ولا يستطيعون أن يهملوا أثر هذه العلاقات المتصلة المنظمة الحسنة بين الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر وبين بلاد الإنجليز عامة وكتاب الإنجليز وأدبائهم خاصة .

ولست أريد أن أقول الدكتور حافظ عفيفي باشا إلى فولتير أو مونتسكيو أو غيرهما من الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر ؛ فليس الدكتور حافظ عفيفي فيلسوفا ولا كاتباً . وما أظنه بل أنا واثق بأنه لا يرى في نفسه أنه فيلسوف أو كاتب ، وإنما هو رجل من رجال السياسة المصريين خصب الذهن ، واسع العقل ، نافذ البصيرة ، قوى الحس ، دقيق للملاحظة ، عظيم الاطلاع ، أقام في بلاد الإنجليز أعواماً فرأى وسمع وتأثر وافتتح ، ثم رأى أن في تسجيل ما لاحظ تماماً لقومه ، قالف هذا الكتاب وأذاعه في الناس .

لست أريد أن أقول له إلى فلاسفة الفرنسيين وكتابهم في القرن الثامن عشر ، وإنما أقول في غير تردد أن كتابه هذا لن يكون أقل أثراً في حياة المصريين من رسائل فولتير أو فصول مونتسكيو أو آثار غيرهما من الفلاسفة والكتاب . وقد



والله لهذه الأمة الإنجليزية في أراد لها من الخير الكثير أن تكون معلمة  
 بوب ومؤدبة الأمم بأداب الحياة السياسية الحرة ، وبآداب الديمقراطية الصالحة  
 تحقق أرقى ما يطمح الإنسان في تحقيقه من النبل السياسية العليا ، وهو التوازن  
 بين الصحيح بين فكرتين لم نستطع أن نتفقا ولا أن نتكافأ ولا أن نعيشا  
 في أمة من الأمم التي عرفت الديمقراطية في العصر القديم أو في العصر  
 الحديث ، وهما فكرة الفردية ، وفكرة القومية .

فقد ابتدع اليونان الديمقراطية ابتداءً لأول مرة في تاريخ الإنسان ، ولكنهم  
 لم أقبح المعجز عن أن يلائموا بين هاتين الفكرتين . فذهبت ديمقراطيتهم عبثاً ،  
 مات عليهم شرّاً كثيراً . وانتهت بإعطائهم السياسي إلى الفناء . كانوا فرديين  
 لم يستطيع أحدهم أن ينسب نفسه مهما تكن الظروف ، فكانت فكرة القومية عديمة  
 في الدرجة الثانية أو الثالثة ، ولم يكن زعيمهم السياسي يتخرج من أن يؤثر منفعة  
 خاصة على المنفعة القومية العامة ، ويتوسط بحكم هذه الأثرة في أقيح الآثام . وحاول  
 أن أن يأخذوا عن اليونان نظامهم السياسية وديمقراطيتهم المعتدلة أو المتطرفة ،  
 ولكنهم لم يفلحوا كما لم يفلح أساتذتهم : لأن فكرة الفردية عندهم كانت ضعيفة  
 الضعف ، لا تقدر على مقاومة فكرة القومية وإنما تنفي فيها فناء سريعاً . فإذا  
 ظهر الفرد القوي الممتاز . فهو قد متفوق لا يلبث أن يصبح طاغية أو قيصراً  
 من القياصرة المستبدين .

والصراع قوى عنيف متصل بين الفردية والقومية في الشعوب الأوروبية الحديثة .  
 وهذا الصراع نفسه هو مصدر ما تلقاه الديمقراطية الحديثة من شر بعد الحرب  
 العالمية : فإذا تعقد بصراع آخر بين القومية والاشتراكية الدولية كما نسبها خطأ ،  
 كان شره أعظم وخطره على الديمقراطية أشد .

أما الإنجليز فقد استطاعوا منذ عهد بعيد جداً أن يلائموا أحسن ملائمة وأنهم

وأدقها بين حقوق الفرد وواجباته وحقوق الوطن وواجباته . فالفرد الانجليزى شخصية مستقلة أحسن استقلال وواضحة لا تقنى فى الجماعة ولا تنزل لها عن مقوماتها ولكنها فى الوقت نفسه تعرف حق الجماعة وتؤديه إليها على أكمل وجه وأدقه وأحس . نعماً وأكثر إنتاجاً . ومن أجل هذا منست الديمقراطية الانجليزية فى طريقها إلى أمام هادئة معتدلة مرتقية دائماً . لم تتعرض ولا ينتظر أن تتعرض فى أكبر الظن أن تتعرض لـ الديمقراطية الأخرى من طغيان الفرد أو من طغيان الجماعة . والاشتركة كما فهمها الانجليز وكما فهموها كما صوروها فيما يكتبون ويعلمون لا تُفسد ديمقراطيتهم . ولا تعرضها لخطر من هذه الأخطار التى تتعرض لها الديمقراطية الأوربية .

فهذا المكان الممتاز الذى أصبح للإنجليز فى حياتهم السياسية جعلهم أساتذة للشعوب الأخرى . ومثلاً يحتذى هذه الشعوب حين تطالب بالحريات العامة والخاصة ، وحين تنظم هذه الحريات بعد أن تقنن بها . وكل من أوجد الصلة العقلية بين قومه وبين الشعب الانجليزى فهو نافع لوطنه حقاً ، ناصح له بأصدق النصيح ، معين له على التطور السريع فى سبيل فيه الحريات ونيلها ونظمها . وقد كان فولتير ومنسكو وأمثالها تراجمة للإنجليز عند الشعب الفرنسى فى القرن الثامن عشر . وكان آدمون ديغولان تراجماً للإنجليز عند الشعب الفرنسى فى القرن التاسع عشر حين صور قومه مذاهب الإنجليز فى التربية والتعليم . وكان فتى زغول رحمه الله تراجماً للإنجليز عند قومه ، ولكنه تراجماً بالواسطة حين ترجم لهم فى أوائل القرن كتاب آدمون ديغولان « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » . أما الدكتور حافظ عفيفى فهو تراجمة الإنجليز عند المصريين ترجمه مباشرة دقيقة صادقة ويظهر إلى أبعد حد ممكن . ودور سواء أراد أو لم يرد ، وسواء أراد الانجليز أو لم يريدوا . وسواء أردنا نحن أم لم نرد ، يفتح للشباب المصريين وللشورة طريقاً جديدة مستقيمة منتجة كان ينبغي أن تفتح منذ عهد بعيد . ولو أنها فتحت منذ عهد بعيد لاحتضنت ثورتنا المصرية شيئاً غير

فمن من الاضطراب الذي دفعت اليه والخطأ الذي تورطت فيه .

فنحن قد ثرنا في طلب الديمقراطية على غير علم دقيق صحيح بأصول الديمقراطية .  
يوجد فينا فولتير أو مونتسكيو ليرجما لنا عن أساتذة الديمقراطية كما ترجم هذان  
بلسوفان اقومها قبل الثورة . ولم يوجد لنا حافظ عفيف يدرس الحياة الإنجليزية  
بلاد الانجليز ثم يعود ويصورها لنا تصويراً صحيحاً دقيقاً . وما أشك في أنه لو  
وجد وأصدر كتابه قبل الثورة المصرية لانتقلت هذه الثورة طريقاً أدنى إلى القصد  
مد عن الاعوجاج . ونحن نخطئ . أشد الخطأ وأقبحه وأدعاه إلى خيبة الأمل  
فلننا أن الثورة المصرية قد انتهت أو أنها قد قطعت أكثر أشواطها وأجلها خطراً ،  
إذا كانت الثورة الفرنسية لم تنته بعد . بعد أن مضى عليها قرن ونصف قرن ،  
مد أن اعترضها ما اعترضها من الأحداث الداخلية والخارجية الكبرى ، نطبق بنا  
انعتقد أن ثورتنا المصرية بعيدة كل البعد عن أن تكون قد انتهت . ولعلها لم  
على الابتداء ، واملها لم تنته بعد وما زال في مقدمتها الأولى .

فكتاب الدكتور حافظ عفيف عن الحياة الإنجليزية في بلاد الانجليز قد تأخر  
من الشيء ، ولكنه على كل حال حدث قيم قد جاء في وقته المناسب . وسيحدث  
ناره الطبيعية غداً أو بعد غد ، كما أحدثت الرسائل الإنجليزية التي كتبها فولتير  
فصول التي كتبها مونتسكيو آثارها عند الفرنسيين .

وأهم ما أقدر أن هذا الكتاب سيحدث من الآثار في حياتنا المصرية السياسية  
ثين ينتهيان في حقيقة الأمر إلى شيء واحد . فهو سيزيل أو بعبارة أصح ، سيرفع  
هذه الأستار الكثاف الصفاق التي ألقيت بين الشعب المصري والشعب الانجليزي .  
فمكن المصريين من أن يروا هؤلاء الانجليز كما يعيشون في بلادهم الانجليزية  
لامتكلمين ولا متصنعين ولا متسلحين بهذه الأسلحة التي يتسلح بها الانجليزي متى

عبر البحر إلى القارة وإلى بلد يستعمره أو يريد أن يكون فيه قوياً شديد البأس  
عظيم السلطان . سيمكّن المصريين من أن يروا الإنجليز كما هم ، ومن أن يروا النظر  
الإنجليزية كما هي . ومن أن يعرفوا الصلة بين الإنجليز وبين نظمهم السياسية .  
ومن أن يروا أصدق ديمقراطية عرفها التاريخ وهي تعمل في أرضها الملائمة لها  
وجوها الملائم لها ، وتنتج نتائجها الطبيعية التي جعلت هذا الشعب الإنجليزي أعظم  
الشعوب حفظاً من الحرية في بلاده وأقدرها على ظم البلاد الأخرى الضعيفة  
وإخضاعها لبأسه الذي لا حد له .

وهذه المعرفة ستكّن المصريين من أن يفهموا الإنجليز كما ينبغي أن يفهموا ، وأن  
يقدروا طبايعهم وأمزجتهم وأساليبهم في النظم والحكم على الأشياء ، وأساليبهم كذلك  
في حكم أنفسهم وفي حكم غيرهم . وسيعين هذا كله المصريين على أن يصوغوا  
علاقتهم بالإنجليز في شكل معقول ملائم لما يريدون ولما يستطيع الإنجليز أن يريدوا .  
وهذا كله هو الذي دعاني إلى أن أقول : إن كتاب الدكتور حافظ عفيفي سينتهج  
بالمصريين إلى شيئين يرجعان في حقيقة الأمر إلى شيء واحد . فأما أول هذين  
الشيئين فهو الوصول إلى تحقيق صلات المودة والوفاء بيننا وبين الإنجليز إن أرادنا  
الفرح أو أراد الإنجليز أنفسهم ما لا نريده نحن من الخصومة والخلاف ، حتى  
ينتهي الأمر بينهما وبيننا إلى ما نحب وإلى ما تريد طبيعة الأشياء من الاعتراف  
لمصر باستقلالها الصحيح الذي لا شك فيه ولا غبار . فليس أنفع ولا أجدى من  
تنظيم الخصومة المنتجة بين فردين أو بين شعبين من أن يعرف كلاهما صاحبه معرفة  
صحيحة ويخيه فهماً صادقاً دقيقاً . ومن أجل هذا تحرص الأمم الحمية أشد الحرص  
على أن يعرف بعضها بعضاً ويفهم بعضها بعضاً أدق الفهم وأصدق . وبحقدار ما تصنع  
هذه المعرفة ويصدق هذا الفهم بين الشعوب يتحقق بين الدول الوفاق الخصب كما  
تتحقق بينها الخصومات ذات الخطر . ففهم الإنسان الإنسان شرط أساسي لتحقيق

دافقة، كما أنه شرط أساسي لتحقيق انضمام والنزول في هذا الصراع الذي لا بد بين الأفراد والجماعات .

ومن أجل هذا لم يُعَنِّ الفرنسيون في وقت من الأوقات بفهم الحياة الألمانية كما أنها بعد الحرب التي انهزموا فيها للألمان سنة ١٨٧٠ . ولم يُعَنِّ الألمان بفهم حياة الفرنسية في وقت من الأوقات كما عُتُوا بها بعد الحرب الكبرى التي مَوَّاه فيها للفرنسيين .

فَقَمُّنَا للإنجليز كما ينبغي أن نفهمهم هو وسيلة الوحيدة إلى الاتفاق مع الإنجليز نُذَرُّ لنا هذا الاتفاق ، وإلى مخلصتهم على بصيرة ومقاومتهم عن علم إذا لم يكن من الخاصة والمنظمة .

ومن هنا كان كتاب الدكتور حافظ عفيفي باشا دعاية حسنة جداً للإنجليز عربين خاصة والشرقيين عامة ، وتسلية حسنة جداً لمصريين والشرقيين بإزاء إنجليز . وواضح جداً أنه إن يحقق هذين الغرضين أحدهما أو كليهما إلا إذا توفي أعظم حظ ممكن من الذوق والانتشار ، وقراء أكبر عدد ممكن من القراء . أي أعترف بأن هذا الكتاب الضخم القيم قد كَتَفَ صاحبه جهداً ضخماً فيما لا كثيراً ، وبأنه بعيد كل البعد عن أن يكون غالياً أو مرتفع الثمن ، مع هذا كله مضطراً إلى أن أتمنى أن تنفذ هذه الطبعة الأولى في سرعة ، وأنت يتاح طبع كتاب طبعة شعبية وخيصة تُدْنِيه من هذه الطبقات التي لا تستطيع أن تدفع بعين قرشاً لتشتري كتاباً وإن كان موضوعه الإنجليزي في بلادهم ، وإن كان مؤلفه الدكتور حافظ عفيفي باشا وزير مصر المتوخس السابق في بلاد الإنجليز .

ولست أضرب إلا مثلاً واحداً من كتاب الدكتور حافظ عفيفي ، بل من مقدمة هذا الكتاب ، يصور تصويراً دقيقاً بعض ما ستجفقه قراءة هذا الكتاب من النفع لمصريين حين تُفهمهم على فهم الإنجليز كما هو - ومعاملته كما ينبغي أن يعامل .

وهو هذه النادرة التي يروى الدكتور حافظ عفيفي عن جماعة المالبين الإنجليز حين أعلنت الحرب واضطربت شؤون المال ، واجتمع نفر منهم يتشاورون ومعه مندوب من وزارة المالية ، فجعلوا يعرضون الاقتراحات في أثر الاقتراحات والحلول في أثر الحلول . ومندوب وزارة المالية يرفض أو يبين قصورها . وكان فيهم رجل أجنبي عظيم المكانة مرتفع النقام أدركه اليأس وتامل عليه فبكى . ونظر القوم فإذا سكران مندوب المالية قد أخذ ورقة وأخذ يخطط فيها ورئيسه يقينه ويصاح له من حين إلى حين ، فظنوا أنه يترجح حلاً سريعاً وانظروا صامتين . ثم ألقيت الورقة على المائدة ونظروا فإذا الرجل لا يترجح حلاً . وإنما رسم صورة مدحكة للعضو الذي أدركه الخوف واضطربه إلى البكاء .

فهذا المثال يبين لك أداة الإنجليز ومناصبتهم على نفسه وضبطه لأعضائه عند الشدة المخرجة واستعانتهم بالبرج والدعامة على تفريخ الأزمات الحادة ، وهو في الوقت نفسه يبين لك السر في أن الأمور تتعقد أحياناً بيننا وبين الإنجليز حتى يدفعنا تعقدها ونخرجها إلى الثقة بأن الإنجليز سينتفون إلى أن يتخذوا لأنفسهم قراراً حاسماً سريعاً . ثم ننظر فإذا هم هادئون ماضون في شؤونهم كأن لم يحدث شيء . وهذا المثال يبين لنا كيف نفق الإنجليز على سياسة العهد الفيض ثم انتظروا قبل أن يعلنوا رأيهم في ذلك لا أقول أشهراً بل عاماً بل أكثر من عام . وهذا المثال يبين لك مقدار الفرق بين الإنجليز وبين الأمم الأوروبية الأخرى في مواجهة الحوادث والمشكلات ، ولعلنا أن أداة الإنجليز ليست إهمالاً ولا إغراضاً ولا رصاً ولا اطمئناناً ، وإنما هي انتظار الفرصة وانتظار لما يلائمهم من الظروف .

ولم أعرض في كل ما كتبت إلى الآن إلا هذه المنفعة العلمية الظاهرة التي يحققها هذا الكتاب . والتي يستطيع كل إنسان أن يتبينها ويقدرها . ولكن هنالك منفعة أخرى لا يحسها ولا يقدرها إلا الإخصائيون . ولست منهم ، وهي هذه المنفعة العلمية التي تتحقق حين تقرأ كتاباً من كتب العلم أجاد صاحبه وضعه وتأليفه

من تحقيق ما فيه من المسائل والبحوث . وقد قلت إنى ! أقرأ الكتاب كله ، وقلت إنى لست إحصائياً ، فما ينبغي لى أن أحكم على هذا الكتاب من ناحيته ، ولكنى مع ذلك ألاحظ فى المقدار القليل الذى قرأته أشياء أرجو أن تون أنا الخطئ . فيها . وأن يكون الدكتور حافظ عفيفى باشا هو المنسب . فهو مثلاً بأن طبعة الأشراف الإنجليز شديدة الاتصال بالشعب وبالطبقة الوسطى ، أنت من هذا الاتصال ولا تتجنبه كما يظن الناس . وأنا أريد أن أصدق الدكتور حافظ عفيفى باشا لأنه لا يقل هذا إلا بعد أن نقرأه واستمعاه . ولكن طأ يسيراً جداً من قراءة بعض الآثار الأدبية الإنجليزية المعاصرة فى القصص وفى الممثل حيناً آخر ، وأظن أن هذه الآثار الأدبية التى كتبت وتكتب فى العصر لا تصور لنا طبعة الأشراف من الإنجليز كما يحب الدكتور حافظ عفيفى تصويرها لنا دانية من الشعب متصلة به اتصالاً مائولاً ، وإنما تصورنا لنا دانية متجافية ، تكاد تعتقد أن الله الذى يجرى فى عرونها غير الله الذى يجرى فوق أبناء الشعب . وليس بعيداً ذلك العهد الذى فرغت فيه من قراءة قصة « ثور » للكاتب الإنجليزي المعروف ميردنت ، و « صورة دوريان جري » لكار وايلد . وهاتان القستانان تتركان فى نفس القارئ شعوراً وانحاً قوياً المعنى الذى صورته لا بالمعنى الذى يفتنه به الدكتور حافظ عفيفى باشا .

يبينى أدرى أصدق هذا الأدب الإنجليزي أم أصدق رأى وزيرنا المفوض ، هناك نحواً من أنحاء التوفيق الممكن بين هذين الرأيين .

بملاحظة أخرى قد لا تكون عظيمة الخطر . ولكنها تعرض للقارئ إذا كان من الذين تعودوا البحث العلمى والنظر فى كتب العلماء . فقد أراد الدكتور حافظ عفيفى أن يبين لنا الأسباب الظاهرة التى جعلت من الشعب الإنجليزي شعباً

متفوقاً على غيره من الشعوب ، فذكر التاريخ الإنجليزي ، وذكر الجغرافيا الإنجليزية ، وذكر الوضع الجغرافي لبلاد الإنجليز ، ثم ذكر التربية والتعليم ، ووضح جداً أن التاريخ الإنجليزي وما عرض فيه من الأحداث شيء عام مبهم غامض شديد الغموض مما يرضه الدكتور حافظ عفيفي . فالتاريخ الإنجليزي نفسه في حاجة إلى التعليل ، فلم كان التاريخ الإنجليزي على هذا النحو دون غيره من الأنحاء ؟ وما سلك الشعب الإنجليزي طريقه التاريخية إلى التطور ولم يسلك طريقاً أخرى غير ما والجو الإنجليزي والوضع الجغرافي لبلاد الإنجليز شيء واحد في حقيقة الأمر . بل يمكن أن تتصور لبلاد الإنجليز مع وضعها الجغرافي المعروف جوّاً آخر غير هذا الجو الذي يفرضها . وأكبر الظن أنها لو لم تكن جزراً تنمو في البحر الذي تقوم فيه ، ولوموضعها من كرة الأرض لكان لها جو غير هذا الجو .

والتربية والتعليم في أمورها من غير شك في تفوق الإنجليز ، كما أن الوضع الجغرافي والجوي أمورها . وكما أن الأحداث التاريخية أمورها . ولكن من المحقق أن هذه الأسباب وأمثالها أسباب تقريبية تفسر بعض الشيء ، ولكنها لا تفسر كل شيء . ولعل الدكتور حافظ عفيفي لم يقصد إلى التحقيق العلمي وإنما قصد إلى التفسير والتقريب .

وأخرى ثارت في نفسي وأنا أقرأ مقدمة الدكتور حافظ عفيفي : فهو يثبتنا أن الإنجليز لا يحرصون على أن يلدّم غيرهم ، ولا يشكفون جهداً ، ولا ينفقون مالاً لفتحهم في أقطار الأرض ، ولولا الولايات المتحدة الأمريكية لما ظفرت اللغة الإنجليزية بما ظفرت به من الانتشار . وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكن الذي أشك فيه هو تعليل هذه الظاهرة . ولما يبذل الإنجليز جهداً أو ينفقون مالاً في نشر لغتهم والشمس لا تقيب عن أملاكهم . ولم يالحظ من القوة والبأس ! ! فلغتهم تفرغ نفسها فرضاً دون أن يتكلفوا الجهد أو ينفقوا المال لنشر لغتهم وثقافتهم في بلدكم



يجدون من الحكومات المصرية المختلفة أصدق عون على نشر هذه اللغة دون  
 تنفقوا مالا أو يتكفوا جيداً ، بل هم يقيدون من نشر لغتهم على هذا النحو  
 مادة هؤلاء المعلمين الكثيرين الذين ينشئون في المدارس ، ويقيدون فائدة  
 وية حين يحتكرون العقل المصري لغتهم احتكراً ، ويصبحون الواسطة الوحيدة  
 وبين الحضارة الحديثة والأدب الحديث ، وإلا فـ باهم يغضبون أظهر الغضب  
 نسيقون أشد الضيق حين يظهر الميل هنا أو هناك إلى العناية بلغة أوروبية أخرى ؟  
 أظن أن الدكتور حافظ عفيفي يقول في هذا الموضع أو يخطئ عن حسن قصد ،  
 ما يمكن من شيء ، فإن هذه الملاحظات لا تنقص من قدر الكتاب مهما تكرر  
 قليلة ، وقد يجد الإخصائيون في أثناء الكتاب ما يناقشون فيه المؤلف قليلاً أو  
 يرا ، ولكن الكتاب سيبقى قيم دائماً ، وسبقى للدكتور حافظ عفيفي باشا أنه الوزير  
 بش المصري الأول الذي استمع بإيمانه ونفع به من الناحية العلمية الأدبية كما  
 السفراء الممتازون للبلاد الأوروبية الزائرة ، وسبقى له أنه قد ضرب المثال  
 لنا المفوضين الآخرين ، فقد أن كل واحد منهم غنى بدرس البلد الذي يقيم فيه  
 يديه إلى المصريين لانتفع المترددون هنا بأن لتمثيل السياسي المصري قيمة  
 حقة حقاً ، ولغير هؤلاء المترددون ، وأنا منهم ، رأيهم في أن هذا التمثيل السياسي  
 يكافئ من المال أكثر مما ينبغي ، وما رأيك فيما تفعله مصر لم تظفرت عن كل  
 ما فيه مفوضية سياسية بكتاب قيم مجمع ككتاب الدكتور حافظ عفيفي باشا ؟

## زنوبيا

للأستاذ فريد أبو حديد رأى في القصة صورته في بعض كتبه إلى : فهو لا يسمي الأثر الأدبي قصة إلا إذا اجتمعت له شروط أربعة : الأول أن تشمل على حوادث تقصّ وتُحكى . الثاني أن تشمل على وصف للأشياء والأحياء . الثالث أن تشمل على أشخاص يصورهم المؤلف تصويراً دقيقاً واضحاً . الرابع أن تشمل على حوار يشيع في القصة بين هؤلاء الأشخاص . فإذا فقدت القصة شروطاً من هذه الشروط لم تستحق عند الأستاذ فريد أبو حديد أن تسمى بهذا الاسم ، ويجب أن يلتصق لها اسم آخر ، وأن تلتحق بفن آخر من فنون الأدب .

وما أريد أن أجادل الأستاذ في هذه الشروط ، وما أريد أن أناقشه في القواعد التي يضعها النقاد لهذا الفن أو ذلك من الفنون الأدبية ، وإنما أكتفي بأن أقول إنني من أنصار الحرية في الأدب ، هذه الحرية التي لا تؤمن بالقواعد الموضوعية والحدود المرسومة والقيود التي فرضها أرسطاطاليس ، فيشرعوا للأدب في العصور الحديثة كما شرع أرسطاطاليس للأدب في العصر القديم . إنما الأثر الأدبي عندي هو هذا الذي ينتجه الكاتب أو الشاعر كما استطاع أن ينتجه ، لا أعرف له قواعد ولا حدوداً إلا هذه القواعد والحدود التي يفرضها على الأديب مزاجه الخاص وفنه الخاص وهذه الظروف التي تحيط بمزاجه وفنه ، فتصور أثره الأدبي في الصورة التي يخرجها فيها للناس . فهو قد يُخرج هذا الأثر الأدبي قصة تستوفي الشروط التي يريدها الأستاذ ، وقد يُخرجه شيئاً آخر لا يستوفي هذه

شروط كلها أو بعضها . وحسبنا منه أن ينتج ما نقرؤه ، فنجد في قراءته هذه  
 ذمة الفنية العليا التي يتركها الأثر الأدبي المتبع في النفوس . وأخشى أن يكون  
 الأستاذ فريد أبو حديد شديد التأثر بالقرن التاسع عشر وأدبائه ونقادهم ، قليل  
 الاحتفال بما طرأ على الأدب والنقد من تطور منذ أواخر القرن الماضي ، وفي هذا  
 رن ، وبعد الحرب الماضية بنوع خاص . والشئ المهم هو أن الأستاذ يفرض  
 القصة هذه الشروط . ومعنى هذا أنه يفرض على نفسه هذه الشروط حين  
 يلج هذا الفن الأدبي .

والأستاذ فريد أبو حديد رجل دقيق جداً ، صارم في دقته ، لا يحب الانحراف  
 الطريق التي يرسمها لنفسه إلى يمين أو شمال . وهو لا يظلم الناس حين يطلب  
 منهم أن يسيروا في الطريق التي يفرضها على نفسه ، وحين يكره منهم أو يكره  
 أن ينحرفوا عن هذه الطريق إلى يمين أو إلى شمال ؛ فما ظنك من سؤالك  
 عنه . ولكن الناس يظلمون أنفسهم ، فينحرفون عن القوانين الأدبية ، ميامين  
 ومياميرين مرة أخرى ، ومضطربين بين اليمين والشمال مرة ثالثة ؛ لأنهم  
 يحسنون الفن أحياناً . ولأنهم لا يحسنون الخضوع للقوانين الفنية بمقدار  
 يحسنون الثورة عليها والتحرر منها أحياناً أخرى . أما الأستاذ فريد أبو حديد  
 فوضع قصصاً نشرت وقراها الناس ، وأخذ نفسه في هذه القصص بشروطه  
 الأربعة ، تخضع لها خضوعاً حقاً ، وهو في ذلك يذكّرنا بقانون الوحدات  
 ثلاث الذي فرض على القصة التمثيلية في وقت ما ، والذي لم يخضع له « كورني »  
 قصته « السيد » ، فأتار على نفسه الأدباء والنقد دنوة لا يزال التاريخ الأدبي  
 دد أصداءها إلى الآن .

وقد قرأت أخيراً القصة التي نشرها الأستاذ فريد أبو حديد والتي عرض علينا  
 فيها حياة زنوبيا ملكة تدمر ، وما ألم بها من الأحداث . وأعترف بأنني حاولت

أن أتأثر بالقانون الصارم الذى فرضه الأستاذ على نفسه ، وأحكم على القصة من حيث إنها تستوفى هذه الشروط ، ومن حيث إنها تستوفى على وجه ممتاز أو على وجه متوسط ، فلم أستطع أن أمضى فى هذا النحو من القراءة المقيدة ، ولم أستطع أن أكون راضى على هذا النحو الذى أقام ما يوصف به أنه ضيق شديد الضيق ، وأنه أصيب جداً من القصة التى كتبها الأستاذ فريد أبو حديد ، وأن التقيد به يوشك أن ينقص علينا ما تقدمت القصة إلينا من صور الجمال الفنى الممتاز ، وما رأيت فى أن تجلس إلى مكتبك وتضع أمامك هذه الشروط الأربعة ، وتأخذ بعد ذلك فى قراءة القصة . وتنتظر أوضع الأستاذ فيها من القصص والوصف ومن الأشخاص والحوار مقادير معتدلة يلزم بعضها بعضاً . أم قصر فى هذا اللون وأسرف فى ذلك اللون .

أنت ترى أنك إن صنعت هذا الصنيع إنما تقرأ القصة بعقلك لا بقلبك ولا بدؤك . تقرأها كما يقرأ كتب فى النحو أو فى المنطق أو فى الحساب وما هكذا أحب أن أقرأ الأدب ، إنما أقرأ الأدب بقلبي وذوقي وبما أتيح لى من طبع يحب الجمال ويطمح إلى مثله العليا . والكاتب الجيد عندى هو الذى لا أكاد أعجبه لحظات حتى ينسبى نفسى ، ويشغلى عن التفكير ، ويصرفنى عن التعليل والتحليل والتأويل ، وبسيطرة على سيطرة تامة تمكنه من أن يقول لى ما يشاء دون أن أجده من نفسى القوة على أن أعارضه أو أقاومه أو أنكر عليه شيئاً ، يقول . حتى إذا فرغت من قراءة أثره الأدبى واضطرت بحكم هذا الفراغ إلى أن أفارق الكاتب وأشغل عنه وعن أثره وقتاً ما ، استطعت بعد ذلك أن أعود إلى الأثر الذى بقى فى نفسى بعد القراءة ، فأفكر فيه وأخضعه للنقد أو التحليل والتعليل . وأشهد لقد بدأت فى قراءة هذه القصة ، وما كدت أمضى فى قراءتها حتى بلغ الأستاذ فريد أبو حديد معنى هذه المنزلة ، فأناشئ نفسى ، وصرفنى عن التفكير

لنقد ، واضطرتني إلى أن أمضي معه وأسمع له وأقبل منه في غير ممانعة أو مقاومة .  
 ذا أقول ! بل إن الأستاذ فريد أبو حديد لم يُنسى نفسي حسب . وإنما أناني  
 نأ ليس من السهل أن يُنسى عادة . ومن يدري ! لعل قصته كانت دواء لي من  
 هذه العلة الطارئة التي لا تسكاد تلم بالمرضى حتى تنقل عليه وتضايقه أياماً . وقد  
 تبي هذه العلة ، وكنت أنتظر أن تنقل عليّ وأن تضايقني كما تنقل على الناس  
 ضايقتهم ؛ ولكنني شُغِلت عنها بهذه القصة يوماً وبعض يوم ، وما فرغت منها  
 حظت أن العلة لم تنقل عليّ ، وأن الحرارة لم تسرف في الارتفاع ، وأن الطبيب لم  
 يتد في التفتيش . أليس من الجائز بل من الواجب أن قصة الأستاذ فريد أبو حديد  
 رفعتني عن هذا الطور من أطوار الحياة العادية إلى طور آخر ممتاز أشاع في  
 سبي قوة ونشاطاً ، ومكنني من أن أقاوم العلة بدل أن أفنم القصة ، وجعل  
 نأومتني لهذه العلة شيئاً لا شعورياً ، وهو في غال أحسن أنواع المقاومة ؛ مهما  
 كان من شيء . فقد شغلتني قصة الأستاذ فريد أبو حديد عن نفسي وعن علتي ،  
 شغلتني بالطبع عن شروطه هذه الأربعة ، فلم أفكر في قصص ، ولا في وصف ،  
 ولا في أشخاص ، ولا في حوار ، وإنما رأيت نفساً عذبة تتحدث إلى حديثاً عذبة ،  
 أغرقت في الاستماع لهذا الحديث ، وأغرقت في الاستمتاع بعذوبة هذه النفس ،  
 وجدت في هذا الإغراق هذه اللذة المتارة التي أجدها حين أقرأ الآثار  
 لأدبية الرفيعة .

وأعود الآن وقد مضى وقت غير قصير على قراءتي لهذه القصة ، أعود إلى هذه  
 لذة المتارة لأحلامها وألحس مصادرها ، فأعترف مرة أخرى بأنني لا أستطيع أن  
 ردّ هذه اللذة إلى شرط من هذه الشروط الأربعة ، أو إلى عنصر من هذه العناصر  
 الأربعة ، إن صح هذا التعبير ؛ وإنما أردّها إلى أشياء ثلاثة هي في اعتقد مصدر  
 نأ في هذه القصة من جمال .

الأول أن في القصة روحاً من البطولة يشيع فيها منذ الصفحات الأولى ، ثم يزداد اتساعاً وانتشاراً حتى يملأ عليك الجو كله ، وإذا أنت تعيش في بيئة ممتازة أهلها من الناس الذين تعيش معهم ومن الناس الذين تألفهم حين تفكر في الناس وأنت تجد في عشرة هؤلاء المتنازين امتيازاً لنفسك ، وراحة من حياتك اليومية ورضاً بالقرب من مثل العليا ساعات من ليل أو ساعات من نهار . فكل الذين يحبون في هذه القصة إلا أقلهم متذرون في سيرتهم ، متذرون في تفكيرهم ، متذرون في تقديرهم للأشياء وحكمهم عليها . والحياة معهم نصف نفسك الطامحة من هذه الحياة اليومية السخيفة التي نحياها متكررين في صفائر الأشياء . عاكفين عليها غارقين فيها إلى الأذهان أو إلى الآذان .

الشيء الثاني أن هؤلاء الأبطال المتنازين لا يتنازون بعنف ولا يرتفعون إلى رجواء بعيدة جداً تحصرهمنا وميلاننا عن الارتفاع إليها ، ولكنهم يعيشون في رجواء ترتفع ارتقاءً هادئاً ، ويتنازون امتيازاً رقيقاً يخيل إلينا لقربه وسهولته أنه نستطيع أن نشاركهم فيه . فبشعرنا ذلك بأن لنا حظاً من قدرة على الامتياز ، وبكبرنا ذلك في أنفسنا . وعواطف هؤلاء الأبطال المعتدلين أعرض علينا عرضاً هيناً وانحماً بريئاً من الغلو ، فترى فيها كثيراً من عواطفنا . وكثيراً من أهوائنا وكثيراً من تمنائنا ، وكثيراً من هذه العواطف التي نظن أننا نستطيع أن نصل إليها إن أتيجت لنا الفرص . ولكن الفرص لا تتاح لأن الحياة اليومية تحول بيننا وبينها . وكذلك نرى في هذه القصة مرآة لذات نفوسنا ، وليس قليلاً أن ترى نفسك في مرآة تصور الأبطال المتنازين .

والشيء الثالث هو هذه العذوبة التي تتنازل بها نفس الأستاذ فريد أبو حديد ، والتي حدثت عنها آنفاً ، والتي تنبض على ما حولها فتشيع في القصة وتحبب إليك أنماطها على ما قد يكون في بعضها من ضعف ، وتحبب إليك معانيها على ما قد

ون في بعضها من سذاجة . وتعجب إليك صورها على ما قد يكون في بعض  
 منها من شحوب : وفي هذه العذوبة كما قلت آنفاً شيء من الصرامة والحزم  
 يدها إلى نفسك حباً ويزينها في قبيل . وقد يشير على نفسك وفي وجهك شيئاً  
 الابتسام . يصور حبك للكاتب وإشفاقك عليه من نفسه هذه التي تفرض  
 به ألواناً من الشدة في التكبير والتصوير ، لعله يستطيع أن يخفف من بعضها .  
 هذه هي الخصلة الأولى التي أودع إليها ما وجدت من لذة حين قرأت هذه  
 سمة الزائفة .

ولست أخفى على الأستاذ فريد أبو حديد أنني لم أحفل مطلقاً بأن تكون  
 بيا هي الزياء أو لا تكون ؟ ولم أحفل مطلقاً بأن تكون زنوبيا من نسل  
 بوباتره أو لا تكون . ولم أكدر أحفل بما تكون أو لا تكون من الدقة التاريخية  
 في تصوير الأشخاص ورواية الحوادث : فكل هذا من عمل العقل ، وما أكثر  
 كتب التي تعمل عقولك في قراءتها ! وما الذي يعنيني من أن يقيد الأستاذ فريد  
 حديد نفسه بهذا القيد أو ذلك من قيود البحث . وأن تنفق مع هذا الزأى أو  
 من آراء المؤرخين ، وإنما لا أقرأ قصته لأتعلم منها البحث أو لأتلمس فيها  
 تاريخ ، وإنما أفرغ إلى قصته من البحث والتاريخ ! وما الذي يعنيني أن يقيد  
 الأستاذ فريد أبو حديد نفسه بما شامت له صرامته الخفية والفنية من القيود مادامت  
 أستطيع أن أقرأ قصته حراً ، وأن أجدي في حريتي هذه من اللذة أكثر مما  
 يد المؤلف من اللذة في القيود التي فرضها على نفسه !

هناك خصلة أخرى جيت إلى القصه ، وأظن أن الذين يشاركونني في إكبار  
 هذه الخصلة ليسوا كثيرين ، ولكن منهم الأستاذ فريد أبو حديد على الأقل .  
 ومن أن القصه مزاج رائع حقاً من الحياة العربية الخالصة ، ومن الحياة اليونانية  
 والرومانية الخالصة أيضاً . ثم هي تصوير رائع لهذا المثل الأعلى الذي أطمح إليه

دائماً من التقاء الثقافة الشرقية والثقافة الغربية ، وتكوين هؤلاء الناس الذين يستطيعون أن يقرؤوا أفلاطون وهوميروس وسبكترون وفرجيل وأمرأ القيس والجاحظ ، دون أن يجدوا في أنفسهم تناقضاً أو تباعداً أو اضطراباً أو نبواً . هذه الخصلة نادرة في المكتب من القصص ، بل فيها نتيجة من الأدب ؛ وقد وفق فيها الأستاذ فريد أبو حديد توفيقاً عذراً حقاً ، مع أنه لم يتعمق دراسة الأدب اليوناني واللاتيني كما تعمق دراسة الأدب العربي ، فكيف به لو فعل ؟

وبعد فهل ياذن لي الأستاذ في أن أعبت عبثاً حقيقةً ببعض أشخاص قصته ؟ فقد خيل إلي أن زئوبيا تسرف جداً في التهنيد وتنفيس كثيراً وتعمق أنفاساً أكثر مما ينبغي . وقد هممت بأن أحصى تهديدات الملكة فوجدتها أكثر مما تطيق القصة . ويظهر أن الملكة كانت أمدى غيرها بتهدياتها وأنفاسها العميقة ؛ فقد كان أستاذها يتهمد كما كانت لامبس تهمد أيضاً ، وحتى أذنة العطل لم يبرا من تنفسها عميقة . ويخيل إلي أيضاً أن الملكة لم تكن تملك مكتبة غنية ، وإنما كانت كتباً لا تكاد تتجاوز أفلاطون وهوميروس ، بل لم يسم لنا كتاب من كتب أفلاطون فيها أذكر . فأما هوميروس فلم يكن عند الملكة منه إلا البياضة ، ومع ذلك فهي أودسة ما كان يستطيع أن يلائم ذوق الملكة ويسلّيها عن كثير من الخطوب والمكتبة اليونانية أغنى جداً من هذا . وكانت الملكة تستطيع أن تقرأ للشعراء الفنائين والممثلين والفلاسفة الأفلاطونيين والمنسائين والروائيين . ثم يخيل إلي أن الملكة لم تكن تحسن اللاتينية ؛ فهي لا تقرأ كتاباً لاتينياً مع أن أستاذها روماني . ولست أدري أكان من الممكن أن تؤخذ الكتب وتقرأ وتطوى ويلقى بها عن نحو ما فعل بكتبنا الآن . فقد يخيل إلي أن شكل الكتب في ذلك الوقت لم يكن يسمح بشيء من هذا ، وإنما كانت أضخم وأثقل من أن يُتصرّف فيها كما نتصرّف



المجذبات التي تتناولها أيدينا الآن في كثير من الخفة والرشاقة، لأنها بحكم  
نسكها وبحكم الورق والطبع خفيفة رشيقة.

وأخيراً نخيل إلى أن زنوبيا معاصرة لك في ذوقها وميولها وأهوائها، بل في  
نيتها وضعفها أيضاً. وإذا ما يكن بدٌّ من أن أمضى قليلاً في هذا البحث فإني  
أحس أن يكون هناك تشابه بين زنوبيا ملكة تدمر وكريستين ملكة السويد التي  
حدث عنها القصص وتمرضها أفلام السينما. وقد أعجبتني شخصية الأستاذ وهذا  
الحبيب الذي ملأ حياته، وهذه العواطف التي كانت تعطف عليها الملكة، وذكرني  
قصة ما أظن أن الأستاذ فريد أبو حديد قد قرأها أو ظهر عليها؛ فالأمر لا يبدو أن  
يكون توارداً للخواطر، مصدره أن الأستاذ فريد يفكر كما يفكر العصر الذي يعيش  
فيه. وهذه القصة هي قصة «الملك في المنفى» للكاتب الفرنسي ألفونس دوديه،  
فيها ملكة يحبها مربي ابنها كما يحب لوئجين زنوبيا، وتعطف هي على المربي كما  
تعطف زنوبيا على لوئجين عطفاً يوشك أن يكون حباً.

وبعد فإني أشكر أجيال الشكر للأستاذ فريد أبو حديد هذه الساعات الحلوة التي  
استقتها معه ومع أبطاله. ولو أن لي من الأمر شيئاً لأتمت هذه الساعات لشبابنا في  
المناس. فإني شيء أنفع لعلول الشباب وقلوبهم وأخلاقهم من قصة كهذه  
قصّة الرائعة !!

## النقد والطربوش وزجاج النافذة

وتستطيع أن تصيف إلى هذه العنوانات عنوانات أخرى : فهناك أزقة ضيقة شديدة الضيق ، ملتوية شديدة الالتواء ، قد كثر على أرضها الوحل ، حتى إن الذي يمشى فيها يترقق ، أو يمشى مشية مسلم بن الوليد في بيته المشهور :  
إذا ما علت منا ذؤابة شارب      تمشت به مشى المقيد في الوحل

وقد أمطرت سماؤها أو نوافذ ما يغمو فيها من الدور ألواناً من المطر ، منها الباسا ومنها اليايس . نستغفر الله ! بل قد صبت سماؤها أو نوافذ ما يقوم فيها من الدور ألواناً من البلاء ، منها مرق القول الناس ، وماء الحلال ، وفيها أشياء أخرى جامدة كانت تهوى على البروس ، وربما ممت العيون ، وربما دخلت الأقواء ووصلت إلى الخلق فأنصرفت فيها انحصاراً ، وأذكت فيها ضياءً وناراً . وقد كان في هذه الأزقة مارد من مرادة الجن أو مرادة الإنس . نه صدر عريض قد انتفش فيه شعر طويل حاد كأنه الأسنة ، يضطدم به الرجل القصير فإذا هذا الشعر الطويل الحد يداعبه ويلاعبه ، فيعشت وجهه ، ويدخل في أنفه وفي فمه وفي عينيه . وقد كان في هذه الأزقة غلام شرير ، لسانه عذب ، ويده مرّة . وقد كان في هذه الأزقة شاب ظاهر العباوة والبله ، خفي المكر والفدر ، شديد البأس والبطش ، يخيف من إيس من شأنه أن يخاف ، ويضطر أثبت الناس قلباً وأشدهم استهزاء بالحياة إلى أن يعدو عدو « الشنقرى » و « تباطشرا » و « ابن براق » ، حتى يدفع إلى دار من الدور ، ثم إن بيت من بيوت هذه الدار ، فلا يدخل هذا البيت من بابه كما أمر الله أن تؤتى البيوت :

نسا يدخله من إحدى نوافذه . وفي هذه الأزقة شيخ وقور . ظاهره يخيف ،  
ظنه فيه الرحمة والملين ، وفيه الرق والدعة ، وفيه الأدب وحسن الذوق .

كل هذه الأشياء . وكل هؤلاء الأشخاص . يمكن أن تضاف ويمكن أن  
تفوا إلى هذه العنوانات التي قدمتها بين يدي هذا الكلام ، ولكني لم أضفها  
جاء من الإطالة وإشفاقا من الإخطاب ، وإشارة إلى الجواز البليغ .

وأنا أستطيع بعد أن وضعت هذا العنوان وأتبعته بهذا الكلام ، أن أتحوّل بك  
ما شئت أو ما شئت أنا من الموضوعات . فتحدث إليك فيه حديثاً طويلاً  
قصيراً . وأعرض عليك فيه صوراً جميلة أو دمية ، وأثير في نفسك به عواطف  
نية أو جاحجة ، وأرسم على وجهك به ابتسامة ومضحكة . أو عبوساً ونظيماً ، حتى  
بلغت من هذا كله ما تريد أنت ، أو ما أريد أنا ، أو ما تريد جميعاً ، ذكرت  
يد والطر بوش وزجاج النافذة . واعتقدت أنا أو خيلت إليك أني أعتقد ،  
اعتقدت أنت أو خيلت إلي أنك اعتقدت . واعتقد صديقي الأستاذ المازني أو  
أنا إلى نفسي وإلينا أنه يعتقد ، أني قد أمنت الرسالة وقراء الرسالة بفصل قيم أو  
قيم ، قوامه الحديث عن النقد والطر بوش وزجاج النافذة .

وتسألني : ما بال الأستاذ المازني يهتم هذا اهتماماً ؟ وما خطبه مع النقد والطر بوش  
وجاج النافذة ومرق القول النابت . وما الخلل ، وما يقع هذا كله من الأشياء  
والحياء ؟ فاجيبك بأن هذا السؤال لا ينبغي أن يساق إليّ ، وإنما ينبغي أن  
يساق إلى الأستاذ المازني : فهو الذي تحدث عن هذا كله . وهو الذي أثارني إلى  
أن أحدث عن هذا كله . وليس من شئ في أن الأستاذ المازني يقول في دعابته  
الطريفة : وما أنت وجر الشك ، وماك تدخل بيني وبين النقد والطر بوش  
وجاج النافذة ، وما يتصل بها من المنقحات ؟ . ولكن الأستاذ يوافقني — أولاً يوافقني

فيذا ساء — على أنه صاحب فن . وعلى أن أصحاب الفن إن كتبوا لأنفسهم فهم ينشرون للناس ، وعلى أن صاحب الفن لا يتلك أثره الفني بعد أن يلقيه إلى الناس ، وعلى أن من حق الناس إذا ألقى إليهم شيء أن يتناولوه كما يحبون . يُعجبون به أو يستخطون عليه ، يرغبون فيه أو ينصرفون عنه . يحمّدونه أو يسأطون عليه اليوم . وإذا فقد ألقى إلينا الأستاذ المازني قصده المتع البديع الذي آثارني إلى أن أتحدث إليك عن النقد والطربوش وزجاج النافذة ، أو إلى أن أتحدث إليك عن الأستاذ المازني عنه من وراء هذه الأشياء التي لا تحصى ، والتي لا أكره تكرارها ، وما أضلت تكره تكرارها . وهي النقد والطربوش وزجاج النافذة ، والأزقة وما يترأى على أرضها من الوحل ، وما تعبه مماؤها من السائل والجامد ، ومن يشئ بين ذلك من الأشرار والأخيار . وللاستاذ المازني مع هذه الأشياء كلها ، ومع هؤلاء الناس كلهم ، ومعك أنت ، ومعى أنا ، قصة طريقة طريقة . حقيقة أن نقص ، وحليقة أن تتغير الإعجاب .

فهل تدري ماذا دفع الأستاذ المازني إلى أن يتحدث عن هذه الأشياء ، وعن هؤلاء الأشخاص ، فيشيرني إلى أن أتحدث عنه . وعنهما ، وعنهم ؟ هو شيء يسير . يسير جداً ، هو أنه أديب يقرأ في الكتب ، ويكتب في الصحف ، وينقد الكتاب والمؤلفين . وقد تغير الأزمنة وتبدل ظروف الحياة وترقى الأجيال بعد المحطاط . ولكن هناك شيئاً لا يتغير ولا يتبدل في حقيقة الأمر ، وهو أن الأدب محنة يتحن بها الأدباء ، ونقمة يعسب الله بها هؤلاء الذين يمنحهم شيئاً من حسن الذوق والقدرة على فهم الأدب وتربيته إلى الناس . وقد امتحن الله صديقنا المازني ووفّر له من نقمة الأدب وبلائه حظاً عظيماً ، فجعله شاعراً مجيداً ، وكاتباً بارعاً ، وناقداً مسموع الكلمة ، مهيب الجانب . مقدور الرأي ، لا يصدر كتاب إلا أراد الناس أن يعرفوا رأيه فيه وحكمه عليه . وكان صاحب الكتاب نفسه أحرص الناس على

ذلك وأشدّهم طلباً له وإلحاحاً فيه . والكتب تنظر على الأستاذ المازنى ، وينظر معها طلب النقد وطلب التقريظ . والنقد والتقريظ يحتاجان إلى القراءة والدرس . وإذا المازنى المسكين معزوف عن نفسه وعن فنه وعن كتبه ، إلى هؤلاء الناس الذين يكتبون ، وإلى هؤلاء الذين يقرءون . ومن هنا ومن جهات أخرى أيضاً كان المازنى شقيّاً بالأدب ، وإن كان الأدب سعيداً بالمازنى . وأى دليل على شقاء المازنى بالأدب وسعادة الأدب بالمازنى . أقمى من هذه القصة التى أحدثك عنها الآن ! فقد أخرج كاتب من الكتاب كتاباً من الكتب . وأهداه إلى الأستاذ بالطبع . عرف الناس أن هذا الكتاب قد أهدى إليه فأخذ الناس ينتظرون ، وأخذ صاحب الكتاب بنوع خاص ينتظر . فلما طال الانتظار كان الطلب . ولما كان الطلب ولم يجد شيئاً كان الإلحاح . واضطر المازنى إلى أن يذعن . وأكره المازنى إلى أن يكتب ، ولكنه كان قد أرسل الكتاب إلى من يجلّه . فلما اشتد عليه الإلحاح ذهب فى طلب الكتاب من المجلد ، فدفع إلى رحلة غريبة ، وإلى استكشاف أغرب : دفع من هذه الأحياء المتحضرة التى تسمع فيها الشوارع ، تجري فيها السيارات ، وتنتشر فيها الشرطة ، والتي لا تنطفى أرواسها بالوحل ، لا تحطر سماؤها مرقاً ولا مخللاً . إلى أرقّة ضيقة ملتوية فاسدة الهواء ، تعيش فيها جبال من المردة والسياطين ، وفى هذه الأرقّة عرف المازنى الخوف والفرق ، عرف الحرب والتعوفيه ، وعرف كيف يكون وقع الأحجار على الأجسام . وكيف يكون وقع الشتائم فى النفوس . ثم عرف كيف يفقد الناس طرايسهم ، وكيف ينظرون إليها وهم تهبان وتمرغن فى الوحل تمرغاً ثم عرف كيف يدفع الماربولون لى اقتحام الدور والاستخذاء فى البيوت وقد غاب عنها أهلها . ثم عرف قصة رجل الذى ذهب يطلب كتاباً فنقد طربوشه وعدد صفر اليمين .

والغريب أن هذه الرحلة المفاتنة وما امتلأت به من الأخطار كانت كلها فى

القاهرة ، وفي ساعات قصيرة . ولست أدري قيم يحتاج الذين يحبون الأخطار إلى التماسها في الصحراء أو في الجبال أو على البحر والمحيط ، مادام الانتقال من حى من أحياء القاهرة إلى حى آخر ، خليقة أن يريت من الهول والخطر مثل ما رأى صديقنا الكاتب الأديب .

ومن هنا نستطيع أن نفهم ضيق المازنى بالأدب والأدباء . وبالكاتب والمؤلفين ، وتصرعه المتصل إلى الله أن يعفيه من هذه الصناعة التى يشقى بها ، ولكنها تسعد به وتأسد الناس أيضاً . ولكن الأستاذ المازنى يسأل فى شىء من الحيرة : أيجب أن يقرأ ما يريد هو أم يجب أن يقرأ ما يريد الناس ؟ وإذا سمح لى أن أجيبه فأنى أرى أنه ملزم بأن يقرأ ما يريد ، ويأتى يقرأ ما يريد الناس ، مادام قد أقبل على صناعته هذه راضياً بها أو مكراً عليها . ولكن السؤال الذى أحب أن أسأله هو : هل يظن الأستاذ المازنى أنه أبرأ ذمته أمام القراء وأمام المؤلف بهذا الفصل البديع الذى كتبه منذ أيام ، حدثنا فيه عن النقد والطرش وزجاج النافذة ، وعما تحمل الأرض من وحل ، وما تطرر السماء من مرق ؟ فإن كان يظن أنه قد أَرْضَى قراءه وصاحبه بهذا الفصل فقد أصاب وأخطأ فى وقت واحد : أصاب لأن الفصل بديع ، وأخطأ لأنه لا يقضى من النقد شيئاً ، فلن يعفيه صاحب الكتاب من الإلحاح عليه ، ولن بدعه حتى يقول إنه قد قرأ هذا الكتاب فرضى عنه أو سخط عليه .

وسؤال آخر أحب ألا يغضب صديقى المازنى حين أسوقه إليه : ما به يطفى على نفسه ويسرف عليها فى الضيقان . ويصورها هذا التصوير الذى لا يلائمها بحال من الأحوال ، والتى لا تحبه لها ؟ فهل من الحق أنه هيب إلى هذا الحد ؟ كلا ! ولكنه يحب أن يعبث بنفسه فيسرف فى العبث . وأكبر الظن أننا إن حدثناه فى ذلك ضاق بنا وضجر ، وشكا من هؤلاء الظيليين الذين يدخلون بين

الناس وبين أنفسهم ، وقال إذا لم يكن لي الحق في أن أعبت بنفسى فلن يكون  
 لي في أن يعبت بها إذا ؟ أما أنا فأجيب الأستاذ بأن هذا الحق ليس  
 حراً لأحد ، ولكن الناس يستبيحونه لأنفسهم ، سواء أَرْضَى الأستاذ أم لم  
 يَرْضَ . وأنا أتعدده ، وأطلب إليه أن يرغبى كيف يستطيع أن يمنع الناس من أن  
 يُولوه بما يحبون من ألوان النقد والعبث لا بما يحب هو ، كيف يستطيع أن يمنع  
 الناس من ذلك دون أن يخرج عن طور الكاتب الأديب ؟ وإذا ما لم يظلم  
 به هذا الظلم ، ويلج عليها بهذا العبث الذى لا قصد فيه ؟ أم هل ضاقت الدنيا  
 بأستاذ كما ضاقت بالحطينة ذات يوم في قتل فوجها نفسه ، لأنه لم يجد من يهجو  
 له . أم هل كره الأستاذ الأخذ بالرد ، وضاق بالخوار والجدال ، وكره أن يذكر الناس  
 فيهم بذكره . فأكثر أن يذكر نفسه هذه المكينة التى لا تجد من يدافع عنها  
 . نعمها من صاحبها الطاغية ؟ فإن كان هذه فقد أخطأ المازنى ، فهناذا أدافع عن  
 المازنى رغم المازنى ، أحشى ألا يكون شئ من هذا كله أملاً ولا فرع كما يقولون ،  
 وإنما يكون المازنى قد أراد نقد الكتاب الذى طُلب إليه نقده ، فمضى به الخيال  
 . ومن ثم به الدعاية إلى هذه الأثرة الضيقة المنوطة ، يبحث فيها عن الكتاب ،  
 ولا يعد إلا أن وقد طربوشه وأضاع على صاحبه الشيخ رجاء نافذته ، ولم يجد  
 نفسه ولا أحد يقه المؤلف شيئاً . وويل للكتاب والمؤلفين من دعاية المازنى  
 . وويل له ! وويل للكتاب والمؤلفين من أعار المازنى ومروءه ! بل وويل للمازنى نفسه  
 من طغيان خياله وجوحه ، فإن في هذا الجسم التحيل الضئيل ، جسم هذا الرجل  
 الذى يوديع مارداً لا كلمرة وشبصاً لا كاشيطين .

أما بعد . فلندكر النقد والطربوش وزجاج النافذة ، وما يتصل بها من  
 الأبياء والأشخاص ، انختم المقال كما بدأناه ، وليلعل المازنى أننا نتحدث عنه ،  
 ولم نشر إليه ، ولم نذكر فيه ، وإنما نتحدثنا عن كتاب نقد ، وطربوش نقد ،  
 وزجاج حطامه فتى من القتيال تحطياً .

## حريم

للمبرة فرت الفارب الرمدانية

أطلت التردد قبل أن أفتح هذا الباب من أبواب النقد الذي أبدؤ اليوم لسبب  
يسر جداً فيما أظن ، وهو أن هذا النقد سببته إلى السيدات والآفات ، كما يته  
النقد في الفصول الأخرى التي أكتبها إلى كحول الأدباء وشبابهم . وقد تعودت  
أن أتحدث إلى الأدباء في لهجة مها تكن رقيقة رقيقة ، فإنها لا تخلو من بعض  
الشدّة والعنف أحياناً . حتى أصبح النقد الحارم العارم عادة لي لا أستطيع الانحرام  
عنها مها تكن الأسباب والمواطن . وقد عرف الناس من ذلك فأفروا وعرفوا  
ولم ينكروا إلحاحي فيه وإسراي عليه ، وإنما أنكروا ما قد أصطنعه أحياناً من  
التلفظ والرفق حين يدعوا النقد إلى التلطف والرفق . وحين لا يدعوا الأمر إلى  
الشدّة والعنف . والقراء لم ينسوا بعد أن كاتباً أدبياً لا منى منذ حين في أني نقدت  
الأستاذ العقاد فلم أعنف به ولم أئس عليه . ويقال إن كثيراً من القراء ذهبوا مذهب  
هذا الكاتب الأدب ، فاستضعفوا نقدي لرجمة أبي العلاء ، وذهبوا في ذلك  
مذاهب مختلفة من التأويل والتعليل . وليس لذلك مصدر إلا أن القراء عرفوا مني  
العنف في النقد والحزم في التفریط والإعراض عن المصانعة واللين .

وواضح جداً أني حين أقدم على نقد الكتابات الأدبيات ، مضطر إلى أن  
أصطنع من الرفق والتلطف أكثر جداً مما أصطنعه حين أقدم على نقد الأدباء .



لا نرى أضعف الأدبيات ، وآراءهم خليقات بالرفق والتلطف لضعفين ، فقد  
 رآنا من هذا الضعف وفيه عن أنفسهم منذ وقت طويل . وقد برأناهم نحن  
 من هذا الضعف ، ورأينا فيهم لنا أمثالا وأندادا ، وأخذنا أنفسنا بأن نسير معهم  
 في ما مع أنفسنا ، إكباراً لهم واعترافاً بحفهم في هذه المناواة التي يحرص عليها ،  
 ولا يجعل نحن بها لأننا تراها حقاً مقرواً لا معنى للمناقشة فيه . ولكن للصلوات  
 اللائقة بين السيدات والآفات وبيننا أصولاً وقواعد ترتفع عن هذا النحو من  
 التكرار ، ونسوق على هذا اللون من ألوان التقدير ، ولا تقوم على الضعف والقوة  
 ولا على القدرة والعجز ، وإنما تقوم على ما يجب علينا نحن من الرعاية والعناية  
 من التآني لما نريد أن نسوق إليهم — استغفر الله — بل لما نريد أن نرفع  
 إلى من حديث . وأنا رجل قليل الحيلة ضعيف الوسيلة في التلطف والتعطف ،  
 لا حسنها ولا أبلغ منهما بعض ما أريد . تعودت القسوة على الكتاب حين  
 أراه ، وتعودت القسوة على الطلاب حين أعليهم . واستقر في نفسي أن التعطف  
 قد يكون خيراً في كثير من المواطن ، وأن الرفق قد يكون واجباً في كثير من  
 المواطن ، ولكنهما لا يلائمان النقد ، ولا يلائمان تقويم الشباب وتثقيفهم حين  
 يكونون فيشطون ، أو يكونون فيقشرون . وقد كان من البسير أن أريح نفسي من  
 هذا العناء ، وأحط عنها هذا الثقل . وأمضى في نقد الأدباء على ما تعودوا من شدة  
 العناء ، وأدع نقد الأدبيات للذين يحسنون الحديث إليهم والحديث عنهم . ولكن  
 هذا ظلماً لا يطاق وتجاوزاً للقصد لا يقبل من مثلي . فالأدبيات ينتجها ، وينتجها  
 من قبل أن ليست أقل استحقاقاً للنقد من هذه الآثار التي ينتجها الأدباء ، وما ينبغي  
 أن نهمل إنتاجهم ، وما ينبغي أن نسو الأدب بالإعراض عن آثارهم القيمة  
 . يمكن إشفافنا من الجور عن قصد السبيل ، في نتحدث به إليهم أوفياً نتحدث  
 به عنهم . وما دمن قد أخضعن أنفسهن لقوانين الإنتاج الأدبي ، فأقبلن على

الإنشاء ، ثم لم يكتفين به ، بل أقبلن على الإذاعة والنشر ، ثم لم يكتفين بذلك كله ، بل أردن أن يسمعن أحكامنا على ما ينتجن وآراءنا فيما يذعن وينشرون ، فقد تخيل إلى أننا في حل من أن نتحدث إليهن وعنهن في الأدب ، كما نتحدثن إلى الرجال وعن الرجال في الأدب أيضاً . ومن يدرى ! لعلهن أن يكنَّ أرحب صدرًا وأحسن احتيلاً لشدة القد وعنفه من الرجال . وأكبر الظن أنهن لن يكنَّ أضيق من الرجال صدرًا بالنقد ، ولا أشد منهم ازوراراً عما قد يشيع فيه من شدة وعنف أحياناً . ومن المحقق أن بين الأديب الخلق بهذه الصفة ، وبين السيدات والآسات شركة لا يمكن أن تنكر ولا أن تجحد ، في قوة السور ودقة الحس ، ورقة المزاج ، وشدة التأثير بما يكتب وما يقال . وما أشك في أن هذا الأديب القوي أو ذلك يتأثر بما يكتب عنه أو يكتب له تأثر السيدة أو الآسة بما يقال عنها أو يروى إليها من الحديث . فانتشجع إذاً ، ولتقدِّه على نقد السيدات والآسات في شيء ، مع ذلك من التحفظ والاحتياط والرعاية لمزاجهن ، الذي مهما يقو ويشتد ، فهو مقرف مرفق يحتاج إلى شيء من الرعاية الخاصة فيما أرجه إليه من حديث .

وفي مصر كانت أدبيات ينتجن آثاراً فنية خصبة لعلها أن تبلغ من الإجابة والإنقان أكثر مما تبلغ آثار الأدباء ، ولعلها أن تظهر من الرقة والدقة ولطاف المدخل بما لا تظهر به آثار الأدباء . ولعلها أن تحقق من المثل الأدبية المبدأ ما لا تحققه آثار الأدباء كذلك . ولكن لها عيباً خطيراً يؤم ويد ، ويحزن ويسر ، وهو أنها لا تكتب بلغتنا العربية ، ولا تبلغ نفوسنا المصرية إلا من طريق ملتوية غير مباشرة كما يقال ، وإنما تكتب بلغة أجنبية لا يحسنها منا إلا الأقولون عدد . تكتب باللغة الفرنسية فيقرؤها الفرنسيون ويرضون عنها ، وقد يمجِّسون بها ويُثدِّين عليها . كهذا الكتاب الذي أريد أن أتحدث عنه اليوم . فقد كتبه السيدة قوت القلوب الدمرداشية باللغة الفرنسية ، ونشرته في باريس ، ووصل إلى مصر

من باريس ، ولم يصل إلى باريس من مصر . ماذا أقول ! بل وصل التناء عليه  
 إلى مصر من باريس ، وعرفناه من المقدمة التي قدم بها بين يديه الكاتب الفرنسي  
 المعروف بول موران . ثم أخذ الأدباء الفرنسيون يقرءونه هنا وهناك ، فكتب  
 في مصر أستاذان من أساتذة الجامعة ، وأثنى عليه في باريس غير كاتب من  
 الكتاب المعروفين . ولم يقرأ مع ذلك من المصريين ، ولا ينتظر أن يقرأ منهم  
 إلا الذين يحسنون اللغة الفرنسية ويدققونها ، ويحيدون الوصول إلى أسرارها  
 وحقائقها ، وهم فيما أعلم قليلون . وما أرى أن المصريين سيقروءون هذا الكتاب  
 وناله من الكتب التي سأحدث إليهم عنها إلا إذا ترجمت لهم إلى اللغة  
 العربية . فأنجست من كتاب مصري تنشئه كاتبة مصرية وتنشئه في  
 موضوع مصري خالص ، يس حياة المصريين في أدق جهاتها وأعماها  
 وبندها اتصالا بنفسهم ، ثم لا يعرف المصريون عنه شيئا . إلا من  
 يبق ما يكتبه عنه الأجانب أو من طريق النقل والترجمة ، إن أتيح لهذا  
 كتاب أن يُنقل أو يُترجم .

ومن الحق أن سجل أن هذه الظاهرة المؤلمة ليست مقصورة على السيدات  
 وأساتات ، ولكنها تتجاوزهن إلى الرجال : ففي مصر كهول وشباب ينتجون  
 آراء أدبية رائعة ، ولكنهم ينتجونها في اللغة الفرنسية ويمتعون بها القراء  
 الفرنسيين وأشباههم من المثقفين ، ويصرفونها طامعين أو كارهين عن مواطنهم  
 من المصريين . ولا بد من أن أحدث يوماً ما عن هذه الآثار المصرية الفرنسية  
 الرائعة ، ليتدبر المصريون هذه الظاهرة الخطيرة التي تسر وتخزن ولدهم وتولم كآفت  
 آفتا . تسر لأن فيها إذاعة للدعوة المصرية وتعريفاً بقصر والمصريين ،  
 وتخزن من الخير أن يُقدَّر الكتاب والشعراء المصريون خارج مصر في البينات  
 الأدبية العليا . وتخزن لأن من الحق أن يستمتع بها المصريون قبل أن يستمتع بها

الأجانب . ولأن من الحق أن تستمر اللغة العربية بما ينتج أبنائها ، وأن نعرف اللغات الأجنبية بالنقل والترجمة عن اللغة العربية ، لأن يعرف المصريون وتظهره اللغة العربية عن طريق النقل والترجمة .

وما لاشت فيه أن هذه الظاهرة خليفة بالتفكير ، فما الذي أنتجها ؟ وما الذي دعا إليها ؟ وكيف وجد مصريون يملكون من الإجابة الفنية هذا الحظ العظيم ، وينتجون في لغة أجنبية ، تعرفهم أوروبا وتحيلهم مصر ، يستمع بأثرهم الأوروبيون ، ويحرم هذا الاستماع مواطنهم من المصريين ؟ ! وجه هذا السؤال إن شئت إلى الأسر التي عشت أبنائها في المدارس الأجنبية . وإلى الدولة التي تفرض على هذه المدارس تعليم اللغة العربية لتلاميذها المصريين . ماذا أقول بل إلى الدولة التي لم تمنح مدارسها حتى صرفت عنها الأسر أبنائها ، والتي لم تمنح بتعليم اللغة العربية في مدارسها ، حتى أعرض أبناء مصر عن الإنتاج في اللغة العربية إلى الإنتاج في اللغة الفرنسية أو الإنجليزية .

وهما كمن من شئ ، فإني أريد أن أحدثك في هذا الفصل عن كتاب أبنائه السيدة قوت القلوب الهمردانية باللغة الفرنسية ، يظهر بإعجاب قرائه ويظهر بإعجاب القراء المصريين والنقاد المصريين . وما يحزن وبسر أن هذا الكتاب ليس أول كتب السيدة ولا آخرها : فقد نشرت قبله كتاباً آخر باللغة الفرنسية . وإذا صح ما انتهى إلى من الأبناء ، فهي آخذة في نشر كتاب ثالث باللغة الفرنسية أيضاً . والكتاب الذي أتمنى به الآن واضح من عنوانه ، فهو يصف الحياة المصرية الخاصة داخل البيوت والتصور في أحسن ما يحرم المصريون عليه من أمورهم وأدق ما يظنون به من خاصة نفوسهم . وقد كتب الأجانب كثيراً عن الحياة المنزلية المصرية ، وقد صور الأجانب كثيراً عاداتنا الشعبية ، فأحسنوا وأساءوا ، وصدقوا وكذبوا ، ووفقوا وأخطأهم التوفيق . ولكن السيدة قوت القلوب مصرية

تنبه لقومها أو تشهد عليهم لا أدري ، هي تصور حياتهم كما رأتها ، وتصورها تصديراً دقيقاً صادقاً مطابقاً للواقع من أمرها . لا تنحرف فيه عن الحق ، ولا تحيد فيه عن الأشياء التي لا سبيل إلى إنكارها . ولعلك إن أخذناها بشيء أن نأخذها بالأسراف في الصدق والتلو في الدقة ، إن كان من الممكن أن يكون في الصدق إفراط وفي الدقة غلو .

وما رأيك في كتاب يعطى أدق صورة وأصدقها لحياة كثير من الأسر المصرية في حياتها وهزلها ، وفي العظيم من أمرها واليسير . يصورها حين نشأ ، ويصورها حين تنمو ، ويصورها حين تلم بها الخطوب . ويصورها حين تلم بها الفساد الذي يأتيها من الطلاق أو من الموت . فالخطبة مصورة أصدق تصوير وأروع ، وحملات الزواج . مرة أصدق تصوير وأروع ، ويوم الزفاف ، ومقدمه المولد ، وحفلة الأسبوع ، والخدمة اليومية في أيام الأعياد وفي أيام الحزن والأسى ، والخلاف الزوجي الذي يفضي إلى الطلاق . وما يقفه الطلاق من اليأس والحزن ، وهذه الملوحة التي تدب الأسر حين يختطف من بينها زعيمها وحامها . وكل هذا لا يصور من قبل ، وإنما يصور من قريب جداً ، ولا تنظر إليه السكينة من علي ، وإنما تعيش بين الناس ، وتصور ما ترى وما تحس ، وتجد ما تسمع وما تفهم ، وتؤدي هذا في ثقة أصحك أحياناً ، وتبجل أحياناً أخرى ، وتدفعنا أحياناً إلى أن نسأل : أليس الخير أن يعرف الأجانب عنا هذه الحقائق وأن يظنوا من داخلنا على هذه الأسرار ؟ والشئ ، الذي لا شك فيه أن طلاب القبول كمكور سيقدرون للسيدة لثمة القلوب كتابها ، وسيشكرون لها جهدها : فقد أهدت إليهم وثيقة خصبة لن يفتروا في استغلالها والانتفاع بها فيما يكتبون من بحوث : فقد صورت لهم خرافاتنا وسخافاتنا في دقة لا مزيد عليها . لم تهمل العناية بالورد والياسمين والبصل والنوم في شم النسيم ، ولم تهمل سحر السحرة ، وشعوذة الشاموذين ، وما يكون لها

من أثر خطير في العلاقات الزوجية في بعض الأسر . ماذا أقول ! بل هي لم تهمل ولادة المولود ، وما يحيط بها من الخوف ، وما يحيط بها من الخديان . فهذه أم الفتاة التي يتعسر عليها الوضع ، تلج في أن يكون الوضع في هذه الغرفة لا في تلك ، لتستطيع أن تدس إلى ابتها الخنوى وأطياب الطعام . وهذه أم الزوج تريد أن يكون الوضع في هذه الغرفة لا في تلك : لأن في هذه الغرفة بركة ، ولأن لها أسراراً . وهؤلاء النسوة يشرن على الزوج الفتى ، حين يتعسر الوضع ، بأن يلبس ثوبه مقوياً وعطوف به في الدار ، ليسوء الخنثيات اللاتي قد يحبينه ، وقد يردن السوء بأمرائه . وهذا أبو الزوج يأخذ مشط الفتاة ، فينزع عليه سورة من القرآن أثناء ساعة طويلة ، ثم يرده إلى شعرها ليعمد عنها العفاريث وشياطين السوء .

وأمثال هذه المناظر كثيرة . يتلى بها الكتاب . وتستطيع أن تنظر من خلال الستار ، أو من ثقب القفل أو من ثناء النوافذ . لتري هؤلاء النسوة ، وقد جلسن يتحدثن ويشرن من القهوة ، ويلفظن بالسخر والخرافات ، حول موقد يحرق فيه الطيب . ومن يدنون منه ، فيطيقن نسيجهن من أعلى ومن أسفل ، ليتلقين أزواجهن بالطيب حين يأتى الأزواج إلى المضاجع إذا نكح الليل . ومما لا شك فيه أن الكتابة الأدبية قد ظفرت في كتابها الفرنسي بحرية فنية لا يظفر بها أمثالنا نحن المفسرين من الكتاب البائسين ، الذين يكتبون باللغة العربية ، فيرعون الذوق المصري والعرف المصري ، ويُسروُن أكثر مما يظهرون ، ويخفون أكثر مما يعلنون . وهنا تعرض مسألة لا بأس بأن يحق عندها الأدباء ، وهي مسألة الحرية الفنية التي لا يظفر منها الكتاب العربي إلا بآيسر حظ وأقله ، على حين يبلغ منها الكتاب الأجنبي أقصى ما يريد ، وأكثر مما يريد .

ولو أن السيدة قوت القلوب كتبت كتابها هذا باللغة العربية ، لاضطرت إلى أن تُلغى منه الشيء الكثير ، مراعاة للذوق المصري والعرف المصري . فلمن

كشفت هذا الكتاب ؟ كُتِبَتْ لِنَفْسِهَا أَوَّلًا . كما يصنع كل أديب حين يسجل  
خفايا طوره وآراءه ، وكُتِبَتْ للقراء الأجانب بعد ذلك في أكبر الظن . ولست أدرى  
أرسية هي عن أثرها الأدبي ، ولكنني أعلم أن الأجانب الذين قرأوه راضون عنه  
الرضا ، يرون فيه لذة فنية ، ويرون فيه لذة علمية بما لم يكونوا يعلمون ،  
وأن فيه هذه اللذة التي نحسها حين يفتننا منبه بالأشياء الغريبة الطريفة  
التي نرى . فنود لم نعلم أكثر مما علمنا ، ونسمع أكثر مما سمعنا ، ونرى أكثر مما رأينا .  
وقد تسألني عن رأيي أنا في الكتاب : أراض أنا عنه أم ضيق به ؟ فأما من  
النحية الفنية الخاصة ، فأنا راض عن الكتاب ، مثل غيره ، آسف لأنه لم يكتب  
بالعربية ، حريص على أن يترجم إلى هذه اللغة . وأما من الناحية المصرية  
الخاصة فقد أتحفظ في هذا الرضا بعض الشيء : لأن الأجانب يسجلون علينا  
مجلته ، فلندع لهم ذلك . وفي حياة المصريين ما نستطيع أن نقدمه إلى  
الأجانب ، فليفسروا وترضيه ، ولا نقدحكم . ولست أرى بأساً بأن يكتب هذا  
الكتاب في لغتنا العربية ، لنظهر على نقائص فصلحها ، وعلى محاسننا فنترد منها .  
ولست أرى بأساً بأن يترجم هذا الكتاب عن لغتنا إلى اللغات الأجنبية فيعرف  
الأجانب أننا لا نشفق من تسجيل عيوبنا والجد في إصلاحها . فأما أن تصور هذه  
النص مباشرة في لغة أجنبية لانتظر نحن عنها ، بل ليظهر عليها غيرها ، فهذا الذي  
أرى منه موقف التحفظ ، ومن الحق أني لن أقدم عليه . وإيقال الناس إنني ضعيف :  
فقد أؤثر مثل هذا الضعف .

على أن في الكتاب قصصاً أخرى تؤثر وتُعجب بغير هذه النقائص والعيوب ،  
بما تضطرب به نفس الكاتبة من عواطف الخير والرحمة والإنفاق . والقصة  
الأخيرة في الكتاب جميلة حقاً ، لأنها تصور تصويراً مؤثراً ساذجاً الانحدار من  
الغربة إلى الدالة ، ومن السعادة إلى الشقاء . ومن نعم الثروة إلى جحيم الفقر

والإعدام . وهل تَدْرُنُ نِي السَّكَنَةِ فِي أَنْ أُلَاحِظُ ، فِي رَفْقٍ ، أَنْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ  
 كِتَابَهَا قَدْ يَخْذَعُونَ عَنْهَا أَحْيَانًا . وَقَدْ يَضُونَهَا فَرَنْسِيَّةً . تَكْتُبُ عَنِ الْمَصْرِيِّينَ ،  
 قَدْ عَلِمْتُ مِنْ أَمْرِهِمْ كَثِيرًا جَدًّا . وَجِئْتُ مِنْهُ مَعَ ذَلِكَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُجْهَلُ ، فَشَيْخُ  
 الْإِسْلَامِ مِثْلًا عِنْدَهُ هُوَ الرَّئِيسُ الْأَعْلَى لِلْمُؤْمِنِينَ . صَفْحَةُ ٦٢ ، وَهُوَ عِنْدَ الْمَصْرِيِّينَ  
 شَيْخُ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ لَيْسَ غَيْرَ . وَارْتِيسُ الْأَعْلَى لِلْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْخَلِيفَةُ إِنْ وَجَدَ .  
 وَ « مُحَمَّد » وَ « أَحْمَد » اسْمَانِ لِأَبْنَيْنِ مِنْ أَبْنَاءِ النَّبِيِّ ( ص ) ، وَهُمَا عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ  
 اسْمَانِ مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ نَفْسِهِ . وَلَيْسَ مِنْ أَبْنَاءِ النَّبِيِّ مَنْ سَمِيَ بِهَذَا الْاسْمِ أَوْ ذَاكَ .  
 وَمِمَّا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ . فَإِنَّ الَّذِي دَفَعَ السَّيِّئَةَ قُوَّةَ الْقُلُوبِ إِلَى أَنْ تَكْتُبَ  
 كِتَابَهَا الْقِيمَ الْجَمِيلَ بِاللُّغَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ . هُوَ الَّذِي خَبَّلَ إِلَيْهَا أَنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ هُوَ  
 الرَّئِيسُ الْأَعْلَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا وَأَحْمَدَ مِنْ أَسْمَاءِ أَبْنَاءِ النَّبِيِّ .

أَعْذَرُهَا فِي ذَلِكَ أَمْ تَعْتَبُ عَلَيْهَا ، أَمْ تَعْدِلُ عَنِ الْعُذْرِ وَالْعُتْبِ إِلَى التَّنَادُ عَلَى  
 مَا فِي كِتَابِهَا مِنْ جَوَالٍ فِي يَدٍ وَتَمْتَعُ وَيَتَكَلَّمُ الْقَارِئُ مِنْ أَنْ يَنْفَقَ فِي قِرَائَتِهِ وَتَمْتَعُ  
 مَرِيحًا حَقًّا ؟



## مصر في مرآتي

نعم كتاب آخر عن مصر قد كُتب في اللغة الفرنسية كذلك الكتاب الذي  
حكى لك عنه منذ أسابيع والذي أداعه القاضي الفرنسي شرن بويش باريرا .

ولكن كتاب اليوم لم ينسبته أحبي نظري ولا أحبي مقيم . وإنما كتبه آتمة  
مصرية ، وكتبته في اللغة الفرنسية . لأنها أملك هذه اللغة . وأقدر على التصرف  
بها ، على أن تصور فيها ما يحول في نفسها من الطواغر . وما يتور في قلبها من  
المرطف . وما يعن أمثالها من الآراء . وهي في تصرف هذه اللغة بارعة كل  
اللغة ، موقفة كل التوفيق . ثم أكتابها من أوله إلى آخره . فلا يخطر لك أن  
الكتاب كتبه أجنبي أو أن التي كتبه أجنبية عن هذه اللغة . ولا يعرض لك الشك  
في أن الكتاب فرنسي اللغة لأنه فرنسي المؤلف .

وأنت مع ذلك تعلم حق العلم أن الكتابة مصرية . نشأت في الإسكندرية  
وأدبت فيها وما زالت تقيم . ولكنها اتخذت لغة الفرنسيين راضية أو غير راضية  
مراد حسنها وشعورها ، واهلقتها وقبحها . وأداة للكتابة وأداة للمحديث أيضا . فهي  
مصرية الوطن ، مصرية الشعور ، ولكنها فرنسية اللغة . فرنسية التصوير والتفكير .  
وأما لها في مصر غير قليلين ، منهم الرجال ومنهم النساء ، وكلهم يتقن الفرنسية كل  
الافان ، وكلهم يكتب فيها النثر الرائع أو ينظم فيها الشعر البديع . ولست أدري  
أخير هذا أم هو شر ، بل أنا أدري أنه خير من بعض الجاهات . فبؤلاء المصريين

الذين يتحدثون عن أنفسهم وعن بلادهم في لغة أجنبية تراجحة أمناء عن شعر مصر وحسبها ، وعن آمال مصر وأمانها ، ورسائل صادفون يتحدثون إلى الأجانب بما يضطرب في نفوس المصريين من عاطفة ، وما يسمو إليه المصريون من المثاليات العليا ، وما يطمح فيه المصريون من الكرامة وارتفاع القدر وعلو الشأن ، وهم بذلك يحسنون إلى بلادهم ، سفراء موقفون فيما يتكفنون من سيطرة ، ولكن في هذا بعض الشر ، أو قل بعض الخرم ، أو قل خرمنا كثيرا ، هؤلاء الكتاب والشعراء الذين يكتبون وينظمون في لغة أجنبية لم في أكثر الأحيان حفظوا حسنة من البراعة والذكاء ، ولم يقدروا ذكية وعقول خصبة وملكات فنية قوية ، وهم حين يكتبون أو ينظمون في لغة أجنبية يصرفون ثمرات هذه الجهود التي يبذلونها من مواطنهم من المصريين والشركيين الذين لا يحسنون اللغات الأجنبية ، ويصرفون هذه الثمرات عن اللغة العربية نفسها ، ويختصمون بها قوماً أعلمهم لا يحتاجون إليها ، ولغاتهما يمكن أمرها فعلى إلى أن نشكو النكسة وضخمة الثروة أجدر منها بأن نشكو الفقر والإعدام ، فالمصريون والشرقيون في حاجة إلى أن تُترجم لهم آداب الأجانب ، وهم لا يظفرون من هذه الترجمة بشيء ، فكيف بهم إذا احتاجوا إلى أن تترجم لهم آداب المصريين ثم ؟ يظفروا من هذه الترجمة بشيء ؟!! واللغة العربية نفسها في حاجة إلى أن تُنقل إليها آداب اللغات الأخرى ، فكيف بها إذا صُرفت عنها آداب أبنائها ؟! وليس جناح ذلك على هؤلاء الكتاب والشعراء ، وإنما جناح ذلك على الدولة التي لم تحسن حماية اللغة العربية ولا حياطها ولا صيانتها من أن يغلب منها بعض أبنائها ، والتي لم تحسن القيام على تعليم هذه اللغة بل لم تحسن القيام على التعليم كله لتكفل اختلاف المصريين جميعاً إلى المدارس الوطنية ، وتخرج المصريين جميعاً من المدارس المصرية ، بحيث إذا أُتيح لأحدهم أن يُتقن لغة أجنبية ويتخذها أداة للتعبير في الكتابة والحديث ، لم يكن ذلك نتيجة قصور

عن اصطناع اللغة العربية ، بل كان مظهرًا من مظاهر الترف العتلي ، ولو أن من  
أثنى التفنن المباح .

نعم ! إنهم ذلك على الدولة : لأنها أهملت التعليم فاضطرت كثيرًا من الأسر إلى أن  
تدفع بناتها وأبناءها عن المدارس الوطنية إلى المدارس الأجنبية . وإذا هم  
يحبون أو يكادون يحبون اللغة العربية ، وإذا هم يكتبون وينظمون في لغات  
أجنبية ، وإذا هم يعيشون بمعزل من مواطنيهم في غس الشعور والتفكير ، وكلما  
تبعنا بين هؤلاء الكتاب والشعراء كتاب بارعا أو شعرا مجيدا كان لومنا للدولة  
أشد ، وسخطنا على إهمالها أعظم : لأننا نقدر حرمنا اللغة العربية ما لهذا الكتاب  
والشاعر من البراعة والإجادة والإتقان .

ولكني لم أكتب هذا الفعل لأحزن أو أتبر الحزن ولا لألوم أو أدعو إلى  
الامتناع ، فقد يكون لهذا كله موضع آخر . وإنما أنا أكتب لأهني الآفة « جان  
أرقت » بكتابتها الممتع البديع ، وإن كنت لا أستطيع أن أعصم نفسي من الأسف  
من الأسف الشديد ، لأن كثرة المصريين لا يستطيعون أن يستمعوا مثل بقراءة  
هذا الكتاب وتذوق ما فيه من هذه الصور النفسية الرائعة حقًا ، وإنما يحتاج هذا  
إلى قليل جدًا من المصريين الذين يحسنون الفرنسية ، وكثير جدًا من الأجانب .  
وكتاب قيم بأدق معاني هذه الكلمة ، وهو مجمع بوسع معاني هذا اللفظ .  
والصور المصرية التي يشتمل عليها خليقة — كالصور المصرية التي اشتمل عليها  
كتاب القاضى بوش — بالإكثار والإعجاب حقًا .

وكان كلا الكتائين متم لصاحبه . أو كأن القاضى بوش متم لكتاب  
الآنسة جان أرقت . فقد ظهر كتاب الآنسة أولاً ، وظهر الكتاب الآخر بعده .  
أو قل إن الكتائين حلقتان من سلسلة خليقة أن تطول وتتصل . فالآنسة جان  
أرقت تصور الإسكندرية وما حورها ، والقاضى بوش تصور القاهرة وما حولها .

وفي مصر مدن أخرى غير هاتين المدينتين ، وفي مصر مناظر أخرى غير هذه المناظر . فهل نستطيع أن ندعل أن يظهر بين المصريين أو بين الأجانب المقيمين في مصر من تتاح له مرآة صافية نقية صادقة كمرآة الآنة جان أرقش ، أو القاض بويش ، لرى فيها ما لا يراه في هذين الكتابين من مدن الأقاليم ومناظر الريف ، ولنقرأ مثل ما نقرأ في هذين الكتابين من هذه الأحاديث القصار الساحرة التي تحدثنا عما نعلم وكأنها تحدثنا عما لا نعلم . والتي تصور لنا حياتنا المألوفة وكأنها تصور لنا ما لم نألف من الحياة !

كثير منا يألف الحدائق ، ويكثر الإلمام بها والوقوف عند ما يزينها من الزهر والشجر وألوان النبات . ويُعجب بعض ذلك أو بكل ذلك إعجاباً متفاوتاً ، ويتحدث بهذا الإعجاب حين يلقى أمتعته أو حين يكتب فصلاً أو كتاباً . ولكن الآنة جان أرقش وحدها هي التي تستطيع أن تحدثنا هذا الحديث الجميل الذي ابتدأت به كتابها عن « بنت القنصل » و« فتیان الليل » . وأنت تعرف فيما أظن أن هذين الاسمين يطلقهما البستانيون على بعض هذا النبات الذي تزدان به الحدائق ، والذي يخرج من الزهر ما يروق المتفرجين ، ولكن الذي لا تعلمه هو أن فتیان الليل ينتهزون سكون السكون وهدوء الطبيعة ونوم الناس وغيبة البستاني ليسموا إلى ابنة القنصل سموً حبيباً لها ، حالاً على حال ، كما يقول امرؤ القيس ، ليسموا إليها متسكرين مستخدمين كما كان يسعى عمر بن أبي ربيعة إلى صاحبه ليلة ذى دوران بعد أن استيقن أن رفاقه قد ناموا ، وأن خصومه قد هجموا ، وأن الرعيان قد رؤوا حواء ، وأن القمر الضئيل قد غاب ، وأن المصاييح المضطربة قد أظفئت ، هنالك سعى ابن أبي ربيعة إلى صاحبه ، وفي مثل هذا الوقت سعى فتیان الليل إلى بنت القنصل ؛ فكان بينهم وبينها غزل ، وكان بينها وبينهم مداعبة تشبهها هذه الشرفة الجميلة . وقد رأتها الآنة جان أرقش ، ولكنها أمينة على السر ، حفيظة على غيب الحبيب ،

بسات عاذلة ولا تحب المذل ، وليست واثية ولا تحب الوشاية . وآية ذلك أنها  
 أن أن تقص هذا الحديث على البستاني الذي رأيته يزمن جرمة من الجرار يختلف  
 الزمان من أوراق الزهر ، وسألته عن اسم هذا النبات وذلك النبات فأنها باسمها ،  
 وكنت هي منه بهذا النبات . وماذا تريد أكثر من أن تعرف اسم العاشقين .  
 هي كأخت صاحبة ابن أبي ربيعة . لا تريد أن غشي سرا ولا أن تبوح بحبي .  
 و ذلك أنها حين أرادت أن تصور لنا ما كان من الغراء الليل بين فتيان الليل  
 وت القنصل حواريه لنا بالفرنسية التي لا يقرؤها كثير من المصريين ، ولا يقرؤها  
 الساتنيون على كل حال . فبنت القنصل وفتيان الليل آمنون يستطيعون أن  
 ، لو إذا هذات الطبيعة وسكن الكون وراء الرقيب ، لا يخشون بأسا . ولكن  
 ، يدري ! ألي أنا قد أذعت الحب المكنون ونحت بالسر انكم حين تحدث  
 ، في هذه اللغة التي يفهمها المصريون جميعا ، والتي يفهمها البستانيون أيضا ، فأننا  
 ، نغفر الله من هذه الوشاية ، وأنا أؤمل إلى البستانيين إن قرؤوا هذا الحديث ألا  
 ، ودوا إلى بنات القنصل وفتيان الليل ، وألا يرفوهم ولا يفتقوا عليهم جهنم البرى .  
 ، كان الليل . وأى سر يخافه الناس من أن يسمو فتيان الليل إلى بنات القنصل !!  
 وهل ربيعة في أن تمنح نجية إلى الفبا أو أن يمنح نجيب

والآنسة جان أرقش تحب الخدائق وتكلف بالزهر ، وهي من أجل ذلك نجيد  
 وصف الخدائق والزهر ، وهي لا تكتفى بإجادة الوصف ولا تكتفى بالحب من بعيد ،  
 ولكنها تحب الزهر هذا الحب الذي يغريها بالملك والاستيلاء . وانظر إليها وقد  
 ذهبت إلى حديقة من الخدائق العامة ، فأنجيبها هذا انورد الكثير الجليل الرائع القائم  
 عن أغصانه يذيع في الخديقة سحرا وروعة وجحلا . وإذا هي تنظر وتعجب وتستمتع ،  
 ثم تشتاق ثم تكلف ، ثم نسعى إلى البستاني المنصرف إلى عمله فأنه وردة من  
 هذا الورد ، وردة لم تمسها يد البائع ، وردة ليست مباحة للناس جميعا ، وردة تكون

لها من دون الناس . ولكن البستاني رأى عليها ويأتى : لأن هذا الزهر لم يثبت  
 لستمع به فرد من الناس دون فرد . وإنما ثبت لتجمل به الحياة للناس كافة . حتى  
 أترتو والبستاني يعلمها الإيثار . أترأه فعلت ؟ لا أدري ! ولكن الذى لا أشك فيه  
 هو أنها همت أن ترشو معين البستاني لينحى وردة من هذا الفرد ، ثم عدلت عن  
 هذه الرشوة لأنها ! تكن تريد وردة تشتري بالمال ، وإنما كانت تريد وردة تؤخذ  
 ولا سباع . قد يكون بستانها هذا حكيماً تزيهاً مؤثراً للجماعة على الفرد ، ولكنه  
 من غير شك ! يرتويها الحبل ولا ذلها الزشيق ولا وجيبها الذى كانت تظهر فيه  
 الرغبة فتريده حسناً إلى حسن . وثوانه رأى المكان له فيما أقل شأن آخر . فمن  
 الذى يستطيع أن يبعث وردة . ولو كانت من ورد الحديقة العامة — على آذنة  
 تطلبها في هذا الإلحاح الجميل ! !

وأنت تحصى في الكتاب كله مستقلاً من صورة إلى صورة ومن قصة إلى قصة ،  
 واحداً في كل ما قرأ هذا الروح الخمر الطريف الذى صورته لك فيما لحصت من  
 هاتين القصتين . ستجد هذه الدعامة المرحمة أحياناً الهادئة أحياناً التي تثير الالتهام  
 دائماً . وستجد بين وقت ووقت حيرة خفية لا يريد أن يظهر ولا أن يعلن نفسه ،  
 وإنما هو يشير إلى نفسه إشارة ويلوح بها للميعاد . وسترى على كل حال صواباً  
 دقيقة كل الدقيقة ، صادقة كل الصادق ، لكثير من حياة الإسكندرية على اختلاف  
 الفصول . انظر إلى هذه الصورة الجميلة التي تعرض علينا فيها هذه العرافة التي تسعى  
 على ساحل البحر وعلى رأسها سقها الفارغ إلا من ودعاتها القليلة ، والتي لا تسكد  
 تدعوها حتى تقبل عليك مسرعة ، ثم تجلس إليك ، ثم تخط في الرمل خطوطاً ، وإذا  
 هي تتحدث إليك بما كان وما هو كائن وما سيكون . وإذا الآنسة تتردد في دعائها  
 ثم تتصرف عنه : لأنها لا تريد ولا تحب أن ترفع لها أستار الغيب .

وانظر إلى هذه الصورة الأخرى صورة أبناء البيت وقد خرجوا مع خادمهم في

النساء يلبسون على ساحل البحر ، فما أصغرهم فقد نزع كتنى الخاضع لا يغير فيما ،  
وإنهم يأكلون ما تفرق بينهم من الخس ، ثم هم يمشون بأيديهم في الرمل عبث  
التي لا يجهل الذي لا يحسن بناء القلاع والقصور كما يفعل صبيان الفرنج .  
ومن البستاني من حوله قرح مريح يجرى كالشيطان هنا وهناك وقد وضع ذيل في فمه ،  
وانظر إلى عربة القصب تسعى في الشارع وقد استقر بالبحر القصب من فوق  
فيه ، والعربة تسعى تجري في الأرض أطراف القصب ، والباقي يستريح ببعض  
الباقي فيمض بعض هذا القصب ، وقد انقضى النهار وكاد وأرسل الليل طلائعه إلى  
الارض ، فكان بالبحر القصب فلاحاً يداعب الزمائر بشفيه .

وانظر إلى هذه الصور الكثيرة التي تصور أحياء الرمل في الليل وتصور أحياء  
الارض في النهار ، تصورها حين يداعب ضوء القمر وحين يلج عليها أشعة الشمس .  
وانظر إلى هذه الصورة التي تراها في الأحياء الوطنية كل يوم ، صورة العرس الفقير  
من فيه أمتعة الزوجين ظاهرة للناس معروفة عليها مختلفة أشد الاختلاف ، فيها  
البنات وفيها الآنية ، وفيها ما شئت من الصغير والكبير ، وكل ذلك يسعى على صوت  
التيق والنباح أهل المروسين . ومن دون ذلك كله فتاة تنهت للعرس بين أترابها  
في الحمام يهينها ويحدثها أحاديث كلها سرور ، وكلها مع ذلك معروف أو كالمعروف .  
وهذه الصورة التي تعرض علينا حياة ما يسونه الخريم . وهذه الصورة التي  
تعرض علينا هذه البائسة وهي تسأل الناس مستقرة حيناً متحركة آخر ، وبين يديها  
أول من ذراعها طفلها الصغير الذي تمضي عليه الأعوام والأعوام وهو لا يكبر ولا  
يندر . وأمينة هذه ذات الملاءة والبرقع الأسود والقنينة الذهبية على الأنف تسعى  
في الشارع كأنها الشبح ، حتى إذا انتهت إلى الشجر ظمير شفعها وجرت فيها الحياة  
وأنتت برقعها من وراء رأسها كأنه العلم المنكس ، وأخذت تسام في ثوب تشتريه  
استعداداً لعرس ، وهي تنظر وتمس وتشرب التوبة وتحسوا الماء ، الشلوج ، وهي راضية

فرحة. حتى إذا جاء وقت المساومة وعرض عليها اثنين . فارت واضطربت وسمعت أن تنصرف . ثم تصلح الأمور بينها وبين البائع ، وإذا هي تنصرف راضية بشئها الجليل والبائع يشعيا بهذه الكلمة المأثوقة : « مبروك » .

وانظر إلى بنات الباشا وقد أقبلن من المدرسة تلهيات مغرورات في ثيابهن التي تريد أن تكون حديثة فلا تسكدن توقع . وهن ياكلن الملب ويقعدن فيا سمعن من درس الجغرافيا ويمجرون أقدامهن جريا .

ثم انظر إلى هذه الفتاة التي قرأت كثيرا وسمعت كثيرا عن سويسرا ، فكيفت بها وهامت إليها . ولكنها لا تستطيع أن تعبر البحر . فهي تخلق لنفسها سويسرا في الإسكندرية ، تخلقها مرة هذ ومرة هناك . تعيش مع الخيال . وتمضى معه إلى آفاق بعيدة كل البعد ، ويكره أن يبق من هذه الأحلام أو أن تُرد إلى الحق . متى انتبه الناس بالحق ! وهل سمع الناس إلا يتناخ الخيال ! وانظر إلى صورة هذه المرأة التي تعمل الجردة على رأسها . وهذه الأخرى التي تملأ صفيحة المارول من القنافة .

وانظر إلى فتاة المحمودية ، وإلى هذين الحياتين المختلفتين أشد الاختلاف واللتين تقومان على جانبيها : إحداهما مصرية ريفية حاضرة ، والأخرى أوربية مختلفة شديدة الاختلاط ، إحداهما ساذجة كال الساذجة ، والأخرى معقدة كال التعقيد . هذه العصور وكثير من أمثالها هي التي تعكسها مرآة الآاسة جان أرقش من مناسير الحياة المصرية . وهي كما ترى ، صادقة كلها ، جميلة كلها . وكل كنت أحب أن أحدث إليك عن جمال الكتاب من ناحية لغته وأسلوبه . وما فيه من هذه الموسيقى الهادئة الساحرة التي لا تخلو من مرح يضطرب فيها بين حين وحين . ولكن هل لي بجمال هذه الصور من سبيل إلا اللغة وجمالها وإلا الأسلوب وروعته ، والاهذا الفن الأدبي الذي يعرض عليك المناظر المأثوقة وكأنها طريقة من الطرّف !

أرأيت إلى هذه الآثار المصرية التي تستكشفها الجامعة في بعض قرى الصعيد



وحتى تصور مصر من حياة بعضها مصرى خالص . وبعضها مصرى متأثر باليونانية  
إلى حد قريب ، وبعضها مصرى مفرق فى اليونانية وإغراقا . هذه الآثار مرآة صادقة  
لحياة مصر منذ انقضت بالعالم الخارجى . ويظهر أن مصر ستكون لها  
فى جميع عصورها مرآيا من هذا النوع ، وكتب الآنسة جان أرفس من أجل  
هذه المرآيا وأصنافها .

لتصديقى وزارة المعارف . هذه الكتب التى تحدث عن مصر  
درسية والإنجليزية حديثة صادقة جميلة هى أجدر الكتب بعناية الشباب فى  
المسارس الثانوية .

## تاج البنفسج

لم يتبع لي أن أشرف بقا، السيدة «جوزيه صيقل» إلا مرتين اثنتين. تحدثت في أولهما خمس دقائق لا أكثر ثم أقبل وزير التقايد فانقطع الحديث. وصاقتها في المرة الثانية فهديت إليها تحيتي وتلقيت منها تحبتها. ثم أقبل بعض الزائرين فانقطع الحديث. وما أظن أن تبادل التحية بيننا قد استغرق أكثر من دقيقة واحدة. وإذا فانا أنجز الناس عن أن أعجب أو أصور حديثها فضلاً عن أن أصف نفسها أو أصور مزاجها الفني أو أشخص للقارىء هذه الطبيعة التي يغنى بها الناقدون حين يكتبون عن الأدباء.

والسيدة جوزيه صيقل أدبة بارعة. ما في ذلك شك. يعرف ذلك من تحدثت إليها فطال الحديث. ومن استمع منها فطال الاستماع. ويعرف ذلك من قرأ فصولها الأدبية التي تكتبها في نظام كل أسبوع في جريدة «الريفورم». ومع أني لم أتحدث إليها ولم أستمع لها. ولم أقرأ كثيراً من فصولها الأدبية. فقد تخيلت إلى أني قادر على أن أصف مزاجها الفني، وأصور طبيعتها الأدبية تصويراً مقارباً كل التقاربة إن لم يكن دقيقاً كل الدقة. لا شيء. إلا لأنني قرأت منذ أيام هذا الكتاب الصغير الذي جعلت اسمه عنواناً لهذا الفصل.

وربما كان هذا العنوان نفسه كافياً لإعطاء صورة دقيقة وإن كانت موجزة كل الإيجاز هذه الطبيعة الأدبية التي أملت فصول هذا الكتاب على قلم السيدة جوزيه صيقل. فتاج البنفسج لفظ عذب في العربية، وهو في الفرنسية أشد

ندوبة ، وهو في الفتيق يثير أمام القارئ صورة أقل ما توصف به أنها شعر كلها ،  
 ولكنه شعر متخير لا يأتي عفواً ولا يصدر عن الإلهام الذي لا جبد فيه ولا يتسدر  
 من جهد يسير وعمل سهل ، ولا يمكن أن يكون نتيجة لمد اليد إلى كبار  
 الأزهار ، وضخامها ، حتى إذا اجتمعت منها طائفة أنشأ منها تاج جميل . إنما هو  
 في حاجة إلى أناة وروية ، وعناية وتفكر ، وحن اختيار وحن تنسيق  
 وحسن ملازمة . ويكفي أن تنظر إلى هذه الزهرة الجميلة الحلوقة الدقيقة التي  
 مث من حولها أرجاء حنواً مثلها ، دقيقة ، مثلها . نقاداً إلى أعماق النفس في حلاوته  
 وبقته . يكفي أن تنظر إلى هذه الزهرة الدقيقة الجميلة ، لتقدر إلى أي حظ  
 من العناية والرعاية والحب والمطلف والتفطيف تحتاج لتقطيعها ولتقطيع أخواتها ،  
 ونجمع بعضها إلى بعض ، ولتلائم بين بعضها وبعض . ولتكون منها ومن  
 أخواتها الدقائق الحسان العذاب تاجاً جميلاً دقيقاً حنواً من البنفسج . هذا  
 النوان نفسه يعطى صورة من المراج التي لمسيده جوز به صيقلي : فهو مزاج أدبية  
 رفة ممتعة في الترف ، لا يرضيها الفن اليسير القريب ، ولا يقنعها المطامع المسهلة  
 الآنية ، ولا ترضى عن الفن حتى يكلفها الجهد والعناء ، وحتى يخرج من هذا الجهد  
 والعناء خلافاً جميلاً محبباً إلى النفوس والقلوب . وهو مزاج أدبية لا ترضى من  
 الفن بهذه الروعة الرائعة الغليظة التي تبهر وتسحر وتطلب قبل أن تنفذ إلى النفوس  
 وتصل إلى أعماق القلوب . وإنما هي تستأن في التماس الفن ، وتسعى إليه سعي  
 الترف الذي يتذوق على مهل ، والذي يكره السرعة والتعجل . فإذا انتهت من  
 الجمال الفني إلى ما تريد بعد الجهد والأناة ، لم تنتهم التهاماً ولم تردده لزدراء ،  
 وإنما تأنت في تذوقه وإساغته كما تأنت في طلبه والسعى إليه . ثم إذا أرادت  
 تصوير ما أحست . وهمت أن ترد إلى الناس من جمال الفن ما جنت ، لم تسرع  
 ولا تتعجل ، وإنما تأنت في الإنتاج كما تأنت في الطلب وكما تأنت في التذوق .

وهي لا تريد أن تسحر قراءها في سرعة . ولأن تبهرهم في عجل ، ولا أن تحطأ  
نفسهم خطئاً ، وإنما تؤثر أن تسمى إلى نفوسهم سعيًا هيناً ، وأن تسميها مسأرة رقيقة ،  
فإذا فعلت فقد ملك قلبها النفوس واستثمر أديها بالقلوب .

بهذا كله يوحى عنوان هذا الكتاب ، وبهذا كله أوحى إلى عنوان هذا  
الكتاب ، ولكني رجل متردد موسوس في الأدب ، إن صح هذا التعبير ،  
لا أستسلم للنظرة العاجلة ، ولا أؤمن للأفعال السريع ، ولا أعتد على التأثير الأول ،  
ولا يتعدنى جمال العنوان ، وإنما أبحث عما وراءه ، وأبحث مع شئ من سوء الظن  
غير قليل ، وهل يمتاز الناقد بشئ كما يمتاز بسوء الظن ! وهل تصدق الناقد الذي  
يستحق هذا الاسم إن زعم لك أنه يقرأ ما يقرأ من الآثار بحسبها الظن مصطفاً  
فيها التفاؤل ! كلا ! الناقد سيء الظن قبل كل شئ ، وسوء الظن غير سوء النية ،  
فأنا أقرأ ما أقرأ ويني حسنة كل الحسن خالصة كل الخلوص ، وفلنى سيء أشد  
السوء . أقرأ وإنما أنتهم الكاتب الذى أقرأه ، وأخافه على نفسى ، وأشفق أن  
يتعدنى وأن يسحرني بصناعته ، وأحرص الحرص كله على أن أحفظ بكل  
ما أستطيع أن أحفظ به من النظرة ، لأراقب ما سيطرة الكاتب في نفسى من  
الآثار ، ولأحلل هذه الآثار . وأردّها إلى أصولها ، وأصدر في حكمي عليها عن  
شعور صادق وروية غير غافلة .

فقد ارتببت إذاً بهذا العنوان ، وسلّحت نفسى بالحدز وسوء الظن قبل أن  
أمضى في قراءة الكتاب . ولم أكأ أقرأ المقدمة التى كتبها الأستاذ «فيلد نفوس»  
مدير المتحف الوطنى في أثينا حتى انقسمت ابتسامة لا تصور الرضا ، وإنما تصور شيئاً  
من الشك والارتياب : فقد رأيت الأستاذ في مقدمته مفتوناً بجمال الكتاب ،  
تدفه قننته إلى أن يسخر في غير رفق بأعمال العلماء والباحثين الذين تناولوا بلاد

يونان بالبحث والدرس : لأن هذه الأعمال جافية لا تثير في النفس شراً ولا  
حسناً ، على حين يثير هذا الكتاب الشعر كله والجمال كله .

ابتسمت لهذه المقدمة ابتسامة الشك المرتاب : لأنني صديق لأعمال العلماء  
باحثين عن بلاد اليونان ، ولأنني أقرؤها وأؤمن في قراءتها فلا أجد فيها حياء  
ولا غلظة ولا نبوءاً عن الشعر والعين : لأن بلاد اليونان القدماء لا يمكن أن تثير  
شأ غير الشعر والجمال ، مهما يكن الذين يتناولونها من العلماء والباحثين أو من  
الأدباء وأصحاب الفن . ومهما يكن من شيء فقد استقيت هذا الكتاب سيئ  
الظن به ، سيئ الاستعداد له ، ولكنني لم أستبق سوء الظن ولم أستبق سوء  
الاستعداد . لماذا ؟ لأن الكاتبة كما قلت إنما ليست من الأدباء المتسرعين الذين  
كثفون بيد اليد وقطفت الزهرة ، وإنما هي من أصحاب المنهل والأناة ، وحسن  
التخير والانتقاء . ولخصلة أخرى لم أذكرها ، ولكنها خليقة بالعناية ، لأنها تكمل  
صورة الأديبة لهذه الكاتبة ، وهي أنها متواضعة لا تريد أن تفهمك ولا أن تهرك ،  
ولا أن تفرض نفسها عليك فرضاً ، ولا أن تلقى إليك أثرها الفني على أنه أجل  
الثمار وأخلفتها بالعناية وأجدرها بالبقاء ، وعلى أنه السكينة الأخيرة التي لا كلام  
بعدها لمتكلم ، والقول الفصل الذي لا مقال بعده تمثال . وإنما هي إسان متروك  
هف الذوق والحس والشعور ، يتلقى الجمال فيثمر به ، وذوقه ويسمعه ويتشبه ،  
ثم يردّه إلى الناس في دعة وهدوء وشي . من التردد والاستحياء ، كأنه يشفق من  
أن يظهر نفسه ، وكأنه يود لو استطاع أن يحتفظ بما أحس من جمال وفن فلم يظهر  
عليه أحداً . ولكن الأديب مكره على أن يعلن ما يحس ويكتب ما يجد .

أعجبني هذا التواضع ، وأعجبني هذا الحياء الذي يتردد في هذه الفصول فيملؤها  
غذوبة ويجلبها إلى النفس . وقرأت هذا الكتاب بعد ذلك وأنا أشعر بأنني  
لا أقرأ لخصم من الخصوم ، وإنما أقرأ لصديق من الأصدقاء : فإني أجد خصم للكاتب

دائماً ، وتستند الخصومة بينه وبين الكاتب حين يكون الكاتب مؤمناً بفنه مسرفاً في هذا الإيعان ، جاداً في أن يفرض نفسه وأثره على قرائه وناقديه . فإذا كان الكاتب متواضعاً معتدلاً المزاج عذب النفس ، كسب ناقده شيئاً فشيئاً ، وبما هذه الخصومة محوياً ، ويخيل إلى أن السيدة جوزيه صيقل من هؤلاء ، الكاتب الذين يكسبون في سهولة ويسر صداقة الناقدين .

قرأت هذه الفصول فأعجبني ، ولكنها لم تخرجني عن طوري ، ولم تدفعني إلى هذا الرضا العنيف ، وإنما أعجبني في هدوء وأرضيتني رضا غير نافر . أعجبني هذا الإعجاب الذي يبد للنفوس لذة وادعة متصلة دون أن يصرفها عما تراول من الأمور . وما الذي أعجبني من هذه المصولة ؟ أعجبني منها موضوعها قبل كل شيء ، فهو أحاديث عن بلاد اليونان ، وأما مشغوف بكل ما حصل ببلاد اليونان . لأن حوى لهذه البلاد لا يتقصى ، ولأن إعجابي بها لا حد له ، ولأن وفائي لها هو وفاء الابن البكر للأم الكريمة الزويم . وكل إنسان مثقف في هذه الأرض فهو ابن لهذه البلاد الخالدة ، سواء أرضى ذلك أم لم يرضه .

وأعجبني من هذه الفصول حديثها عن بلاد اليونان نفسه ؛ لأنه يصور هذه البلاد تصويراً است أدري أقرب هو أم بعيد ، ولكنه تصوير يلائم ما حفظته نفسي من هذه القراءات الطويلة المتصلة التي أنفقت فيها أعواماً حول بلاد اليونان . فبلاد اليونان موسيقى ، بل هي الصورة العليا للموسيقى ، قوامها التلاوة والانسجام بين الأشياء التي تختلف في أنفسها . وحديث السيدة جوزيه صيقل عن هذه البلاد موسيقى هو أيضاً ؛ لأنه يلائم بين أشياء تختلف في أنفسها فيحسن التلاءمة ويحقق الانسجام . فالسيدة جوزيه صيقل لا تتحدث عن قديم اليونان وحده ، ولا تتحدث عن جديد اليونان وحده . ولا تتصور لليونان قديماً وجديداً تكون بينهما الفارقة والاختلاف ، وإنما تتحدث عن اليونان الحية الخالدة الجميلة جمالا حياً

البدأ متصلاً. فالطبيعة اليونانية حية الآن كما كانت حية أيام اليونان القدماء ،  
تجوز فيها نفس النشاط الذي كان يجري فيها منذ خمسة وعشرين قرناً. وآلة  
اليونان على اختلافهم في الطبقة والمهنة والعمل والنشاط لم يموتوا بعد ، ولكنهم  
يزالون أحياء في هذه البلاد التي أنشأهم . قد أصاب معابدهم وتماثيلهم  
أصابتها من ريب الزمان وعالية الخطوب ، ولكنهم على ذلك ما يزالون أحياء  
في هذه الطبيعة اليونانية الخالدة : لأنهم قوامها ومزاجها ومصدرها ، ولأن آثارهم  
ما جاز عليها الدهر ليست إلا مظاهر قد تتغير قليلاً أو كثيراً دون أن يتغير  
أوهها ودون أن يسوها أو يسوها ما يصيبها من التغير والاضطراب .

وأعجبني من هذه النصول ما تصور من هذا الحس القوي الدقيق الذي يبعث  
في الأشياء حياة ونشاط ، فإذا هي تحرك وإن كانت ساكنة ، وتتكلم وإن  
كنت صامتة ، وتشكو وتبكي وإن كانت لا تمن شفقة ولا ابتهاجاً . أعجبني  
في المثال الخزين في سذاجة وهذو ، وحسرة فيها حنونة وادعة ، كأن عادياً  
دياً قد عدا على صاحبه فغصب لعبتها العزيزة ، أو كأن حباً عقيماً محروماً يعذب  
فيها البرى . أعجبني تصوير «الأكروبوليس» حين تقدم النهار ودنا الأصيل  
واختلفت عليه ألوان الضوء ، فأنشأت منه ومن مظاهر الطبيعة التي تحيط به  
من قريب أو بعيد صوراً لا أقول إنها رائعة ولكن فتاة ساحرة مستأثرة بالقلوب  
والنفوس ، مثيرة للحب والعطف . وهذا الجمل الموسيقي الذي لا يعرف ضعفاً  
ولا فتوراً ولا انحلالاً . أعجبني تصوير «أدلف» وما خلعت عليها الطبيعة والتاريخ  
من جمال وجلال وسذاجة حلوة . ثم أعجبني في فصول الكتاب كله هذه الملازمة  
الحسنة بين القديم والحديث ، بين السلف والخلف . بين التاريخ الذي كتب  
والتاريخ الذي يكتب .

وهل أقول أعجبنى الأسلوب الأدبي في الكتاب ؟ وهل أقول أعجبنى صفاء  
اللغة وثقاؤها وتخير المفرد الفرنسي على أجل وجه وأدق وأصفاء وأقدره على تصوير  
الحس الدقيق والتذوق المزهف . والنفاذ إلى القلوب في غير محاولة ولا جهد ؟  
ولم لا أقول ذلك وأنا لا أعدو الحق إن قنته ! نعم أعجبنى هذا كله ، وأحسست  
مع هذا الإعجاب شيء غير قليل من الأمل والخيار : لأنني لا أعرف شيئاً  
كتب عن بلاد اليونان في لغتنا العربية يشبه هذا الكتاب الصغير الجميل .  
ومع ذلك فالصلة بيننا وبين هذه البلاد في جميع العصور التاريخية خليقة أن  
تدفعنا اليها وأن نعمل على العناية بها والكتابة عنها . ومع ذلك فما أكثر الذين  
يزورون بلاد اليونان منا في هذه الأيام !

ما بال هذه البلاد منهم الأوربيين أجل ما تنطق به الألسنة وتجري به الألام  
ولا نلهمنا نحن شيئاً ؟ ألا هم معرضة عن نحن وحيث عابنا لا أم لأن قلوبنا مغلقة  
ونفوسنا جامدة ، وفي أصدع وعبوسنا ما يحول بيننا وبين إحساس الجمال وتذوق  
الفن والاستماع لوجيها الخالد ؟ !



## سلى وقرتها

كتبه باللغة العربية • مدام أى خير •

## أهل الكهف

كتبه باللغة العربية • توفيق الحكيم •

ليختصم أنصار الجديد وأنصار القديم ما وسعته المصومة . وما وجدوا من  
أعسهم قوة على احتمال ألقاها ، والمعنى فى تحتاج إليه من الجهاد ؟ فإن الزمن يمضى  
فى سبيله رغم خصامهم وصلحهم . وهو لا يمضى وحده . ولكنه يدفع أمامه قوماً منا ،  
ويجر وراءه قوماً آخرين . وهو منته ثلاث وهؤلاء إلى حيث يريد هو من  
التغيير والتطور والتجديد . لا إلى حيث يريدون هم من الوقوف والجود والإصرار  
والحفاظ على القديم كل القديم .

ولقد خطرت لي هذا بعد أن فرغت من قراءة ما يشره أصدقاؤنا فى « الرسالة »  
حول التجديد وأنصاره . وحول الحفاظة وأنصارها . وقد فرغت أيضاً من قراءة  
مطابقة من هذه الكتب الكثيرة التى أظفرتها الشهور الأخيرة ، التى تجتمع أمامى  
وإداد من يوم إلى يوم . وتلج على أن أفرغها وأجلس إليها وأنظر فيها ،  
فأصرف بها عما يحيط بى من ظروف الحياة التى أعمل فيها كل يوم .

نعم ! فكرت فى هذا ، وقد فرغت من قراءة بعض هذه الكتب . فإذا نحن  
نحسم فى الجديد والتقديم ، ونسرف فى المصومة . وتعلق فى التفسير والتأويل .  
على حين يدفعنا الزمان فى طريق التجديد دفعا لا سبيل إلى الإفلات من قوته .  
ولكننى وقتت عند ظاهرة لعلها تستحق أن يقف عندها النقاد والمفكرون ، وهى  
هذا الشكل العقلى الفنى الذى تأخذه العصبية بين الشرق والغرب فى هذه الأيام ،

فقد كنا منذ حين متأثرين بالغرب ونسعى إليه ونشتس منه ونريد أن ننقله إلينا  
 صرح هذا التعبير . وكان هذا السعي يعني شخصيتنا أو يكاد يعنيها ، فإذا نحن  
 غربيون في تفكيرنا وتصويرنا وحياتنا عقولنا وقلوبنا ، وإذا حظوظنا تختلف من هذم  
 الغربية قوة وضعفها : منا من يحسن التقليد ومن يسيئه . وكان ضعف شخصيتنا ههنا  
 يبعثنا إلى المحافظين من أهل الشرق ويزعدهم فيه . وكان يثير في نفوس المجددين  
 من أهل الغرب حياءنا بنسبة العطف والإشفاق . وكنا نضيق ببعض أولئك  
 وحب هؤلاء ، ونسعى لو نقف من أولئك هؤلاء موقفاً طبيعياً لا حرج فيه ولا  
 تكلف ولا ضيق .

كذلك كانت حال كتابنا وشعرنا في هذا العصر الحداثي حين كانوا يريدون  
 التجديد أو يذهبون إليه . ولكن الأمر تغير في هذه الأيام . فتوالت شخصية الكتاب  
 والشعراء حتى آمنت بنفسها وآمن بها الناس من حوفا في الشرق والغرب جميعاً ،  
 وأصبح كتابنا وشعراؤنا ينشئون الشر ويقرضون الشعر فلا يترؤف عنهم كثير من  
 المتتبعين حقاً في الشرق ، ولا يفرق بهم أهل الغرب ، وإنا نجبرهم أولئك فيقرضونهم  
 ويخلصون لهم التمسح والتقد والتعجب ، وقدرهم هؤلاء فيدرسونهم ويقيمون  
 الآماد التي تعلوها في سبيل التجديد والاحتيال بالحضارة الغربية . والتكئين هذه  
 الحضارة في بلاد الشرق . دون أن نغني شخصياتهم أو يصيبها الضعف والفتور .  
 وأغرب من هذا الذي تراء حين نقرأ ما يكتبه «جيب» و «كغمير» وغيرهم  
 عن كتابنا وشعرنا . إنك تلاحظ في هذه الأيام أن من أهل الشرق من يتصفى  
 الغرب حتى كأنهم من أهله ، فيتحدثون إليه بلغته ويفكرون كما يفكر ، ويشعرون  
 كما يشعر ، ويشاركونه بهذا في إنتاجه الأدبي الخالص . ويصدرون كتبهم حيث  
 يصدر الغرب نفسه كتبه في نادرة أو بآريس ، وإذا هذه الكتب تصل إلينا من  
 عواصم الغرب فتلقيها كما كنا نلقى الكتب الغربية من قبل ، وتتناولها بحفا

تتناول به كتب الغرب من نقد وتقريض . وترى بعض أهل الشرق يمثلون  
الرب ويسلمونه ويهضمونه إن صح هذا التعبير ، ويذبحونه في أنفسهم ، ويعلمون  
شخصيتهم عليه ويعتدون قوميتهم به . ثم يتحدثون إلينا بلسان مبدية ، ويفكرون  
بنا بطرائق تفكيرنا مضافة ، قد أضيفت إلى ثروتنا ثروة أخرى فأخصبت وآتت  
ناحية ونستعذبه ونستزيد منه فنتاج في الاستزادة .

وكذلك يتصل الشرق بالغرب اتصالاً عقلياً وفنياً بعد أن كان الاتصال بينهما  
تقليدياً ، وكذلك ستقدم في التجدد خطوات واسعة قيمة مغنية حقاً ، فتضيف  
إلى ثروة الغرب كما يضيف الغرب إلى ثروتنا .

وأنا أريد أن أتحدث إليك الآن عن كتيبتين يمثلان هذه الحال التي وصفتها  
من الاتصال المتكافئ الكريم بين الشرق والغرب . فإما أحد هذين الكتائين  
التي كتبت بالفرنسية . وإما الآخر قصة كتبت بالأمريكية . أول الكتائين قصص  
الصحراء ، والآخر قصص تسمى . أول الكتائين لسيدة لبنانية هي السيدة أمي خير ،  
والآخر لكتاب مصري هو الأستاذ توفيق الحكيم .

أما كتاب مدام خير فهو : « سمي وقرينها » ، سمعنا عنه منذ أكثر من عام  
وأحدثت إلينا صاحبه بخلاصته . وفازت علينا بعض قصصه في محاضرة ألقاها مدام  
في ربيع عام في قاعة من قاعات الكونغرس حيث يجتمع أصدقاء الثقافة الفرنسية  
في يوم الجمعة من كل أسبوع أثناء الشتاء . وكنا قد أجبنا مدام عن هذا الكتاب  
ومن الحديث عنه . ومبدأ أنفسنا سمعنا لمدّة تقضيها معه بعد أن يتم طبعه  
وعود إلينا من باريس في ثوبه الفرنسي الجديد . ولكنني شديد الاحتياط ،  
أستأذن الظن بنفسى ورأى ولا أطمئن إلى هذه الأحكام العجلية . ولما أتت أخيراً  
أستأذن الظن بما أحسست من رضا عن هذا الكتاب في العام الماضي ، وأشفت  
أن يكون مصدر هذا الرضا راحة مدام خير في المحاضرة وحفظها من حسن الإلقاء ،

وقد رت أن الخير أن أنظر حتى يصل إلى الكتاب فأقرأه بعيداً من صاحبه ومن صوتها العذب وحديثها الجليل .

ووصل إلى هذا الكتاب منذ أسابيع . خلوت إليه ساعات ، ولست أخفي أنى رضىت عنه رضا كثيراً . وأعجبت بفصول منه إعجاباً عظيماً ، ووفقت عند فصول أخرى وقفة من يشعر بشئ من الرضا لا إراف فيه .

موضوع الكتاب ظاهر من عنوانه : فهو قصة فتاة لبنانية ، وتصوير للقرية التي عاشت وماتت فيها . والمؤلفة نبينا بأن كتابها صورة فتوغرافية لسمي وقريتها . وقد يكون هذا حقاً بل هو حق . وهو في الوقت نفسه مصدر فضل الكتاب ، ومصدر شئ مما يلاحظ عليه . وكما كنت أود لو أن هذا الكتاب لا يكن صورة فتوغرافية . بل كان صورة فحسب ، صورة من عمل الإنسان لا من عمل الآلة الفتوغرافية . صورة تظهر فيها شخصية الكاتبة ظهوراً واضحاً تأتس إليه ويستعين على إسائة هذه الحقائق التي يشتمل عليها الكتاب . ولكن القصة كانت كما أراد . مدام خير صورة فتوغرافية : وممتازة بالصدق وامتنان بالدقة ، وفقدت شيئاً كثيراً من الحياة والتأثير .

ليست القصة غريبة ولا طريفة ، وإنما هي شئ مألوف نكاد نقرؤه في كل كتاب . رأستظر الله — نكاد نقرؤه في كتب كثيرة ألقت في القرن الماضي ، ونكاد نجد في كل كتاب من كتب الأدب العربي حين يتحدث عن العشاق الذين يضلهم الحب حتى يسلمهم إلى الموت . فقد أحببت سلمى فتحي من قرية مجاورة لقريتها في شمال لبنان . مرض أبوها وقمت أبا على تمريطه ، وانفردت هي بالذهاب إلى المزرعة ، فلقيت فيها هذا الفتى النور المتفقد (مضى الشئ) . فأن الفتى إليها وماتت هي إليه . ثم تحدثا . ثم عرف كل منهما أمر صاحبه ، ثم ملا الحب قلب الفتاة وملاك عليها نفسها . ثم برى الأب من مرضه وانقطع لقاء الحبين ، فكانا

تتلسن ساعات ينتقيان فيها ، ثم ظير الألب على بعض الأمر ، فغضب الفتاة وذهب  
 إلى القتي ويعرض عليه الزواج ، فاعتذر ، وأرسله معه إلى مصر يلتبس فيها الثروة  
 ويدد فيها حبه على ضفاف النيل . وأصيب الفتاة حزن عميق كان الأمل يخففه  
 ، وبضاغفه أحياناً ، ثم كان اليأس ، ووزجت الفتاة من شاب كان يكاف بها ،  
 ثم ولت أن تخلص له ، وجدت في ذلك ولكنها لم تستطع أن تخلص من حبها القديم ،  
 فضع قلبها وجسمها عن الود ، بحب الأول والإخلاص حب زوجها ، فبأخذها  
 من ما يزال بها حتى ينقذها من هذه الحياة .

فأنت ترى أن ليس في القصة شيء ، غريب مستكر ، ولكن جمال القصة مع  
 ذلك شيء لا سيال إلى المثلث فيه . ومصدره في بظير هذا التصوير الفونوغرافي  
 الذي ينقل إلينا قرية من قرى لبنان وما فيها من حياة محب سذاجتها ووداعتها ،  
 وادها الطبيعي الذي لم يفسده التكيف وما يشوهه الإغراق في الحضرة ، والذي  
 يخرج فيه الأيمان الخاص الحر بالحياة المخاضة الحرة . ثم أو تحب هذه الحياة التي  
 فيها النشاط المنتج في فصل العمل ، وتمتوذه الراحة الأدوية في فصل السكون ،  
 والمناخ أيضاً هذا النوع من العشق الذي يبعث من القلب الإنساني في غير  
 : نافع ولا ترف ولا تأثير فلسفة العقل وتبها لك على المحث والتحليل والاستقصاء .  
 ثم نحن نحب بعد هذا كله وفوق هذا كله هذه الصور الفونوغرافية لطبيعة لبنان في  
 أشكالها المختلفة : هذه الجبال الشاهقة يكسوها الجليد إذا كان الشتاء ، ووريتها  
 الزرع بالشجر المخضر . وهذه الأودية التي يجدها الإنسان جهداً عتيقاً ليستخرج  
 منها القوت الذي يستعين به على الحياة ، وحب اللبنانيين القوي الصادق الساذج  
 لطبيعتهم وجبالهم وأوديتهم ، حتى إنهم أيقننون بها فتنة تجعلهم جميعاً شعراء .

والغريب من أمر هذه القصة أنها ليست صادقة في تصوير موضوعها وحده ،  
 بل هي صادقة في تصوير ناحية من نواحي الكاتبة نفسها ، أريد بها ناحية المهارة

الفنية : ففي أولها شيء من الضعف والبطء واستقصاء اللغة ، كأن الكتابة تجاهد في نفسها بعض الشيء ، حتى إذا مضت في القصة مرحلة أو مرحلتين أصبح قلمها طليماً ، وألقت إليها اللغة الفرنسية أعنتها واستقاد لها الأسلوب الفرنسي ، فانطلقت حرة سميحة كأنها قد أتت التمرين : لهذا كان آخر الكتاب خيراً من أوله . ولهذا كان من حقنا أن نشق بأن الكتاب الذي ستصدره مدام خير سيكون خيراً من الكتاب الذي أصدرته . وإذا لم يكن بد من أن ألاحظ بعض العيب قد آسف لأن شيئاً من التهاون في اللغة لم يبرأ منه الكتاب : فقد استعملت ألفاظ عامية مبتذلة لا ينبغي أن توجد في كتاب أدبي إلا أن ندعو إليها التكنة . ولعل من أوضح الأمثلة لذلك ما يوجد في صفحة ٧٣ و ١٥٠ . وجملة القول أنا مدينون لدام خير بساعات للذيده قيمة فضيلاتها مع هذا الكتاب الممتع . ولكن ألمنا أكثر جداً من رضائنا ، فلنشكر لها جهدها الأول ونهشهاه ، ولنتنظر من جهودها المقبلة خيراً كثيراً .

\*\*\*

أما قصة ( أهل الكهف ) فحدث ذو خطر ، لا أقول في الأدب العربي المعاصر وحده . بل أقول في الأدب العربي كله . وأقول هذا في غير تحفظ ولا احتياط ، وأقول هذا مفتطاً به مبهجاً له . ولبي محب للأدب العربي لا يقتبط بها ولا يتهيج حين يستطيع أن يقول وهو واثق بما يقول إن هذا جديداً قد نشأ فيه وأضيف إليه ، وأن باباً جديداً قد فتح للكتاب وأصبحوا قادرين على أن يلجوه ويتقوا منه إلى آفاق بعيدة رفيعة ما كان يقدرون أنهم يستطيعون أن يفكروا فيها الآن ! نعم ! هذه القصة حدث ذو خطر يورخ في الأدب العربي عسراً جديداً . ولست أزعم أنها قد حققت كل ما أريد للقصة التمثيلية في أدبنا العربي ، ولست أزعم أنها قد برزت من كل عيب ، بل سيكون لي مع الأستاذ توفيق الحكيم حساب لعله لا يخلو من بعض العسر . ولكنني على ذلك لا أتروء في أن أقول إنها أول قصة

أعادت صنعت في الأدب العربي ، ويمكن أن تسمى قصة تمثيلية حقاً . ويمكن أن يقال  
 بأنها أغنت الأدب العربي وأضافت تروية لم تكن له .. ويمكن أن يقال قد رفعت  
 شأن الأدب العربي وأتاحت له أن يشبث بالأدب الأجنبية الحديثة والقديمة .  
 ويمكن أن يقال إن الذين يعنون بالأدب العربي من الأجانب سيقرونها في إعجاب  
 خاص لا عطف فيه ولا إشفاق ولا رحمة لظننا الناشئة . بل يمكن أن يقال إن  
 الذين يحبون الأدب الخاص من نقاد الأجانب يستطيعون أن يقرروها إلى ترجمة  
 فيجدون فيها لذة قوية ، وسيجدون فيها متاعاً خاصاً ، وسيتنوع عليها ثناء عذبا  
 الذي يخصصه القاصص التمثيلية البارعة التي ينشأ كبار الكتاب الأوربيين .  
 أهذه القصة مصرية ؟ أهذه القصة أوربية ؟ .. ليست مصرية خالصة ، ولا أوربية  
 خالصة ، ولكنها مزاج معتدل من الروح المصرية العذب والروح الأوربية القوي ،  
 وقد يكون من العسير على غير المصين أن يعرفوا بين هذين الروحين اللذين تألف  
 منها القصة .

ولكن الذين لهم مشاركة قوية في الأدب العربي والأجنبي يستطيعون أن يتميزوا  
 هذين الروحين حين يجدون في القصة سهولة النفس وعذوبتها ، وحين يشعرون  
 بهذا الحبس الخفيف الذي يضطرم إلى الوقوف من حين إلى حين وهم يقرءون ،  
 وحين يجدون ألفاظاً وجملاً تصور النفس المصرية الآن كما صورتها في أزمان مختلفة  
 منذ كان المصريين أدب عربي ، ثم حين يجدون هذا التفكير العميق الخصب  
 الذي يُلج في التمسق وينهل في الدقة ، وبأنى أن تترك حقيقة من الحقائق  
 عرضة للشك أو هدفاً للموض . إلا أن يكون الكاتب قد تعمد ذلك وأراده  
 أن يرسل نفسه فيه على سجيته مراعاة لبعض الظروف .

كأن هذا يمكن النقاد من أن يبينوا في هذه القصة روحاً مصرياً وروحاً  
 أوربياً قوياً . ولتقف وقفة قصيرة عند موضوع القصة وشكلها .

فأما موضوع القصة فلا يختصه الكاتب وإنما استكشفه ، وفوق ظاهر بين الاختراع في الأدب والاستكشاف . ولعل الاستكشاف أن يكون أصعب من كثير من الأحيان من الاختراع ، وهو في قصتنا هذه صعب عسير . موضوع القصة موجود في القرآن الكريم ، وهو قيل أن يوجد في القرآن كان معروفاً في القصص المسيحية التي لها حظ من التقديس . ويمكن أن تعلم أنه حديث أهل الكهف الذين أشفقوا من اضطهاد ملك رومي للمسيحيين فروا بدريهم من هذا الملك الظالم وأووا إلى الكهف فناموا فيه ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، ثم بعثهم الله عز وجل ، فذكروا الناس وأنكرهم الناس . فعادوا إلى كهفهم ، وفيه قبضهم الله إليه .

وأنت تعلم أن هذه القصة قد نصها الله في القرآن في آيات كريهة هي أعذب وأسمى ما نعرف من آيات البيان العربي . وأنت تعلم أن من العسير أن تستغل مثل هذه القصة في أدب العربي الذي لا تعود في العصر الحديث أن يستغل الكتب الدينية استفلافاً كما تعود الأوروبيون أن يلتصقوا في الكتب المقدسة بموضوعات للقصص والتعريف والتشيل والنحت والنقش والتصوير والموسيقى . وإذ استطاع الأستاذ توفيق الحكيم أن يلتصق موضوع قصته في القرآن أوفى قصة فصلها القرآن ، وأن ينشئ في هذا الموضوع أثراً فنياً بديعاً كان خليقاً أن يشبع بشجاعته وبراعته معاً .

فموضوع القصة إذاً شرقي ، عرفته أحاديث المسيحيين وفصله القرآن الكريم . ولم يعرفه الأوروبيون إلا من هذه الطريق . ومؤلفنا إذاً كثيره من المؤلفين الأوروبيين الذين يلتصقون الموضوعات لتقصيهم التمثيلية أحياناً في التوراة والإنجيل . ولكن مؤلفنا كثيره أيضاً من المؤلفين الأوروبيين لم يحك حكاية ما عرفته أحاديث المسيحيين وما جاء في القرآن ، وإنما بعث في أهل الكهف حياة



بين أخرى فيها قوة وفيها خصب وفيها فلسفة تمكّنها من الاتصال بالحياة الإنسانية  
 القائمة على اختلاف المصور والبيئات من أنحاء غير الناحية التي غنى بها القرآن  
 ونسبت بها الأحداث المسيحية . وهو يدخل في هذه الحياة عناصر جديدة لم  
 تدخلها القصة القديمة ، أهمها عنصران : عنصر العلفة ، وعنصر الحب . فالفرق  
 الجوهري جداً بين هؤلاء الأشخاص كما يصورهم القرآن وكما تصورهم أحداث المسيحية  
 الشرقية في سداجة لأحدها ووداعة لأحدها وإيمان لأحدها ولا غبار  
 كالمسلم ، وبين هؤلاء الأشخاص كما يصورهم الأستاذ توفيق الحكيم ، وقد تعقدت  
 عندهم فتعقدت عقولهم أيضاً ، فتقد انان منهم هذه السداجة المطلقة ، والوداعة  
 المطلقة ، والإيمان المطلق ، ولم يحتفظ بهذه الخصص منهم إلا شخص واحد ، هو  
 علي خا الزاوي . وبهذا النحو من التصوير الجديد هؤلاء الأشخاص استطاع  
 الكاتب أن يجعلهم أبطال قصة تشيلية حديثة . ولو قد احتفظ الكاتب ثم  
 لم يلهم الأولى لما استطاع أن يتجاوز بهم أبطال قصص الأسرار التي كانت تمثل  
 في قرون الوسطى أمام الكنائس ، فالكاتب مستكشف تقصص في ظاهر الأمر ،  
 ذاك كنهه مخترع لها في الحقيقة ، قد خلق أشخاصها حقاً جديداً وأدار بينهم من  
 الحوار الفلسفي ما لم يكن يخطر لأحد منا على بال . وقد يكون من العسير أن تحقق  
 الفلسفة التي أراد الكاتب أن ينتهي إليها ، ولكن هذا العسر نفسه مزية من  
 عزاء الكاتب وفصيلة من فضائله : فهو ليس متعصباً ولا متأثراً بأفوى . وهو لا يريد  
 أن عرض عليك رأياً بعينه أو مذهباً بعينه من مذاهب الفلسفة ، وإنما يريد أن  
 يثير في نفسك التفكير في طائفة من الآراء والمذاهب . وهو دقيق متواضع لا يجب  
 أن يعلن رأيه في صراحة مخافة أن يتابعه ضعاف الناس في غير بحث ولا تفكير ،  
 فهو يكتبني إذاً بأن ينهيك إلى طائفة من المسائل يحسن أن تفكر فيها وأن تلتبس  
 لها الحل اعطك تفكيره أو تنتهي إليه . ما الزمن ؟ ما البعث ؟ ما الصلة بين

الإنسان والزمن؟ ما الصلة بين الحى والأحياء؟ بنى الملكتين يستطيع الناس أن يحيا وأن يتجوا في الحياة؟ بهذه الملكة التى نسميها القلب والتى بها نحب ونبغض. أم بهذه الملكة التى نسميها العقل والتى بها نفكر ونحفل ونلأم بين الأشياء؟

كل هذه المسائل خليفة أن تفكر فيها وأن تقف عندها فتطيل الوقوف والكاتب يشيرها فى نفسك، ويصطنع لذلك فناً بديعاً نادراً، فيه قوة مؤثرة وفيه رفق شديد. ليس هو معلم ولا أستاذ، ولكنه صديق يتحدث معك ويسارك ويخاطبك إلى ما قد تمر به دون أن تقف عنده أو تنظر إليه. لا أعرف كاتباً عربياً كان حسن السيرة مع قرانه كالأستاذ توفيق الحكيم: فقد أكرمهم حقاً، وأرشدهم حقاً، ونفعهم فى غير إلال ولا لية ولا كبرياء.

والحب! هذا الحب الذى أدخله الكاتب فى هذه القصة فى غير تكلف ولا عناية وفى غير مصادمة للشعور الدينى. والذى استطاع الكاتب أن يصوره صورته قويتين، تبلغ إحداها من القوة حداً لا يكاد نجد إلا عند أشد الكتاب والشعراء الأوربيين عناية بالمعنى وآماله ونداته على اختلافها وتنوعها. وتبلغ الأخرى بالحب قوة صوفية خاهرة برائحة من كل شئبة لا يكاد نجد إلا عند كبار المتصوفة والقديسين.

أعترف أنى معجب ببراعة الكاتب فى غير تحفظ وإلى غير حد. والحب الواقعة التى يحياها هؤلاء الناس العاديين الذين لا يتفكرون فى أكثر من أعمالهم اليومية والذين لا يتفوقون الفلسفة، ولا يحسنون تصورهما والحديث فيها، كيف صورها الكاتب فأتمن تصورهما فى شخص الملك ومن يحيط به من أهل القصر والمدينة. وهذا الإنسان المختلط الذى يمتاز به قوم يصطنعون العلم، ولكنهم فى حقيقة الأمر أنصاف متعدين، فيهم سذاجة ولكنهم يريدون أن يكونوا فلاسفة، وفيهم عقلة ولكنهم يريدون أن يكونوا أذكاء، وفيهم حب للحياة وحرص

أولئك، ولكنهم يريدون أن يظهروا وكأنهم يؤثرون الإيمان على الحياة . ما أبرع الأستاذ توفيق الحكيم حين صورته في شخص المؤدب غالياس !

أظنك لا تريدني على أن ألخص لك القصة فهي مطبوعة تستطيع أن تقرأها . يجب أن تقرأها ، فما ينبغي منقذ في الأدب العربي أن يجعل هذا الأمر في الدني البديع .

ولكن ! وما أكثر أسنى للكن هذه ! وما أشد ما أحييت ألا أحتاج إلى بيانها . ولكن في القصة عيبان : أحدهما يسوئني حقاً ، ومما أكره فيه الكاتب أن يؤدي إليه حقه من الموم ، وهو هذا الخطأ الشكر في اللغة . هذا الخطأ الذي لا ينبغي أن يتورط فيه كاتب ما فضلاً عن كاتب كالأستاذ توفيق الحكيم ، قد فتح في الأدب العربي فتحةً جديدةً لأسبيل إلى التفت فيه . ألا أكبر الأستاذ ، وأكبر رتبته ، وأكبر ( الرسالة ) عن أن أقف عند هذه الأغلاط القبيحة التي يمس بعضها من اللغة ، ويمس بعضها النحو والنصيف . ويمس بعضها الأسلوب وتركيب الجمل . وأنا أتحدث في أن أكون قسياً عتيقاً . وفي أن أطلب إلى الأستاذ في شدة أن يلقي من رقبته هذه الجميلة ، وأن يعيد طبع القصة مرة أخرى بعد أن يصحح ما فيها من الأغلاط . وأنا سعيد بأن أتولى عنه هذا الإصلاح إن أراد . ولعل ما سبقتكاه من الطبعة الثانية خليف أن يعظه وأن يضطره إلى أن يستولي من سوابه اللغوي في يكتب قبل أن يذيعه بين الناس .

أما العيب الثاني فلم يخطره ولكنه على ذلك يسير : لأن القصة هي الأولى من نوعها ، كما يقولون ، هذا العيب يتصل بالتمثيل منه : فقد غلبت الفلسفة وغلب الشعر على الكاتب حتى نسي أن للنظرة حقوقاً يجب أن تراعى . فاطال في بعض الموضع ، وكان يجب أن يوجز ، وقصّل في بعض المواضع وكان يجب أن يجعل ، وتعمق في بعض المواضع وكان يجب أن يكتبني بالإشارة . ولعله يوافقني على أن

من الكثير على النظارة أن يستمعوا في الملعب فذه القصة الجميلة جداً ، الطويلة جداً ، التي نقصها برسكا على غيلياس وهي تودعه وقد اعتزمت أن تموت في الكهف مع عشيقته المقدس .

هذا العيب عظيم الخطر لأنه يجعل القصة خلية أن تقرأ لأن تمثل . وإن حريص أشد الحرص على أن تمثل هذه القصة ، واثق كل الثقة بأن تمثيلها سيضع يد الأستاذ على ما فيها من عيب فني . وسيمكنه من اتقاء هذا العيب في قصصه الأخرى ومن إصلاحه في هذه القصة .

أما بعد فإني أرجو مخلصاً أن تترجم قصة مدام خيد إلى اللغة العربية ، وأن تترجم قصة الأستاذ توفيق الحكيم إلى اللغة الفرنسية . لتزدى القصتان ما ينبغي لولدياه من تحقيق الصيغة المنتجة بين الشرق والغرب .

## الى الأستاذ توفيق الحكيم

سيدى الأستاذ

لست أدرى أيعننى حقاً ويعنى أحمبى . أن تعرف رأى الجيل الجديد فى جهودنا  
التي وما أحدثنا من أثر فى حياة الأدبية الجديدة ؟ لأن العلم الصحيح رأى  
الذين لا سبيل إليه ، أو لا تكاد توجد السبيل التي توصل إليه ، أو قل إن  
الجيل الجديد نفسه قد يشق عليه جداً أن يصور لنفسه فينا رأياً صحيحاً مستقيماً بريئاً  
من هذه العواطف الحادة الجارحة التي تسيطر على نفوس الشباب ، وتؤثر أشد  
التأثير فيما يكوّنون لأنفسهم من آراء فى الكتب والشعراء المعاصرين . فهم بين  
أنه يجب يدفعه الإعجاب إلى الإغراق فى الثناء . وبين سخط يدفعه السخط إلى  
الإغراق فى الذم . وأكد اعتقد أن ليس من اليسر للكتاب أو شاعر أن يعرف  
رأى الناس فيه حقاً ؛ لأن هذا الرأى لا يظفر وأحياناً جليلاً بربط من تأثير العواطف  
والهواء والظروف ، إلا حين يصبح الكتاب أو الشاعر ودبة فى ذمة التاريخ .  
وبذلك فانا أشكر لك أجهل الشكر رأيك فى أحمبى وفى ، وثناءك على أحمبى  
وعلى ، وبسرهم كما يسرفنى أن يكون رأيك فينا صحيحاً . وأن يكون ثناءك علينا  
خاصاً من الإسراف فى الحب الذي يدعو إلى الإسراف فى التقدير .

أقد قرأت كتابك الممتع فترك فى نفسى آثاراً مختلفة ، ولكن أظهرها الإعجاب  
ببها التفكير المستقيم العميق ، وهذا الاطلاع الواسع الفنى ، وهذا الاتجاه الحصب  
إلى تعريف الروح الأدبى لمصر فى حياتها الماضية والحاضرة والمستقبلية . وقد دفعنى

إعجابي بكتابك القيم إلى ألا أختص به نسي . فأثرت به قراء الرسالة وأذعته فيها . وأنا واثق بأنهم قد رأوا فيه مثل ما رأيت . وحيدوا منه مثل ما حدث . وأثروا عليك مثل ما أثبت . وهو أن ينقشوا بعض ما جاء فيه من الآراء . كما أريد أنا الآن أن أناقشها .

ولست أدري أيقف أمر كتابك هذا عند إذاعته في الرسالة ووردي عليه ، أو يتجاوزها إلى مناقشة طويلة عريضة ، يشترك فيها كتاب مختلفون ومقادير كثير . فكتابك حقيق بهذه المناقشة : لأن أسلوب التفكير فيه جديد قيم . ومهما أفعل فإن أستطيع أن أسول كل ما أشعر بالحاجة إلى تناوله بالنقد والتحجيس من آرائك الكثيرة للشبانة التي أقمعت بها كتابك إقناعاً ، ولكنني ألق عند طائفة قليلة من هذه الآراء ، لا أستطيع أن أدعها تقضى من غير نقد ولا تعليق .

وأول ما ألق عنده من هذه الآراء رأيت فيها تسمية شؤون الفكر في مصر ، قبل الجيل الذي نشأ فيه . فقد ترى أن هذه الشؤون كانت كلها محاكاة وتقليداً وتأثراً للعرب ، واحتذاء خالصاً لمثلهم الأدبية ، حتى جاء الأستاذ الطنطاوي الذي فتح لنا طريق الاستقلال الأدبي . وفي رأيت هذا شيء من الحق ، لكن فيه شيء من الإسراف غير قليل . فليست أعتقد أن الشخصية المصرية محبوبة من الأدب المصري محوياً تماماً في يوم من الأيام . ولست أعتقد أن كلمة « أنا » لم يكن لها مدلول في لغة المصريين . ولست أعتقد أن المصريين كانوا في شبه إغناء حتى أقبل هذا الجيل الذي تحدث عنه ، فرد عنهم الحياة والنشاط . كل ما يمكن أن يصح لك هو أن الشخصية المصرية في الأدب كانت ذاتية ذليلة إلى حد بعيد في وقت من الأوقات لعلها يبتدىء . بآخر عصر المماليك . ولكن هذه الشخصية على ذوبها وفقرها لم تمت ولم تنم ، بل ظلت حية تتردد أشعتها الضئيلة في آثار الكتاب والشعراء والعلماء ، إلى أن كان العصر الحديث . ويكفي أن تقرأ الأدب المصري

في أيام المماليك وقبل أيام المماليك ، لتعلم أن شخصيتنا الأدبية كانت قوية منتجة ، كانت جذابة خلابة في كل فرع من فروع حياتنا المعنوية . كانت في الشعر بنوع خاص أقوى منها في هذه الأيام . وقرأ ديوان البهاء زهير فستجد صورته فيه واضحة ، ستجد نفسك فيه ظاهرة . وستجد عواطفك فيه ممتدة ، وستجد هذا كله أشد إلاء وقوة عند هذا الشاعر القديم منه عند شعرائنا المعاصرين . والأمور ليس بصورة على هذا الشاعر ، بل هو شائع في شعرائنا جميعاً قبل فتح القرن لمصر ، وهو كذلك شائع في كتابنا وعلماؤنا . ولو قد كانت شخصيتنا ضعيفة فانية وفاترة هية ، لما أتيج لنا أن نؤوي الحضارة الإسلامية ونحفظها من الضياع . حين أخذ انتشار والأوربيون عليها أقطار الشرق والغرب . وإذا تكن هذه الشخصية في عصور ضعف والوهن خفية ولا غامضة : فأت تجددها واضحة في شعر هؤلاء الشعراء المتأخرين الذين عاشوا في أول القرن الماضي وفي أثنائه . والذين لا تحب شعرهم ولا سبيل النظر فيه ، والذين يخيل إليهم كما وانقلدون فيسرفون في التقليد ، لكنهم يرغم هذا التقليد الشديد لم يستطيعوا أن يخرجوا مصر منهم ولا أن ينفوها . ست أستطيع أن أضرب لك الأمثلة هنا فذلك شيء لا ينتهي . ولكنني أؤكد أن أن حكمتك على هذه الشخصية المصرية في الأدب محتاج إلى التصحيح . وأنت تدبر على هذا التصحيح ، إن قرأت أدبنا المصري كما تقرأ الأدب العربي . وكما تقرأ الأدب العربي القديم . ستجد فيه تقليداً ، وستجد فيه بديعاً كثيراً ، ولكنك ستجد فيه نزعة مصرية واضحة تحبسها حيث ذهبت . وأنها وجهت من أرض مصر ، وتجدها عند المصريين المعاصرين الذين لا تخرجهم الثقافة الأوربية عن أطوارهم الخالقة ، في الشعور والتفكير . وفي النظر إلى الحياة والتأثر بها والحكم عليها .

هذه النزعة صوفية بمعنى الشيء ، فيها مزاج معتدل من الإبداع للقضاء والابتسام لتجاذب ، وفيها مزاج معتدل من حزن ليس شديد الظلمة ، ولا مسرفاً في العمق ،

ومن سخرية ليست عنيفة ولا شديدة المدح ، ولكنها على ذلك بالغة مقنعة .  
توضّح في كثير من الأحيان . ونفك نجد هذه النزعة نفسها قريباً جداً منك  
لعلك تجدها في أهل الكهف . حينئذ إذا لم يحدث شخصية مصرية لم تكن .  
وإنما جلا هذه الشخصية وأزال عنها الحجب والأستار . وحينئذ لم تمنحها الحياة .  
وإنما منحتها النشاط ، وزاد حظاً من الاستقلال . وغير وجهها فلقها إلى الأمام .  
بعد أن كانت تصر على الانحدار إلى وراء . وليس هذا بالشيء القليل .

وأنا مُقَنَّبٌ بآرائك في الفن المصري . وفي الفن الإغريقي ، ولكني لا أحب  
لك هذا الإسراع إلى استخلاص الأحكام العامة ، وإقامة القواعد التي لا تثبت  
للتقد والتحيص . وآية ذلك أنك أنت نفسك قد أحسست بعض هذا الإسراع  
فأصلحته حين قضيت على اليونان في أول الكتاب ثم قضيت ثم في آخره . وسرري  
أنك أسرعت في الأولى وأسرعت في الثانية . وكنت حليفاً أن تصطع الأناة فيه  
جميعاً . فليس من الحق أن اليونان كانوا أصحاب مدّة يس غير ، وليس من الحق  
أن روحية اليونان هذه التي أنكرتها في أول الكتاب وعرقها في آخره ، قد جاءت  
من إلههم ديونيزوس وحده ؛ فخط اليونان من الروحية قديم . تجده سناً في شعره  
القصصى في الألياذة والأودسا . قبل أن تظهر فيهم الآثار العنيفة لديونيزوس .  
وأنت تعلم أن ظهور هذا الإله عند اليونان متأخر العصر ، وأنه في أكبر الظن إلى  
أجنبي جاءهم من تراقيا . وأنه يعطيه هذه الحياة الروحية العليا التي نجدها عند  
سقراط وعند تلاميذه ، وعند أفلاطون بنوع خاص ، وإنما أعطاهم حياة روحية  
أخرى كلها تصوف وكلها صموح إلى عالم مجهول مختلط تحيط به الأسرار والأغاز .  
وتعبّر عنه الرموز والكتابات . وكان هذا النوع من الروحية ذا مظهرين مختلفين .  
أحدهما شائع مشترك يساهم فيه الشعب كله ، وأهل الريف منهم خاصة . والآخر  
مقصود على طائفة معينة ، هي هذه التي تتعلم الأسرار وتشارك في إقامتها وإحيائها .



كان دين ديونيزوس أشبه شئ ، بطرق الصوفية عندنا ، علمها الصحيح مقصور على خاصة المتصوفة ، ونشاطها العملي القبيح شائع في أفراد الشعب جميعاً . وقد كان لـ ديونيزوس في الأدب اليوناني قوياً عميقاً . وحسب أني إنه التمثيل ، ولكن روحية اليونان الخفية حقاً ، اشتارة حقاً ، التي أزعج معتدلاً إليك أنك لا تستطيع أن تجد لها شيئاً ، ولا مقاربات في مصر الروحية ، هذه الروحانية اليونانية تجدناها واضحة بلية عذبة ساحرة عند فلاسفة اليونان من تلامذة سقراط ، وعند أفلاطون بنوع خاص . ستقول كما قال كثيرون من قبل : إن أفلاطون قد زار مصر وأخذ منها ، است أنكر روحية مصر ، ولكني لا أعرف عمن شئت كثيراً ، وعلى مدين لميوان ، أعرفه من الروحانية المصرية . ومما يكن من شئ ، فأت توافقني على أن اليونان يكونوا أصحاب مادة غريب ، وما تهم روحيتهم من ديونيزوس وحده ، وإنما يونان مزاج معتدل من المادة والروح . هم الذين يحققون مثلك الأعلى من المزاوجة بين المادة والروح ، والملازمة بين الحركة والسكون . وبين التلق والاطمئنان ؛ لذلك كان اليونان هم الذين أخرجوا للإبسية في العصر القديم أرقى تراث في أدب والفن والفلسفة .

قلت إنني لا أنكر روحية المصريين . وأقول أيضاً إنني مؤمن بروحية الهنود . معترف بتأثير الروحانية المصرية والهندية في حياة اليونان . ولكني لا أعرف من روحية المصريين شيئاً كثيراً ؛ لأنني لا أعرف للمصريين فن ناطق . لا أعرف لهم أدباً بمعنى الصحيح لهذه الكلمة . وأنت ترى معنى أن الأدب هو أوضح مصور لحياة العقول والتلوب ؛ لأنه يحقق مقداراً مشتركاً يمكن الاتفاق عليه . ويصعب الاختلاف فيه . فنحن إذا قرأنا الشعر أو النثر معاً ، فبما فيه واحداً أو فهمين متقاربين ، ولكن الفن الصامت فن النحت والتصوير وما إليهما يثير في نفوس الناس معاني بها تكن متقاربة متشابهة ، فهي تختلف باختلاف الأشخاص والبيئات والعصور .

ها أنت ذا تفهم من الفن المصري ما تفهم ، وشاركك فيه كثير من المتقنين ثقافة أوربية ، ولكن أوافقك أنت حقاً بأن قدماء المصريين كانوا يرون تماثيلهم وعماراتهم كما تراها ، ويذهبونها كما تفهمها ويستلهمونها كما تستلهمها لأرائك لو سألت مصرياً معاصراً رئيسي عن رأيه في تمثال من التماثيل ، أو عبارة من العبارات ، أيقول فيها مثل ما تقول ؟ ومثل هذا يقل في الفن اليوناني . وفي كل هذه الفنون الصامتة ، قلبس من الظاهر أن تعتمد عليها وحده في تشخيص عقلية الأمم وروحيتها . إنما الشخص السحيح المتقن والقوب والأرواح هو الكلام . والكلام الجليل الذي نسميه الأدب وتقسمة شعراً ونثراً . فبلى أن يكشف لنا علماء الآثار المصرية عن أدب مصري قديم خلق بهذا الاسم أوجواً أن نأخذ في أن أشك في كثير جد من هذه الأحكام التي يرسنها الأدباء والسعراء وأصحاب الفن على عقلية المصريين القدماء وروحيتهم . ويقدم عن المادة . وقدم من الروح .

كل هذه عندى أحكام تعطل بها أبحاثها . ورسونها على غير تحقيق . وإذا فقد يكون من الإسراف أن نتخذ هذه الروحية المصرية العميقة التي يسرع إليها الشك ، والتي تعجز عن أن تثبت للمحس . والتي توشت أن تكون خيالاً تخيلته أنت وتخيّل أصحاب من الأدباء ورجال الفن ، أساساً لأدبنا المصري الحديث . فمن يدري ! لعل المحس عن آثار مصر أن يكشف لنا بعد زمن طويل أو قصير عن حياة مصرية قديمة تغزو كل المعبرة هذا الخيال الذي تحبونه وتطمنون إليه . ويخيّل إليكم أن الفن المصري القديم روحه وبناؤه وينطق به .

نحن إذا أمام أمرين : أحدهم عرضة للشك الشديد ، لا نكاد نعرف منه شيئاً ، والآخر لا سبيل إلى الشك فيه . أحدهما حياة مصر القديمة وحضارتها العقلية - إن صح هذا التعبير - والآخر حياة العرب وحضارتهم . فإلى أي الأمرين نفرغ انقيم عليه بناء أدبنا الجديد ؟ إلى الشك أم إلى اليقين ؟ وهنا يظهر الخلاف بينك

بيني شديداً حقاً : فقد أصلحت أنت وأثبت في اليونان . ولا أستطيع مناقشتك  
 أحكامك على المصريين لأنها أثار الإهانة القبيحة . ولكن رأيتك في العرب  
 آثارهم في حاجة شديدة جداً إلى التقويم : فقد كنا ترى ابن خلدون جار على العرب ،  
 إذا أنت أشد منه جوراً وأقل منه عذراً : فقد يستر الله لك من أسباب العلم بالتاريخ  
 تقديم ، وتاريخ القرون الوسطى . وتاريخ الحياة الأدبية والفنية والعقلية لختلف  
 الأمم والشعوب ، ما لم يستره لابن خلدون . فإذا قيل من هذا المؤرخ الفيلسوف أن  
 تورط في الخطأ لأن عقله الواسع لم يحيط من أمور اليونان والرومان والهند والفرس  
 المصريين القدماء بما يستطيع نحن الآن أن نحيط به أو نؤمن فيه . فليس يقبل  
 ذلك أنت هذا الخطأ ، وأنت تعلم من المصريين وجه عام . وقد ذهب إلى مثل  
 ذهبت إليه جماعة من المستشرقين . منهم دورى وريجن . وأحسبكم جميعاً تظنون  
 عرب ظلاماً شديداً ونقصون في أمرهم بغير الحق .

فلو أنكم ذهبن توارثون بين العرب وبين الفرس والمصريين القدماء ،  
 كان من حتمكم أن تقدموا هذه الأمم في الأدب على الأمة العربية بحال من  
 الأحوال : لأننا لا نكاد نعرف من آداب هذه الأمم في تاريخي التقديم شيئاً يقاس إلى  
 ما بين أيدينا من الأدب العربي . فإني أن 'كشفت أدب هذه الأمم إن كان لها  
 لب أكثر من هذا الذي نعرفه ، يجب أن تؤمن للعرب بالتفوق عليها في الشعر  
 النثر جميعاً . للمصريين فهم . وللهنود قصصهم أيضاً . فإذا أردت أن توازن  
 بين العرب والرومان فظنك توافقني على أن الأدب العربي الخالص أرق جداً من  
 الأدب الروماني الخالص ، أي إن الأدب الروماني إنما ارتقى حقاً حين أثر فيه  
 الأدب اليوناني : فالرومان تلاميذ اليونان في الأدب والفن والفلسفة ، والعرب  
 منهم في ذلك . ولكن العرب كان هم أدب ممتاز قبل أن يتأثروا بالحضارة  
 اليونانية ، ولم يكن الرومان من هذا الأدب الروماني الممتاز الخالص حظ يذكر .

وقد تفوق الرومان في الفقه ، ولكنهم لم يسبقوا العرب في هذه الناحية من نواحي الانتاج . ولعل الأمة الوحيدة التي يمكن أن تشبه بالرومان في الفقه إنما هي الأمة العربية . لم يبق إلا الآداب اليونان ، هو الذي يمكن أن يقال فيه إنه متفوق على الآداب العربي حتى . ولكن من الذي يقيس رقي الآداب في أمة من الأمم برقي الآداب في أمة أخرى ! فإذا كانت ظروف الحياة العربية مخالفة أشد المخالفة لظروف الحياة اليونانية . فطبيعي أن تختلف الآداب عند الأمتين . وليس من شك في أن الآداب العربي قد صور حياة العرب تصويراً صادفاً قاذى واجب أحسن الأداء . وكل ما يؤخذ به الآداب العربي القديم هو أنه لا يصور حياتنا نحن الآن . ولكن ! أوافق أنت بأن الآداب اليوناني القديم قادر على أن يصور الحياة الحديثة تصويراً يرضى عنها ؟ ! أما أنا فلا أتردد في الجواب على مثل هذا السؤال : فلا أدب اليوناني القديم خصب غنى متع من غير شك ، ولكنه كالأدب العربي قد صور حياة القدماء . وهو قادر على أن يُلهم المحدثين لا أكثر ولا أقل .

وأراك تذكر الفن العربي فتعيبه ونمض منه ، وقد تكون موفقاً في ذلك . ولكن أليس من الغفم أن تحمل هذا الفن على العرب ، وإنما هو فن إسلامي ساهمت فيه الأمم الإسلامية المختلفة واستمدت أكثره من البيزنطيين . فإذا كان لك أن تعيب هذا الفن أو تحمده ، فأحب أن تمتص في إضافته إلى العرب . والخير أن تصفيه إلى الأمم الإسلامية . وأمر العرب بالقياس إلى الفن والآداب والعلم والفلسفة بعد العصر العباسي الأول ، كما أمر اليونان بالقياس إلى هذه الأشياء كلها بعد غارة الإسكندر على الشرق : كانوا منهمين . باعثين للنشاط ، دافعين إلى الانتاج ، مقدمين لنتهم وعاء لما تنتجه العقول والملكات على اختلافها . وقد يكون من الحق أن كل مقامة من مقامات الحريرى أشبه بباب من أبواب جامع المؤيد ، ولكن

من الحق أيضاً أن الآثار الأدبية التي تشبه مقدمات الحريري ، والآثار الفنية التي  
نسبها أبواب جامع المؤيد كثيرة جداً عند اليونان في العصر المتأخر ، وعند  
بيزنطيين . ولعل هذه الآثار اليونانية البيزنطية هي التي أحدثت عند المسلمين  
تمامات الحريري وأبواب جامع المؤيد .

وأنت تميز اليونان بالحركة ، وتميز العرب بالسرعة . وتنفيط من هذه السرعة  
لما كثيراً للعرب ، كما فعل ابن خلدون من قبل . وليس من شئ في أن العرب  
تاركون اليونان في الحركة ، ولكن ليس من شئ أيضاً في أنك تغفلوا  
البدء في وصفهم بالسرعة . إنما أسرع العرب في الخروج من باديتهم ، ولكنهم  
ين بلغوا الأمصار استقروا فيها . وطال بهم الفناء ، فزفروا في أهلها وتأثروا بهم ،  
كانوا في القرون الوسطى أشبه الأمم باليونان في العصر القديم .

ورأيت في الموسيقى العربية واليونانية في حاجة إلى التصحيح أيضاً . فتنح  
لم من الموسيقى اليونانية شيئاً يسيراً غير مضبوط . ولا تعلم من الموسيقى العربية  
شيئاً . ولست أدري إلى أي أمة أو إلى أي جيل نستطيع أن نرد هذه الموسيقى وهذا  
فننا المذموم نتحدث عنهما ، ولكن الشيء الذي لا أشك فيه هو أن من العسير  
بدأ أن نردّها إلى العرب القدماء . وكل شيء يدل على أن الموسيقى العربية والفناء  
مر في كما كان يعرفها العرب آياه الأمور بين والمبشرين وفي الأندلس كما متأثرين  
بند التأثير بالموسيقى البيزنطية والفناء البيزنطي . فإذا أردت أن تعيبيهما فلا تنس  
أعيب أصحابها اليوناني القديم .

وأريد الآن أن أدع هذه المناقشة التي نفس أموراً جريئة ، وأن أخلص إلى  
سهر الموضوع الذي تريد أن تعرف رأيي فيه ، وهو : الروح المصري الذي ينبغي  
أن يقوم عليه الأدب الحديث ما هو ؟ وما العناصر التي تولده ؟ وأنا أستأذنك  
في أن أكون يسيراً سهلاً ، لا متعمقاً ولا متكلفاً . ولا يباحث عن الظاهر في الساعة  
الرابعة عشرة ، كما يقول الفرنسيون : فالأمر أسرع جداً من هذا كله . عناصر

ثلاثة تكون منها المزيج الأدبي المصري منذ استعربت مصر: أولها العنصر المصري الخالص الذي ورثناه عن المصريين القدماء على اتصال الأزمان بهم وعلى تأثيره بالمؤثرات المختلفة التي خضعت لها حياتهم. والذي نستمدّه دائماً من أرض مصر وسمائها، ومن نيل مصر ومهراتها. وهذا العنصر موجود دائماً في الأدب المصري الخالص، قد حاولت تشخيصه بعض الشيء في أول هذا الفصل، فيه شيء من التصوف، وفيه شيء من الحزن، وفيه شيء من السباحة، وفيه شيء من السخرية والعنصر الثاني هو العنصر العربي الذي أتينا من اللغة ومن الدين ومن الحضارة والذي ربما نعلم قلن نستطيع أن نخلص منه. ولا أن نضعه، ولا أن نخفف تأثيره في حياتنا، لأنه قد امتزج بهذه الحياة امتزاجاً مكثراً، فما مقوماً لشخصيتها فكل إفساده بإفساد هذه الحياة، وهو هذه الشخصية. ولا تقل إنه عنصر أجنبي فليس أجنبياً هذا العنصر الذي تتدرج منذ قرون وفرون، وتأثر بكل المؤثرات التي تتأثر بها الأشياء في مصر من خصائص الإقليم المصري. فلبست اللغة العربية فيها لغة أجنبية، وإتاهى لغتها، وهي أقرب إلينا ألف مرة ومرة من لغة المصريين القدماء. وقل مثل ذلك في الدين، وقل مثله في الأدب.

أما العنصر الثالث، فهو هذا العنصر الأجنبي الذي أثر في الحياة المصرية دائماً والذي سيؤثر فيها دائماً. والذي لا سبيل لمصر إلى أن تخلص منه، ولا خير لها في أن تخلص منه. لأن طبيعتها الجغرافية تمتصه. وهو هذا الذي يأتيها من اتصالها بالأمم المتحضرة في الشرق والغرب، جاءها من اليونان والرومان واليهود والفينيقيين في العصر القديم، وجاءها من العرب والترك والفرنجة في القرون الوسطى، وبعثها من أوروبا وأمريكا في العصر الحديث. فخذ الآن أي أثر أدبي مصري خفاه إلى عناصره التي يتكون منها، فستجد فيه هذه العناصر الثلاثة دائماً، ولكنك ستجد بعضها أقوى من بعض بتقدير حظ المؤلف أو المتلقي من هذه الثقافات الثلاث

بمختلفة : بعض هذه الآثار يغلب فيه العنصر العربي . وبعضها يغلب فيه العنصر الأوربي ، وقليل جداً منها يظهر فيه العنصر المصري القديم . فإذا لم يكن بد من أن نذكر المثل الأعلى لروحنا المصري في أدب الحديث ، فلي أحب أن يقوم التعليم المصري على شيء ، واضح من الملامة بين هذه العناصر الثلاثة ، فنتشد عنايته جداً بالتاريخ المصري ، والفن المصري . والأدب المصري على اختلاف العصور . وتشد عنايته جداً بالأدب العربي ، والتاريخ العربي ، والدين الإسلامي . ثم نتشد عنايته بالثقافة الحديثة . وأخوف ما أخافه على هذا الروح المصري شيئاً : أحدهما أن تلهينا الثقافة الأوربية عن الثقافة المصرية والعربية ، وكل شيء يغربنا بها ويغريبها بنا ؛ فليس ضرورة من ضرورات الحياة . فمن الحق علينا الانضيق حفظاً منها ، ولكن من الحق علينا ألا نفنى أنفسنا فيها . الثاني أن نؤثر ثقافة أوربية على ثقافة أوربية ، فنزول الثقافة الإنجليزية ، كما يريد قوم . وكما تريد سياسة الدولة . أو نؤثر الثقافة الفرنسية ، كما يريد آخرون . وكما كانت تريد سياسة الدولة من قبل . هذا خطر ، لأنه يجعل الروح المصري الشبي ، وجهاً لوجه أمام روح أوربي أقوى منه . وإذا بدأنا ، فببوشك أن نخضع له ونفنى فيه . فلو قد فتحنا أبواباً للثقافات الأجنبية على اختلافها ، لاستغناها كلها ولاضعف بعضها بعضاً . وحال بعضها من بعض أن يُفنيها أو يسيطر علينا . لذلك تمسكت وما زالت أثني لو لم نقرض من مصر لغة بعضها من لغات الأوربيين . بل جعلت اللغات الحية الراقية كلها مادة للطلاب يأخذون منها ما يشاءون .

هذا الروح المصري الذي يتكون من هذه العناصر الثلاثة ، هو الذي نشهده الآن عندك وعند كثير من أمثالك المتفتحين ، وهو الذي نتخذ في شره وإذاعته بين المصريين جميعاً ، وهو الذي سيضع أدب مصر الحديث بطابعه القوي سواء أردنا أم لم نرد . فشخصيتنا المصرية العربية أقوى بحمد الله من أن تمحي أو تزول ،

والحضارة الأوربية أقوى والأهم من أن تُعرض عنها ، أو تُضيق في الأخذ بمحطتها من  
 سنائى : ولكن الأديب من أين يستمد خواطره ، ويستلهم وحيه  
 قاصيكم : من هذه العناصر كلها ، أو من أى هذه العناصر شاء . سيكون  
 الأديب الذى يستلهم العنصر المصرى القديم : أليس بين الفرنسيين من يستلهم  
 اليونان ؟ وسيكون منا الأديب الذى يستلهم العنصر العربى ؟ أليس من الفرنسيين  
 من يستلهم الرومان ؟ وسيكون منا من يستلهم العنصر الأوربى ؟ أليس من  
 الفرنسيين من يستلهم الكسوتيين ؟ بل من يستلهم الشرق الأقصى ، أو الشرق  
 الأوسط ، أو الشرق القريب ؟ بلى ! والأمر كذلك عند الانجليز وعند الألمان  
 وعند غيرهم من الأمم الحية . فنت ترى أن أمر هذا الروح المصرى أيسر من أن يذهب  
 إلى الخوف أو اضطرار إلى الخيرة . وأكبر الظن أن مصدر هذه الخيرة وذلك الخوف  
 إنما هو اضطراب سياسة العالم في مصر ، وقيامها على غير أساس ، وسيدها في غير  
 طريق ، ولو قد وضحت هذه السياسة واستقامت منذ زمن بعيد لما تساءلنا الآن  
 عن الروح المصرى . ولا عن الأدب المصرى من أين يستمد الحياة .  
 أما بعد : فقد كنت أريد أن أقصد وأوتر الإيجاز ، ولكن الحديث معكم  
 أغرقنى بالإطالة وحببها لى . وأرجو ألا أكون قد أثقلت عليكم ولا على غيركم  
 من القراء ، وأرجو أن نقبل تحيتى الطاهرة .



## ١ - شهر زاد

قصة تخبيلة للأستاذ توفيق الحكيم

## ٢ - نحو النور

قصة تخبيلة للأستاذ إبراهيم المعري

ليقل خصوم الأستاذ توفيق الحكيم ما يريدون ، وما يستطيعون أن يقولوا ،  
يبلغوا في يوم من الأيام أن يُثبتوا أن هذا الكاتب لم يُحدث في الأدب العربي  
عصرى حدثاً جديداً : بل أنما لا تستطيع أن تصدق أن هذا الكاتب خصوصاً  
بعض الذي يفهم من هذه الكلمة : فإن الخصوم هم الذين يخالفون الكاتب في  
أحيان من الآراء ، أو مذهب من المذاهب ، أو فن من فنون القول والتصوير ،  
أو قوته ، ثم يجادلونه ، ثم يشتنون له في يكون من خلاف أو جدال . وما أعلم  
إلا الآن أن أحداً خالف هذا الكاتب في شيء من هذه الأشياء ، أو جادله فيها  
من لا أو كثيراً ، إلا أن يكون هذا النقد الذي واجه إليه حين استطاع اللغة العامية  
في قصته « عودة الروح » فأسرف في اصطناع ، ولكنه هو لم يذهب مذهب  
إبراهيم المعري والتهالك عليها والافتتان بها . وأكبر الفض أنه قد انتفع بما واجهه  
من نقد على ما كان في هذا النقد من إسراف ، فأما غير ذلك فلا أعرف أن  
أحدًا خاسم الكاتب خصاماً يستحق هذا الاسم . إنما هي ملاحظات تساق  
إلى الكاتب من فريقين مختلفين أتد الاختلاف : أحدهما يحب الكاتب ،  
ويكبره ، ويريد له الخير ويتمنى له الكمال ، فهو ينقده رفيقاً به ، مشجعاً له ،  
حي حين يقسو عليه . والآخر يحسد الكاتب ويضيق به ويئقس عليه أنه أتى  
بما لم يأت به غيره من نظرائه وأقرانه . وأنه ظفر بما لم يظفر به النظراء

ولا الأقران من حب النقاد ، وإعجاب المثقفين ، وإكبار المستعيرين . وهؤلاء لا ينبغي أن يحفل بهم نقاد أو يقف عندهم كاتب ، وإنما ينبغي أن نشفق عليهم ونتمنى لهم أن يوفقوا مثل ماوفق نه توفيق ، أو خير مما وفق له ، ليظفروا بمثل ماظفربه ، أو أكثر مما ظفربه من الإعجاب والتشجيع والثناء . وأؤكد هؤلاء أني لن أتردد يومئذ في أن أكون أسرع الناس إلى إعلان شكرى لهم وثنائى عليهم وإعجائى بهم ؛ فقد شهد الله ما آثرت صاحب أهل الكهف بحمد ، ولا اختصته بثناء ، ولا رأيته ولا تحدثت إليه . ولا سمعت منه قبل أن أقدم قصته أهل الكهف إلى القراء ، وإنما قرأته . فأعجبت به ، وأعجبت به ، ورأيت أن الحق يجب أن يعلن ، وأن الكتاب المجيد يجب أن يعرف لهم عظم من الإجابة ، ليزدادوا رغبة فيها . وإقبالاً على طلبها ، وجداً في السعى إليها . ولست أمتنى شيئاً كما أمتنى أن أرى في مصر كثيرين يشبهون هذا الكتاب ويفوقونه ؛ فليجتهد الكتاب وليسبقوا إلى الإجابة والإنفاق . فذلك خير من هذا السخط الذى يغسد القلوب ويعنى العقول ، ومن هذا الحد الذى يهلك النفوس ويدنس الأخلاق .

ولأعذ إلى توفيق وإلى قصته هذه شهر راد ، التى أذاعها فى الناس منذ أشهر ، والتى أظهرنى عليها مع جماعة من الأصدقاء ، قبل أن يذيعها فى الناس . لأعذ إلى هذه القصة ، فأعترف بأنها قصة أهل الكهف ؛ فن جديد من الإنتاج فى أدب الحديث لم يسبق توفيق إلى مثله . ولا إلى قريب منه . ولست أزعم أنها المثل الأعلى فى القصص المثلى ، بل لست أزعم أنها شئ يقرب من المثل الأعلى ، ولكنى أزعم أنها أثر فى متقن ، ممتع . دقيق الصنع ، بارع الصورة ، خليق بالبقاء ، وبالبقاء الطويل . لا أنكر على توفيق فى هذه القصة ما أنكرته على الطيبة الأولى لأهل الكهف من الخطأ اللغوى المتكرر ، ولا من الإطالة والإسراف فى بعض

لواضع . فأكبر الظن أنه راجع قصته هذه قبل نشرها ، فردّها إلى صواب اللغة  
والمحورداً حسناً ، وأعاد فيها النظر فحذف منها وأضاف إليها ، وسوّاها تسوية  
والحجة معجبة . ولا أكاد أنكر على هذه القصة شيئاً من الخطأ بالقياس إلى  
أصول التمثيل وحاجة الملمب : فصناعة القصة دقيقة ، والملازمة فيها بين الفن الأدبي  
وحاجة الملمب واضحة موصقة ، وإن كان تمثيل القصة مع ذلك في مصر شيئاً  
لا سبيل إليه الآن ، لأمرين واضحين أشد الوضوح . فأما أولهما فهو أن القصة ترتفع  
بكثرة النظارة الذين يختلفون إلى ملاعب التمثيل . ويكاد الاستمتاع بها يكون  
مستوراً على أصحاب الثقافة المتارة ، فهي من هذه الناحية مُحَرِّقَةٌ إن غرِضَتْ  
النظارة في يوم من الأيام ، سيمع الناس كلاماً حسناً يفهمون بعينه ، ويلتوى  
بهم أكثره فيضيقون به ولما يشهدوا من القصة منظرًا أو منظرين .

الثاني أن المثاليين الذين يستطيعون أن ينصوا هذه القصة كما ينبغي ، وأن  
به ضوها على النظارة عرضاً صادقاً بالأمم جملةً ونقائماً لم يجدوا بعد : لأن  
المثاليين المتقين تنقيحاً صحيحاً ، لا يزالون قلة ضئيلة جداً في هذا البلد . فقصّة  
أدبى إذا سطرأس غير . وأهلها تستفيد من هذا ، ولا تخسر شيئاً ؛ فليست  
أدبى في أدبنا الحديث قصة تنجح بها صاحبها إلى القتل والشعور معاً كهذه  
القصة ، واتجاهها بها إلى القتل أكثر من اتجاهها إلى الشعور . فالقصة لا تعالج  
شئاً أقل ولا أدنى من هذه المسألة اليسيرة التي عجزت الفلسفة الإنسانية عن حلها  
إلى الآن ، وهي مسألة الحقيقة ماهي ؟ أو ماذا يمكن أن تكون ؟ وأضلتك توافقني  
على أن مثل هذا الحوار الأفلاطوني لم يخلق للملمب ، والملمب المصري  
شروع خاص .

ومع ذلك فالقصة في ظاهرها يسيرة جداً : فقد اشتد إعجاب الملك شهر يار  
بصاحبه شهر زاد حتى أراد أن يتبين حقيقتها ويعرف الجلي من أمرها . فأخذ

يبحث ويجتد في البحث ، ولكنه لم يظفر بشئ ، وأخذ يسأل ويجتد في السؤال ، ولكنه لا ينتهي إلى شئ . وهو يسأل الناس . ويسأل الأشياء ، ويسأل الأحياء في الأرض ، والنجوم في السماء بعد أن سأل شهر زاد نفسها عن نفسها ، فلم تجبه لأنها لا تريد ، أو قل لأنها لا تدري كيف تجيبه ، أو قل لأن الكاتب نفسه لا يدري كيف يكون الجواب ، وهو على ذلك ضيق بنفسه هائم بما لا سبيل إلى الوصول إليه . كان سعيداً فصبح شتياً . وكان هادئاً فذرع إلى القلق الذي لا آثر له . ووزيره قمر مفتون بشهر زاد . ولكن كما يُفتن الرجل المتحضر بالمرأة المتحضر ، يحبها حباً فيه الشهوة ، وفيه السمو إلى مثل الأعلى ، ولكنه حب الناس عن كل حال . والوزير معذب بهذا الحب وبالثروة الذي يحفظه لملكه وصدقه شهر يار . والملك يعلم منه هذا ويعصى عنه أول الأمر ، ثم يدفعه إليه ويحبه عليه بعد ذلك . والعبد الأسود يحب شهر زاد أيضاً . ولكنه يحبها حب الحيوان . لا يخلط حبه بحساسة ولا ثقافة ، ولا يسلط عليه شعاعاً من فلسفة أو أدب أو فن . وإنما هي الغريزة ، والغريزة وحدها . وشهر زاد يحب هؤلاء الأشخاص جميعاً . لا ؟ فشهر زاد هي الضبيعة . هي الحقيقة التي تحب طاليتها وعشاقها على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، وتمنع هؤلاء الطلاب والعشاق ما تستطيع أن تمنحهم من الرضا . فأما الذين يمنعون منها بالتقليل . أو الذين يطلبون إليها الكثير الممكن . فما أقدرها على إرضائهم ، وأما الذين يطلبون جوهرها وخلاسها ويريدون أن يتزوجوا بها وينصروا فيها فهي عاجزة عن أن تمنحهم ما يريدون . وهي مع ذلك ترحمهم لأنهم يشقون في طلب المثل الأعلى ، وتسخر منهم لأنها تطمعون في الوصول إليه . ثم هي بعد ذلك تؤنسهم بأما يُبذل بعضهم ويربح بعضهم الآخر . فالملك شهر يار هو هذا الإنسان الذي هام بالمثل الأعلى ولم يظفر به . والوزير هو هذا الإنسان المتحضر المثقف الذي يحب . ولكن في حضارة ورقية وارتقاء عن الغريزة . والعبد هو هذا الإنسان العادي

الذي لم يبلغ بعد أن يتسلط عقله وعواطفه الحضورية على غرائزه الأولى . وشهرزاد  
 في الطبيعة التي تسمع لأولاء جميعاً . وتبينهم بما تستطيع أن تبينهم به عندها ومنعاً .  
 فنحن إذا أمام محادثة فلسفية من محاورات أفلاطون ، لولا أن الكاتب الذي  
 نأمر على حب الحوار قد صاغ لنا محاورته هذه صيغة أدبية تشيلية تمكنا من أن  
 نعيشها ، ونطرب لها . ونجد فيها لذّة العقل ، ولذّة الشعور . ولذّة الحس أيضاً . ففي  
 أمة مناظر حسان ، وفيها موسيقى رفيعة خفيفة جميلة النغم . وفي القصة أيضاً  
 يضحك بل ، ما يدفع إلى الإغراق في الضحك ، وفيها ما يحزن ، بل ما يدفع  
 إلى الحزن العميق . وحبك بحانة « ميسور » التي ما أضل إلا أن الكاتب قد  
 وكر بها داراً من دور الأفيون في باريس . وحبك أنت تشهد في أول القصة  
 مع هذه الفتاة التي يقتلها الساحر الثنايا لشفاء الملك ، وتشهد في آخر القصة  
 مع هذا الوزير الذي يقتل نفسه غيرة من العبد الذي استأثر بحجم شهرزاد ، ثم  
 نهد بين هذا وذاك حيرة الملك واضطراره . وتشهد آخر الأمر استقرار الملك إلى  
 هذه الحيرة والاضطراب إن أمكن أن يستقر الناس إلى الحيرة والاضطراب .

لنقول الغاضبون على توفيق والحاسدون له ما يقولون : فلأدب العربي الحديث  
 ما يعرف مثل هذا الفن من الإنشاء . بل مالي أفتصد ! ولأدب العربي كله لم  
 يعرف مثل هذا الفن . وأنا أرجو ألا يفتخر توفيق بهذا الثناء الذي أهديه إليه  
 دفاعاً مخلصاً ، وأود لو دفعه هذا الثناء إلى العناية بفنه والتكامل لما ينقصه من  
 اندوات ؛ فهو في حاجة إلى كثير من أخذ والعناء ، ومن المدرس والتحصيل ،  
 لئلا أشده في فنه هذا الجديد . هو في حاجة إلى أن يكتر من قراءة الفلسفة ليقول  
 عن علم ويفكر على هدى . وهو في حاجة إلى أن يُعنى باللغة ويتقنها ليستقيم له  
 التعبير عما يعرض له من الخواطر والآراء .

٢ - أما قصة الأستاذ إبراهيم المصري « نحو النور » فقد حيرتني حقاً حين قراءتها وما زالت تحيرني إلى الآن ؛ فأنما معجب بهذا الجهد الثقيل الطويل الذي بذله الأستاذ في تصوّر هذه القصة وتصورها . ولكنني أعترف بأنني لم أفهم هذا الجهد ولم أنته إلى غايته التي قصد إليها الكاتب الأديب . هو يحدثنا في عتقوان قصته بأنهما مرحلة من حياة عبقرى ، ولكنه لا يثبت لنا في وضوح أن بطله عبقرى حقاً ، وإنما يحدثنا بأنه رجل مثار مجدّد شجاع على التجديد ، مدفوع إليه دوافع مصرّة عليه إصراراً ، قد آمن به قوة قليلون . فإيكادوا يخلصون له ، وكثرت كثرة الناس . ولكن عبقرته على ذلك غامضة غير بينة المدى ، ولا واضحة الحدود ؛ فهو مجدّد ولكن في ماذا ؟ في العلم ؟ في الأدب ؟ في الفن ؟ في السياسة ؟ في الاجتماع ؟ في كل هذا أو في غير شيء . من هذا كله ؟ يحدثنا الأستاذ إبراهيم المصري عن مثالات يكتبها هذا العبقرى ، ولكنه لا يكاد يحدثنا عن موضوع هذه المقالات . بل هو ينطق بهذا العبقرى بكلام كثير . ولكنه يحتلّ أشد الاختلاط فيه آراء قد أرسلت إرسالاً ، وأحكام قد أطلقت إطلاقاً ، وقضايا هي أشبه بأحاديث المحمومين . وقد لا يكون هذا غريباً ؛ فالعبقرية طور من أطوار الحمى . أو فن من فنون الجنون . ولكنها حمى نافعة ، وجنون مفيد . أما حمى صاحبنا « محسن » وجنونه فلا أعرف أن فيها نفعاً ولا فائدة . لأنها في حاجة شديدة جداً إلى الموضوع والتحديد . وأشخاص القصة كميم يخالفون المؤلف ؛ فالعبقرى البطل متهوس أو كالتهوس . وأخوه محمود مريض . وأى مرض ؟ مسلول ، مضطرب العقل . قد أخذته المستيريا حتى دفعت به إلى محوّة النسيان أولاً ، ثم إلى الفيرة المنكرة ثانياً ، ثم إلى تخفيف نفس أخيه العبقرى ثالثاً ، ثم إلى الانتحار بعد هذا كله . أما زينة فصورة شائعة من الفن . ولكنها مضطربة أشد الاضطراب ، قد دُفئت إلى الإثم حتى أسرفت فيه . نجب « رأفت » حباً آمناً ، وتلمب محمود أخيه

في حبها لعباً مجرمًا . ولا تخلو مع ذلك من حب لزوجها . وأما نجية فأية الآيات  
 في حب العجب . حريصة كل الحرص على الحرية . تحب هذا العبقري حباً يبلغ  
 حمة ، ولكنها تأتمر به مع أخيها . وفيه تتمر؟ وعلام تعين أخاها؟ على أن تخون  
 العبقري في أمراته خيانة لا حظ لها من ذوق ولا ظرف ولا احتياط .  
 الأخوان يتحدثان في هذه الأشياء . كما يتحدثان في الجو والمطر ، واختلاف  
 القول . ليصدقني الأستاذ إبراهيم المصري ، فلست أدري في أي بيئة من البيئات  
 المصرية ذهب يلتمس أشخاصه هؤلاء .

وقد غلا الأستاذ في جمع الآباء وتكديس الآلام حتى جعل الجو في قصته  
 مائلًا مهلكًا ، ليس إلى احتمال من سبيل . وإذا كنت شهر زاد عسيرة التمثيل  
 صر ، فإن « نحو النور » يسيرة التمثيل كل اليسر . تمثلي عند الأستاذ يوسف  
 من فظظ من الفوز والتصفيق بأعظم الخطوط . فأما ظفره رضا الفن والأدب ،  
 فبأمة المنطق والحق . والقرب من الحياة الواقعة . فهذا شيء آخر .

والأدع كل هذا ولا تف مع الأستاذ إبراهيم المصري وقصة كنت أود لو استطعت  
 أن تعجبها . قبل يعلم الأستاذ أني تجووت له في النصه عما يأنه الكتاب المحدثون  
 من بعض التهاون في اللغة والنحو والمزاج مع سبويه والخليل . ولكني أحصيت  
 فيها بعد هذا التجاور شيئاً وستين غلطة ليس إلى العبر علي من سبيل . أكثرها  
 في النحو ، والنحو الذي لا يجوز الخطأ فيه : فنون الرفع تلحق بالفعل الماضي  
 ولما تلحق بالفعل الأمر أيضاً . وخبر « إن » ينصب . وخبر « كن » يرفع ، والأفعال  
 بعدها عبث لا حذله و « لما » الظرفية تدخل على أن مع الفعل المضارع في غير  
 المذهب ولا اقتصاد . هذا خطر . خطر حق . ولأستاذ إبراهيم المصري كاتب  
 يعرف بقرؤه الناس ويحبونه . وقد يتأثره الشباب ويحدثون في تقليده . فأى شر  
 وأى نكر حين يقلده الشباب في هذا الخطأ الذي لا ينبغي أن يقبل من صغار

التلاميذ . اللهم اشهد على أني أتبه كتابنا وشعراءنا المحدثين أو الذين يسمون  
أنفسهم محدثين ، إلى أنهم يعرضون اللغة العربية لخطر لم تتعرض له منذ  
هذا العصر الحديث . اللهم اشهد على أني أدعوه مخلصاً إلى أن يتخذوا لهم معاد  
بقومون أنسنتهم ويثقفون أعلامهم ويعصمونه من مثل هذا الخطأ الذي لا يلحق



## الأديب الحائر

قصة تمثيلية لمؤسّس نرفيس الحكيم

لا يكتبها بعد ، ولست أدرى أريد أن يكتب أم لا . ولكن الشيء الذي  
أنا فيه هو أنه قد مثلها . ومثلها تمثيلاً رائعاً . أحب أن أشعر بروعته في هذا  
الحدث الذي أسوقه إليك . ولست آسف إلا على شيء واحد . وهو أنك ستشعر  
بأن الروعة جملة وفي وقت قصير . هو وقت نظرت في هذا الحدث . على حين  
كنت أنا بهذه الروعة واستمتعت بلذتها النفسية فصيلاً وفي وقت طويل . يبلغ  
أو يكاد يبلغه .

لم يمثل الأستاذ توفيق الحكيم قصته هذه التي لم يكتب بعد ، في ملعب من  
الاب القاهرة المعروفة ، ولم قد فعل لشهدها أنت وغيرك من النظارة . فأى  
نفس يستطيع أن يتخاف عن شهود قصة الأستاذ توفيق الحكيم يمثلها بنفسه ،  
بإترك معه في هذا التمثيل جماعة من المصريين المعروفين . أنا أحدهم . لم يمثلها  
في ملعب ضيق محدود ، وإنما مثلها في ملعب واسع جداً بعيد الأقطار والآمال ،  
ومس الحياة . وما دام لم يمثلها في ملعب معروف . وما دام لم يخرجها للناس  
ككتاب ، فأنا بالطبع عاجز عن أن أحدثك برأى النقاد فيها . لأن النقاد أولئك  
كثير النقاد لم يشهدوها .

وأنا أريد أن أحتاط فلا أحدثك برأى في هذه القصة ، من جميع وجوها

وأنحائها، لأن الحر شديد . ولأن البحر الشديد تأثيراً في نفس الأستاذ توفيق الحكيم وقلمه . والناس جميعاً يعصون أئى بحب الأستاذ فتعجب بقلمه . وأقل ما يرجوه من الحب والإعجاب أن أكون رفيقاً شقيقاً حين يشتد القيظ ويخشى من شره عي الروس والنفوس والأفلام .

وهذا العنوان الذى وسمت به هذه القصة لا يبدو أن يكون اقتراحاً قد يعدل عن الأستاذ توفيق الحكيم إن خطر له أن يكتب قصته . فما ينبغي لثلاث ولا لثلى . بل ما ينبغي لطير منك ولا خير منى . أن يقترح على الأستاذ أو يصحح له ؛ فالأستاذ أكبر من أن يقترح عليه مقترح . وأن يصحح له ناصح ، مهما يكن مخلعاً أمياً . وما دامت هذه القصة تمتلئ في ملعب محدود ، ولم تخرج للناس في كتابها فإن نظامها وترتيب قصورها وتنسيق منظرها وما يكون بين أشخاصها من حركات متكيفة . وحوار مصطنع ، كل ذلك مشكوك فيه ، قابل للتغيير والتبديل ، إن أراد الأستاذ توفيق الحكيم . وإنما السئ . الوحيد الذى لا شك فيه هو هذا الطراكى الذى تقوم عليه القصة إن صح هذا التعبير ؛ فهذا افيكلى يفرض نفسه على الأستاذ الأديب وعلى الناقد المسكين فرضاً ؛ لأنه شئ . لا تملك له تغيير ولا تبديلاً ، شئ . قد كان وليس لإنسان حيلة في تغيير ما كان ، ولو كان هو الإنسان أستاذاً وكان هذا الأديب توفيق الحكيم .

أما الفصل الأول من هذه القصة كما كانت ، لا كما ستكون يوم يكتبها الأستاذ توفيق إن أراد . فيتبع في العماء الساخنة في أوائل الربيع ، في حجرة من حجرات البيت الذى كنت أسكنه في هليو وليس ، إذ يقبل على صديقين يحبان الأديب لهما أديبان ، ويعجبان بالأستاذ توفيق الحكيم لأنه أديب . وهما يتحدثان إلى عن هذا الأستاذ الذى لا أكن أعرفه ولا سمعت من حديثه شيئاً ، فيثنيان عليه بما هو أهله ، أو بما هو أهل لأكثر منه . ثم يدفعان إلى كتاباً وضعه الأستاذ

توفيق الحكيم ، وكان يود أن يهديه إلى نفسه لولا أنه لا يعرفني . ولا يريد أن يهديني حتى أقرأ كتابه وأكون لنفسى رأياً فيه . ثم يقصن عني الكثير من أطواره الدنيوية حتى يثيرا في نفسى الشوق إلى لقائه . وإلى النظر في كتابه . فإذا انصرفا ثوب صديق ثالث ، فلا أكاد أحدثه بما كان من أمر الصديقين حتى يثنى على الكتاب ويثنى على الكاتب . ويزعجني أنه قرأ الكتاب مخطوطاً قبل أن يقرأه ، لأن صاحبه لا يبشر شيئاً حتى يستشير فيه أصدقائه . ويثنى كذلك بأن هذا الكتاب لم يُنشر إلا لشراً ضيقاً . لأن صاحبه يريد أن يعرف رأى المثقفين قبل أن يعرض نفسه على كثرة القراء .

فإذا كان الفصل الثانى فقد أخذت أقرأ في الكتاب فأرضى عنه ، ثم أعجب به . ثم أكتب عنه فصلاً فى ( الرسالة ) أسجل فيه هذا الإعجاب وذلك الرضا . ثم لاحظت سيرة لا بأس بها على الكاتب ولا على الكتاب . وما يكاد يلتقى الصديق على هذا الفصل ، ويستريح النظارة فى وقت الراحة بين الفصول ، حتى أتى رسالة بريقة ملؤها الشكر وعرفان الجليل . ومصدرها الأستاذ توفيق الحكيم . ثم يكون فصل ثالث . والخير فى ألا تسمى القصة إلى فصول . بل إلى مآظر بعضها بعضاً . وليعذرنا الأستاذ توفيق الحكيم . فنحن لا نحسن الكتابة فى القصة . يكون منظر ثالث أو رابع لا أدري . وهذا الأستاذ توفيق الحكيم قد سأل إلى من إقليمه الذى كان يعمل فيه . وهو يشكرنى تشجيعى له . ويفخر فى هذا الشكر . ثم يلتقى أموره الأدبية كلها إلى ، ويطلب منى أن أكون له مرشداً وحسيماً ، فأقبل منه هذا كله سعيداً به مبتهجاً له . وأتحدث إلى الأستاذ حديث الصديق المحب المعجب . ويتكرر هذا المنظر مرات كذا أقل الأستاذ من إقليمه الذى كان يعمل فيه إلى القاهرة ليقضى فيها بين أصدقائه يوماً أو يومين . والحديث والله يتصلان ويستد اتصافهما بيننا ، وتظهر آثار هذا الاتصال فيما يكون من كتب

تنشرها لنا ( الرسالة ) ، ومن لقاء يشهد الأصدقاء . ثم يكون منظر آخر من هذين  
 المناظر الكثيرة التي سيؤلف الأستاذ منها قصته إن أراد : أنجتمع فيه مع أصدقاء  
 لنا يعرفهم الأستاذ ، ونشاور في أمره عولاً في أمرنا نحن ، فهو يريد أن يتقلد  
 من الأقاليم إلى القاهرة ، لأنه خبير بحياة الريف التي لا يجد فيها ما يلائمه من البيئة  
 المثقفة المتحضرة وما يحتاج إليه من الكتب . ولأنه يلقى فيها بعض العناء : فخذ  
 وكلاء النيابة في الأقاليم مضطربة شاة . وفي وزارة المعارف عمل قد يلائمه ، وهو يتقلد  
 إلى هذا العمل . ولكني أنا لا أمل إليه ، وأنا أوافق على أن يشق القاهرة وحياتها  
 خير الأستاذ من بيئة الأقاليم وحياتها . ولكني أشفق عليه من وزارة المعارف لأنني  
 أعلم الناس بوزارة المعارف ، ولأنني واثق بأن الهواء الذي يتلأ غرفاتها لا يلائم  
 حياة الأديب المنتج . وإنما هو هواء حلق لكل أدب ولكل إنتاج . والأستاذ  
 وأصدقائه يجنون في العرض وأن ألق في الرفض ، ثم أقترح مكاناً آخر يستريح  
 الأستاذ أن يعيش فيه عيشة تلائم الإنتاج الأدبي . فيظهر أن تحقيق هذا الاقتراح  
 غير ميسور . ثم يلقى الستار ويتم انتقال الأستاذ من الريف إلى القاهرة في هذه  
 الراحة التي تكون بين الفصول ، ثم يكون منظر آخر أو مناظر أخرى يجتمع فيها  
 لقرأ بعض الكتب التي يريد الأستاذ إخراجها للناس ، ومنها شهر زاد .

فالأستاذ شديد الشك في نفسه ، ضئيل الثقة بنفسه ، لا يظهر آثاره إلا إذا أقرها  
 أصدقاؤه الأقربون . وهو لا ينشر فصلاً في ( الرسالة ) إلا إذا قرأته وأذنت بنشره .  
 وهو لا يرى أنه قادر على أن يحصل وحده نعمة الإذاعة والنشر ، ثم يفر من هذه الكتب  
 ما يُنقَر . ونرجى ، منها ما نرجى . ، وتحدث عن أهل الكهف وعن طبعه ثانية  
 تذاع بين الناس . فاقترح أنا أن أقدمها إلى الجمهور . ويظهر الأستاذ وأصدقاؤه  
 الرضا بذلك والابتهاج له . ثم يلقى الستار ويرفع وقد تمت الطبعة الثانية من أهل  
 الكهف . وأبطأت أنا بالقدمة أسبوعين أو نحو أسبوعين ، فينشر الكتاب بغير

منه. وبغير أن يتحدث إلى أحد في ذلك ، قسومني ذلك بعض الشيء . فيسمى الأستاذ في منظر جديد . ويعتذر إلى محضر من بعض الأصدقاء . فاشمع منه أو سم له وأنجلوز عن استعجاله ، وينصرف راضياً . فإذا أصبحت تلقيت منه هذا الكتاب باللغة الفرنسية وأنا أترجمه في يأتي :

« أنا محزون حقاً . فقد فكرت . فإذا خطبتي بديهة : فقد كان يجب على الأهل أن أسئرك قبل أن أخرج كتي .

فإذا ترى في موقعي منك ؟ ويزيدني حزناً لحدث حين تجاوزت في سهولة م عن كل هذا .

إنما أنت في حقيقة الأمر قن كبير . فمن حقاً . وإني لأعترف بأنني لم أمنح النفس . ولست أنا خليقاً بالهن ولا بك .

وإليك الآن ما تمت عريقتي عليه : إذا احتفظت بمضيك علي فأعرض عن حياة أدبية .

ت . الحكيم

وتقبل «

وأخشى أن أكون قد أسأت الترجمة فأشرك معها النص الفرنسي لهذا أن نائب الكريم :

Je suis vraiment peiné. Réflexion faite, ma faute est évidente. Je devais au moins vous consulter avant de faire paraître mes livres.

Que pensez-vous de mon attitude ? Ce qui m'accable encore, c'est votre gentillesse d'avoir si vite passé l'éponge sur tout cela avec tant de générosité.

Vous êtes au fond un grand artiste, un vrai. J'avoue que je n'ai pas cette âme là. Je ne suis pas digne de l'art, ni de vous. Voici maintenant ma décision : si vous restiez fâché de moi, je renoncerais à toute carrière littéraire

A vous

T. El Hakim

ثم يكون منظر آخر يرى الله فيه حزينا أليفاً ومشفقاً جزعاً لأني صدقت هذا الكلام. ونخت أن يكون صاحبه جاداً فيه ، فأنكرت من نفسي ما أظهرت من الغضب ، وهذا أسرع إلى التليفون فأنتمس صاحبي في مظانة كلها ، حتى يسلمني به التليفون ، فداعبه وألاعبه ، وأعرضه ، وأتلف له ، وأقبل منه ، وأهدى إليه حتى يرضى ، وتطمئن نفسه الثائرة أو التي كنت أحسها ثائرة ، ويهدأ قلبه المضطرب أو الذي كنت أظنه مضطرباً ، ويستريح ضميره المتعب أو الذي كنت أراه متعباً .

ثم تكون مناظر أخرى تحرى الحياة فيها بيننا كما تجري بين الأصدقاء الذين تؤلف بين قلوبهم المودة والحب والإعجاب ، إلا منظر واحد أنكرته ، ولكن لم أظهر إنكارى له ، كان في مجلس لنا برفقة من غرفات لجنة التأليف ، وكنا كثيرين ، وكنا نتحدث عن الكتاب والشعر ، المحدثين ، وعن أصحاب القصيد خاصة ، وكنت أريد أن أعنى بكثرة هؤلاء الكتاب والشعر ، وأن أبين وأبين للناس ما لهم من الخاسن والعيوب ، أو ما أرى لهم من الخاسن والعيوب ، وهنا يقول ناظر الصديق الأديب . ويأتى إلى العناية بهذا الأدب الحديث ، لأنه لا يصلح أن يكون أدباً حديثاً أو قديماً ، ولأن الطابع الفنى الصحيح ينقصه ، فختلف في ذلك وتفرق على غير اتفاق .

ثم يكون منظر آخر . وما أكثر هذه المناظر التي سنألف منها هذه القصص ، والتي ستقيم لأصدقائي وخصوصى أدلة ذمعة على أتى من السكر والدهاء والخدر بحيث يظنون ! . أراهم في حجرة من حجرات البيت الذى أسكنه الآن فى الزمالات ، وقد أقبل الصديق الأديب ومعه اثنان من أصدقائنا . وكنا على موعد لنقرأ فصلاً كان الصديق الأديب يريد أن ينشره فى الرسالة . ولكن أصدقاء آخرين قد أقبلوا ، وليس بعضهم أن يقرءوا آثارنا الأدبية أو يسمعوها قبل أن نذاع . فنتحدث

البحر ، ونسمع منهم ، ويطول الحديث ، حتى إذا تمت الساعة التاسعة انصرف  
الأصدقاء ، وبقينا نحن فنقرأ الفصل على طوله ، ونحاور فيه ، ثم لا نفترق حتى  
تنتصف الساعة الحادية عشرة . وشهد الله لقد كان في بيتي تلك الليلة مريض هو  
أخي عندي من ألف أدب وأدب ومن ألف أدب وأدب ، ومن الحياة والأحياء  
بدماء ، فما ترددت مع ذلك في أن أسمع . وأحاور ، وأقترح التغيير والتبديل ،  
كل لو كنت مستريحاً فأرغ البال .

ثم تكون مناظر أخرى أسمع في بعضها اللوم لأنني أحب توفيق الحكيم ، وأقرأ  
في بعضها الشتم لأنني أكره توفيق الحكيم . وأنا أسمع اللوم اللاتمين ، وأنتحك لشم  
اللاتمين ، لأنني لم أحب هذا الكتاب إلا لأنه ألهمني الحب ، ولم أعجب بهذا  
الكتاب إلا لأنه ألهمني الإعجاب .

ثم أكتب إلى « المصور » فصلاً عن الأدب القليل في مصر . فلا يكاد ينشر  
حتى يتحدث إلي من يتحدث بأن الكتاب الأدب مُغَضَّبٌ من هذا الفصل لأنني  
لم أسفه فيه ، ولأنني زعمت أن قصصه التمثيلية على جفاف وروعها قد لا تلائم  
المصري ، فلا أحفل بحدث المتحدثين . ولا ينش التالين ، وأقرأ في المصور  
بعد ذلك ردّاً من توفيق . فيه عوج كثير ، وقوة هذا العوج مداعبة لصاحبه ،  
ولا تباله . ثم يبلغني أنه قد سمي إلي في بيتي مساء الاثنين الماضي ، فلما لم يجدي فيه  
وقت في تحيته ومودته وانصرف . ثم أكتب عن شهرزاد ، فلا يكاد يظهر حديثي  
عن شهرزاد حتى أتاني من صديقي توفيق هذا الكتاب صباح الخميس لا يحملني إلى  
البريد ، وإنما يحمله ساع خاص ، ولا يكتبه توفيق بخطه وإنما يضربه على الآلة  
الكتابة ضرباً ، ويتنقل الصديق فيضيه بخطه . ولست أعرف آية في الأدب  
والفردية والوفاء وصدق الرأي في الأدب والنقد ، والصلة بين الكتاب والناقدين  
تشبه هذا الكتاب . ولا غرابة في هذا : فتوفيق قد عاهدنا على ألا يكتب إلا كان

مبدعاً مبتكراً . وأنا أشير نزع هذا الكتاب لأنه سيكون باقياً على الدهر ، ولأنه  
سيقع من الكتاب والناقدين في هذا العصر موقع تلك الوحية التي زعموا أن  
عبد الحميد قد أذاعها في الكتاب القدماء آخر أيام بني أمية .

قال الصديق توفيق الحكيم :

« عزيزي الدكتور طه حسين

يظهر أني سبيء الحظ معك ، أو أنك سبيء الحظ معي هذا الأسبوع . فقلت قرأت  
مقالك عن شهرزاد ، وما أحببتا تلافيت فيه عند رأي . فأما قولك إنني أدخلت في  
الأدب العربي فناً جديداً وأنت يحدث ما يسبقني إليه أحد ، فهذا إسراف سبق لي  
أن أشيرت إليه في خطاب من إليث عن أدب الجاحظ ذكرت فيه يومئذ أن  
للجاحظ ملكة في إنشاء الحوار تذكر ببعض كتاب المسرح من الغربيين .  
فما أنا إذا مبتدع ، وإنما أنا أحد المثرين في طريق شقه الشرق من قبل . وما  
حبيب قصصى من البقاء . قلت أعتقد أن لناقد معاصر حق الجزم به ، وما يلهت  
من البساطة حد تصديق ناقد حكم في هذا : فإن الزمن وحده هو الكفيل بالحكم  
للأعمال بالبقاء . فإني كما ترى لا أسمح لنفسي بقبول مثل هذا التناء ، وكذلك  
لست أسمح لأحد أن يحاطبني بلسان التمجيع . فما أنا في حاجة إلى ذلك . إنني  
منذ أمد بعيد أعرف ما أصنع . ولقد أنفقت الأعوام أراجع ما أكتب قبل أن  
أنشر وأذيع . كما أني لست في حاجة إلى أن يحل عليّ ناقد قراءة بعينها ، وإنني منذ  
زمن طويل أعرف ماذا أقول . وما إخطاك تجهل أني قرأت في الفلسفة القديمة  
والحديثة وحدها ما لا يقل عما قرأت أنت . وما أحسبك كذلك تجهل أني أعرف  
الناس بما عندي من نقص . وأعلم الناس بما أحتاج إليه من أدوات . فأرجو  
منك أن تصحح موقعي أمام الناس وألا تضطرنني إلى أن أثولي ذلك بنفسى . »

توفيق الحكيم



وأنا أسرع قبل كل شيء إلى تصحيح موقف توفيق لا أمام الناس ، بل أمام نفسه وأمام رؤسائه في وزارة المعارف . فقد كنت أشفق عليه من هؤلاء الرؤساء ، كنت أشفق عليه من نفسه إذا اتصل هؤلاء الرؤساء . فالذين يعملون في وزارة المعارف لا ينبغي أن تظهر الصلة بينهم وبينى ، لأن هذه الصلة خطيرة حقاً . وأنت في قوم يعملون في هذه الوزارة ثم يتصلون برجل لا يزال من يوم إلى يوم في هذه الوزارة ورؤساءها بالنقد الشديد ! وأؤكد لصديق توفيق أنى لم أنشر كتابه إلا تصحيحاً لموقفه أمام رؤسائه وأمام نفسه . وسيعمل رؤسائه منذ اليوم أنه قد أتى إلى عداوى غير ما يبيع الإساءة ، وأنه قد قطع ما بينه وبينى من صلة . وقد سجل هذه القطيعة في كتاب ، وأنى قد سجلت هذه القطيعة في صحيفة . لا يسع أمرها بين الناس . وأظن أن رؤسائه منذ اليوم سيمرتقون به ، ويطنون عليه ، ويحسون الزأى فيه . وأظن أنه سيحس سبب ذلك فيطمئن على منصبه ويستريح إلى رضا رؤسائه عنه ، ويتسم له الأمل في المستقبل البعيد .

والآن وقد صحت موقف توفيق أمام نفسه وأمام رؤسائه ، أريد أن أصح موقفه أمام الناس وأمام الأخلاق وأمام الأدب أيضاً . موقفه أمام هؤلاء جميعاً في حاجة إلى تصحيح لم يخطر لصديقنا بيان فينا يظهر : لأنه كان مشغولاً بنفسه ورؤسائه . ولعله كان مشغولاً بذلك القميص الشديد الذي أخرج كثيراً من الناس عن أطوارهم منذ أيام .

فأما قول توفيق إنى أسرفت حين زعمت أنه أحدث في الأدب العربى حديثاً فليسفه إليه أحد ، فإني أحمد له وإن كنت أعرف أن هذا الكلام كان يرضيه . وأنه كان يحب أن يسمعه وأن يقرأه قبل هذا الأسبوع الذى هاجمت فيه وزارة المعارف مهاجمة عنيفة . ومن الحق أنه تحدث إلى بأن للمباحظ ملكة حوار ،

ولكن من الحق أيضاً أني نهته إلى أن الحوار شيء، والتشيل شيء آخر، وإلى أن الكاتب يستطيع أن يكون محاوراً مجيداً دون أن يبلغ من التشيل شيئاً. فإذا كان الجاحظ قد اتقن الحوار وبرع فيه، فلا ينبغي أن يفهم من هذا بحال أن الجاحظ قد عرف التشيل أو أمثاله أو كان يتمكن أن يحضر له التشيل على بال. وإنه من الموقر حقاً أن أحتاج إلى أن أسوق مثل هذا الكلام إلى كاتب أدب كتوفيق. قرأ من آثار القدماء والتخمين مثل ما قرأت على الأقل.

وأما أن توفيقاً يتكر على أن أحكم تقصصه بالثبته، فهذا إصراف منه كثير. فمنع الناقد من أحرار في عرف من ذلك وما تنكر، وفيما ثبت من ذلك تمحو. وما دام الزمان هو الحكم الأخير في هذا كله فما يضير صاحبنا أن يحكم له أو أن يحكم عليه! وأغرب من هذا كله أن يرفض توفيق ما أهديت إليه من شيء، فيعلم أني لم أهد الشئ إلى شخصه ليرفضه أو يقبله. وأن شخصه لا يعني إلا قديماً منذ الآن، وإنما أهدت الشئ إلى فيه، وما رأت أهديه إليه. وإن يستطيع هو أن يردّه. وكنت أحب له أن يفرق بين شخصه القاني وقنه الباقي.

وأما أنه لا يسمح لأحد أن يحذرنه بقلعة التشجيع، فقد كنت أحب أن يكون أذكى في حياته العملية من أن يشارك رئيس الوزارة في لغته. «فلا تسمح» هذه كلمة يتسلها رئيس الوزراء التهم وحده. ولكن الذي يجعل نفسه دولة لا يندد في أن يستعير لغة الوزراء. وهو بعد حر في أن يسمح أو لا يسمح، فسأشجعه على رغم منه. لأن فيه يستحق التشجيع. ولأن واجبنا الأدبي يفرض علينا تشجيع المجيدين فرضاً. وأما أنه لا يسمح لأحد بأن يدلّه على ما يقرأ، وأنه قرأ في الفلسفة القديمة والحديثة مثل ما قرأت على الأقل، فإني أحب أن يعلم أن ما قرأه لا يرضيني لنفسى ولا لغيرى. وأنى أبذل ما أمالك من الجهد لأقرأ أكثر مما قرأت وما قرأت لغيرى. وأسأل الله أن يمتحن وأن يقيمه شر الخور. فهو مهلك للنفس حقاً.

وأما أنه أعرف الناس بما ينقصه ، وأعلم الناس بما يحتاج إليه من الأدوات وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى نقد نقد ، فهذا رأيي في نفسه منذ الآن وهو لا يشرفه ولا يزعج منزله عند أحد . أما أنا فرى لنفسى الحق في أن أدل كل كاتب يخرج من كتأبأ على رأيي فيمن ينقصه وفي يحتاج إليه . وهو حر في أن يقبل أو يرفض ولكني حر كذلك في أن أقول نه ما أريد .

أما بعد ، فهل صححت موقف توفيق أمه الناس ، أم هل لا يزال مضطراً إلى أن يصححه نفسه ؟ أحب أن يعلم توفيق أني لن أرد عليه بعد الآن . ولن أنبل به إلا يوم يخرج لنا كتاباً يقرؤه . وربما سأعلن رأيي في هذا الكتاب . رضى توفيق أم سقط . وإن أرجو أن يكون رأيي في كتبه المقبلة حسناً . أني في أهل الكهف وشهراد . وأرجو بعد هذا كله أن يسدبر الكتاب وشعراء هذه القصة التمثيلية فإن ميب عبراً وعظات . وإن أمثالها مع الأسف في مصر لبس بالقليل .

## رد على الدولة

والدولة هي صديق توفيق الحكيم . وقد شير هذا الكلام في نفسك شيئاً من  
العجب ، ولكن ما حيلتي والفن سلطان كما يقولون ؟ وأين يكون الفن إذا لم يكن  
عند صديقنا توفيق ؟ قد امتزج بلحمه ودمه وسيطر على حياته كلها حتى جعله  
رجلاً غريب الأطوار بين الرجل وكاتباً فذاً شذاً بين الكاتب  
( تغدى صديقنا توفيق الحكيم ذات يوم وكان التقيط شديداً . والحر مهلكاً .  
فلما فرغ من الغداء شرب القهوة وسافرغ من شرب القهوة بسط ورقاً أمامه  
واعتنق كما تقول البرودي رحمه الله ولما في يده وأرسل نفسه في عالم الأحلام  
والأوهام وأرسل يده تجري على القرباس بما تنمي عليها هذه النفس الحاملة المأهله )  
وكذلك يفعل أصحاب الفن . يحمون . ويتوهمون . ثم يكتبون . ثم يذيعون .  
فإذا نحن قرأ من أحلامهم وأوهامهم آيات من شعر البيان . ولو أن صديقنا  
توفيق الحكيم كان رجلاً مثلك ومثلي من عباد الله الذين لا حفظ لهم من فن . أو  
الذين لا يواتهم الفن إلا بمقدار . ما دفع نفسه إلى الكتابة . عقب فراغه من الطعام  
وشرب القهوة . والحر مهلك والتقيط شديد . وإنما شأن مثلك ومثلي إذا فرغ من  
الطعام وشرب القهوة أن يهوى إلى مصحفه لستر يخ وألا يأخذ الفن من وقته إلا ساعة  
الراحة وفراغ البال . والراحة هنا لا تأتي من تغريك في جوفه ألوان الطعام . ولا  
تبلغ القهوة أن تهدي ما بينها من الخصام . ولكن صديقنا صاحب فن لا يطرق  
على الفن باباً . وإنما يقتحم الفن عليه حياته اقتحاماً . ولعله لو خير لاختار الراحة

والنوم . ولكن أنى له الاختيار وقد سلب الفن عليه شياطينه أو أخته ، فهم يسخرونه  
 لأموالهم آناء الليل وأطراف النهار . ولا تظن أنى أعبت بتوفيق ، فهو أحب إلى  
 منى عندى ، من أن أتخذ موضوعا للعبث ، وما أكثر الذين يصلحون موضوعا للعبث  
 بيننا ، لو أننى أحب العبث بالناس . ولكن صديق توفيق هو الذى عبث بنفسه  
 فى الذى أنبأنا بأنه تغدى وشرب القهوة ، ثم أخذ يكتب . وبأنه يشك فى قيمة  
 ما كان يكتبه فى هذه الساعة التى لا تحسن فيها الكتابة ، وكان توفيق قبل أن  
 تغدى ويشرب القهوة وبأخذ فى الكتابة . قد قرأ فصلا يسيرا نشرته فى مجلة  
 المصور ، وكان هذا الفصل لم يعجبه . ونست أدري أهيا معدته للظعام أم صدها عنه ،  
 ولكن الذى يهتينا به توفيق ، هو أنه لم يكذب فرغ من طعامه وقهوته حتى همم  
 فى هذا الفصل وأشبعه نقدا ، وردا وغيدا . وأكبر الظن أنه لم يكذب فرغ من  
 كتابة هذا النقد والرد والتفيد حتى أرسله إلى المصور . وتعجل إرساله ليخلص  
 من الاستريح من معاودة النظر فيه . فصدقت توفيق كعيره من أصحاب الفن لا يستطيع  
 أن يستريح مما كتب إلا إذا أخرجه عن سلطانه ودفعه إلى الناس . وبالفهم مضطر  
 إلى أن يعيد النظر فيه . فيغير ويبدل . ويقص ويزيد . وكأنا آسف لأنه  
 تعجل بإرسال فصله إلى المصور ولم يراجعه بعد أن استقر فى جوفه غداؤه وقهوته  
 ومد أن ذهبت عنه سكرة الحضر والضيف . إذا تغير وبذل . وحذف وأضاف ،  
 وأرسل إلى المصور فصلا آخر يقول فيه غير ما قل . ويؤيد كل ما قلت أنا ،  
 لا يتحفظ فى ذلك ولا يحتاط . ولكن الفن على أحواله جنيات أيسرها ما أصاب  
 صديقنا فى هذا الفصل الذى أريد أن أورد عليه .

وأول جناية الفن على توفيق فى هذا الفصل أنه عبث به حقا . فحبل إليه أنه  
 الدولة ، وأطلق لسانه بهذا الكلام . وأقنع بأنه قد ملك سلطان الدولة أسبوعا  
 كاملا ، فهو يستطيع أن يسمع منى ويتعنى أو يعنى ما أرفع إليه من المطالب

والخاجات . وكنا نعلم أن لويس الرابع عشر . هو الذى كان يمزج الدولة بنفسه .  
و يمزج نفسه بالدولة . ويقول أنا الدولة . وله كان يقول والدولة أنا . كما كان شوق  
رحمه الله ينطق كل يوم بآثره بهذا الشطر الذى ذاع وشاع : أنا أنطونيو وأنطونيو أنا .  
كنا نعلم ذلك فأصبحنا نعلم الآن أن الأدب . أيضا يستطيعون أن يقولوا إنهم الدولة .  
وإن الدولة ع . مع هذا الفرق اليسير . وهو أن لويس الرابع عشر وأمثاله من الملوك  
إذا قالوا إنهم الدولة لم يبعدوا ولم يسرفوا . لأنهم من السلطان ومن حق الأمر  
والنهي والمنح والتمنع . ما يجعل قوطم هذا مقربا .

فأما الأدباء . فأنحب وعي وخيال . ينفوس في الصباح . وسون في المساء . أو يحلمون  
في الليل ويعلمون في النهار أنهم كانوا وأهمين . وما دام صدقتنا توفيق قد أصبح  
دولة وحده . - وقد كدت أمي أنه أصبح أمة وحده - فلا بأس بأن نقبل منه  
ونرفع إليه آمالك وأمانك . وكل ما سمناه هو أن يلفت هذه الآمال والأمانى قول  
أن مقتضى الأسبوع الذى فرمته نفسه . والذى سيمتلك فيه زمام الأمر والنهي .  
والغريب أنه يأتى عند أريد . وهو أنه مرأ القمص الذى كتبت . قراءة ناظر فيه .  
معنى أنه لعرف أن أريد من الدولة التى هى هو كما تقول سيمويه . أو التى هى إله  
كما يقول الكسافى . شيئين اثنين لا أكثر . أريد من الدولة التى هى توفيق . ومن  
توفيق الذى هو الدولة . أن تمنح شيئا ثقافة أدبية تمثيلية واسعة متبنة . تظهر  
على آيات التمثيل القديمة والحديثة . وعلى تاريخ التمثيل القديم والحديث . وتعلم  
كيف يحبون هذه الآيات . ويعجبون بها . ويدققونها ويحيطون بأسرارها .  
إحاطة الوائق الذى لا يخفى عليه شئ . فإن هذه الثقافة إن ظفر بها الشباب  
دفعهم إلى المحاكاة والتقليد . ثم لم تلبث أن تدفعهم إلى الابتكار والاختراع  
وإذا هم ينتجون فى التمثيل آثارا قيمة حقا .

والدولة التى هى توفيق . أو توفيق الذى هو الدولة . قادرة إن شاء الله على أن تمنح

هناك بنا هذه الثقافة ، فأنمر قبل أن ينتهي الأسبوع بدرس الأدب التمثيلي خاصة  
 في الأدب الأجنبي عامة في مدارسنا كلها . منذ بدأ التعليم الثانوي إلى أن ينتهي  
 إلى الأخر . وأنمر بإعادة المعهد الذي كانت وزارة المعارف قد أنشأته لتمثيل ، فأفهام  
 في التقاليد حين ألفت إليه الظروف مقابله هذه الوزارة البائسة النعمة . وأنا  
 كأحد الدولة التي هي توفيق ، ولتوفيق الذي هو الدولة . أن هذه الخطوة التي نطلبها  
 من السلطان في مصر كهيئة بالغة ، فوق تفتيحه هو وحده الشرط الذي لا بد  
 منه لوجود الملعب واللاعبين ولوجود التمثيل والكذب المتعفن

والأمر الثاني الذي أطلبه إلى الدولة التي هي توفيق ، وإلى توفيق الذي هو  
 الدولة ، هو أن تفضل فتبيح لأديانهم وتوفيق نفسه هذه الحرية التي لا بد  
 من لكل أدب يستطيع الانتاج والإجادة فيه . هذه الحرية التي تمكنهم من أن  
 يطبقوا موضوعات لا يستطيعون أن يطرقوها . ويعتقوا آراء لا يستطيعون أن  
 يعارضوها ، ويقولوا كلاماً لا يستطيعون أن يقولوه ، فإذا غفلت علينا الدولة ، أو إذا  
 غفلت علينا توفيق بما نريد من الحرية والثقافة ، فإن رغب وجود التمثيل عندنا .  
 بل وجود فنون الأدب كلها ، بل وجود العنصر الجميلة كلها عندنا على أكمل وجه  
 وأحسنه وأرقاه .

وأريد الآن أن أدع الدولة التي هي توفيق ، وأن أتحدث إلى توفيق الذي  
 ليس دولة ولا شيئاً يشبه الدولة ، وإنما هو رجل أدب وصاحب فن ليس غير .  
 أريد أن أتحدث إليه لأذكر عليه رأياً رآه على عجل وأسرع إلى إخافته في غير  
 الحياطة ، مع أنه حذر محتاط عادة . ولأدب توفيق لا يخرج من أن يعلن أن وجود  
 الملعب شرط لازم لوجود التمثيل أستغفر الله . بل شرط لازم لوجود الكتاب  
 المثاليين ، وأنمر من هذا أنه يستدل بالتاريخ ، وأنا أرجع معه إلى التاريخ ،  
 فلا أرى مما قال شيئاً ، فالتمثيل قد نشأ عند اليونان قبل أن ينشأ الملعب بزمان

طويل نشأ عن هذا الفن الشعري الذي كان يتغنى فيه الدوريون بما حدث  
لآلهتهم وأبطالهم ، وما زال يتطور شيئاً فشيئاً حتى قوى أمره ، وعظم شأنه ، وأصبح  
قوياً متنازلاً . والغريب أنه كان بدوياً ينتقل به أصحابه بين القرى يحملون أدواتهم  
على شئ يشبه عربات النقل . فإذا اشبهوا إلى هذه القرية وضعوا أثقالهم وعرضوا  
ما عندهم على الناس . ثم احتضنوا وانتقلوا إلى قرية أخرى . وكان الشاعر ينشد  
القصة ويمثلها . ولم يوزع العمل بين الممثلين والمستجيبين إلا في أواخر القرن الخامس  
قبل المسيح . والشاعر الممثل هو الذي أنشأ الملعب الثقيل . أنشأ بدوياً مستقلاً .  
ثم أنشأ حضرياً مستقراً . ثم كلف عن التمثيل بعد أن كثرت أشخاص القصة  
وعظم أمر التمثيل . واختصت به طبقة من الناس . وقد سمعت أن شكسبير كان  
يمثل قصصه ويشرف على تمثيلها . وما زال بين الكتاب إلى الآن من يظهرون  
القصة ويشتركون في تمثيلها . وما زال بين الممثلين من ينشدون القصة ، لأن فهم  
يلعبون بها . فليس صحيحاً تحول من الأحوال ما أملت له الأحلام بعد الغداء والقهوة  
على حديقنا توفيق من أن الملعب هو الذي يشيء التمثيل والممثلين ، والصحيح  
الذي لا شك فيه هو أن التمثيل قد أنشأ الملعب . والملعب اليوناني نفسه أثر من  
آثار الإسكوفوس . هو الذي حضره ، وأثره في أثينا بعد أن كان تسبيس ينتقل  
به بين قرى إتيكا .

على أنى لا أقوه كيف يوجد الملعب دون أن يكون هناك تمثيل ؟ وهم  
بالضبط هذا الملعب الذي يريد توفيق ؟ وما هو البناء والأدوات ؟ قالوا  
موجود ، والأدوات موجودة . واستحضرتها من أوروبا ليس عسيراً ، أدم  
اللاعبون ؟ ولكن لم يوجد اللاعبون إذا لم يوجد ما يلعبون ؟ سيقول توفيق  
فليعبوا آثار الأوربيين . وهذا حسن ، ولكن بلغنى أن في مصر ممثلين يلعبون  
آثار الأوربيين ، ويلعبون آثار المصريين أيضاً . ولكنهم لم يلعبوا بالتمثيل  
ما ينبغي له من الزق . لأن الدولة لم تكن بالتمثيل كما عنت به الدولة دائماً في غير



شعير ، ولأن الأدباء لم ينتجوا في التمثيل كما أنتج الأدباء في التمثيل دائماً في غير شعير ، وإذا كان المصعب هو الذي ينشئ التمثيل . فما الذي ينشئ التصوير ؟ المصور أم هي هذه الأدوات التي يستعين بها على فنه . وما الذي ينشئ . هل هو المثال أم الحجر الذي تتخذ منه التمثيل ؟ وما الذي أنشأ الموسيقى ؟ أم الأداة أم الموسيقى ؟ وما الذي أنشأ الشعر أهو قلب الشاعر الذي أحس وغنى . سانه الذي أدى عنه هذا الغناء ؟ وهل للكتاب إذا مرغوا من الغداء وشرب قهوة ، ثم أقبلوا على الكتابة قبل أن يهدأ عنهم القصر . ونكت عنهم نكتة . نصيحة حاتمة أهديتها إلى صديقي توفيق . وهي أن لا يكتب إلا إذا كان مستريحاً طريح البال . هذه النصيحة أهداهم بشر ابن الغنيم إلى طلاب البيان في القرن الثاني أو الثالث الهجرية . وقد أهدى مثله ومارشيه إلى الذين يريدون أن يقرأوا قصته « حلاق أشعبيه » فيندم توفيق الأديب . وتوفيق الدولة هذه النصيحة قبل أن يعرض للكتابة . ثم ليحفظ توفيق مبادئه فلا يدع بين الناس كتاب إلا بعد أن يقرأ ويعد النظر فيه .

وقوم آخرون من الكتاب يكرون على هذا الفصل الذي أنكره على توفيق . وهو يرون أني تحدثت عن التمثيل العربي وأنا أجهله . وأنا ابن أي أسرفت في مدح توفيق والله عليه . فأما أني تحدثت عن التمثيل . وأنا أجهله فقامت قوما لا ينبغي أن يظنوا . وأنا أعوذ بالله من الحديث عن غير علم . وأهد هؤلاء الكتاب على أني سأحاول أدب التمثيل الحديث بالدرس والنقد النصف ، وسيعلمون يومئذ أني لم أكتب إلا عن قراءة ودراسة وعلم .

وأما أني أسرفت في مدح توفيق . فهذا رأيي يرويه ولا أراه . وأنا آسف أشد الأسف لأنني ما زلت معجباً بتوفيق . ولأنني أسوء خصومه وحسادته بتجديد الله عليه والتشجيع له حين أعرض قصته التمثيلية التي لم أعرض لها بعد ، سيكون ذلك قريباً أقرب مما يظنون . فإني الغد .

## پراکسا ، أو مشكلة الحكم

لأستاذ توفيق الحكيم

قصة صغيرة جدا . قصيرة جدا لا تتجاوز فيلانا من فصول الصحف والمجلات إلا قليلا ، ولكنها مع ذلك تحتاج إلى كلام كثير . وأخشى إن جازيت حاتمها إلى الكلام أن يكون النقد مسنونا كقصص في الطول . ولكني مع ذلك سأجهد في الإيجاز وفقا بالقارى ، وفقا بالكتاب . وأحذر التقليد الذي يريد أن يكون الأستاذ توفيق الحكيم قد نشر كتابا ، وأن يكون أنا قد نقدته في مسائل لا في كتاب .

وقصة الأستاذ توفيق الحكيم لها قصة كما يقال منذ أعوام ، فهي لم تهبط على الكاتب من سماء أوحى الأدبي الخالق . ولم تنض بها في نفسه ينبوع الاشتغال الفني الصريف . ولم يسمع بها إليه أبوتون أو هرميس أو غيرها من هؤلاء الألفه الذين يحبون الفن والأدب . ويسمعون به إلى الكتاب والشعراء ، فيلقونه في روعهم إلقاء ويكرهون ألسنتهم على أن تنطق به كلاما ، وأقلامهم على أن تجرى به كتابة . وإنما نشأت هذه القصة في حجرة من حجرات الاستقبال ، وأثير موضوعها في حديث من هذه الأحاديث الأدبية التي يتنازعها المتفقون إذا ضمهم مجلس من المجالس أو ندى من الندى . وربما كانت محنة الأستاذ توفيق الحكيم ، التي ينسبها القراء بعد ، هي التي أثارها هذا الحديث . فإن كل شيء يعس حرية الرأي من قريب أو بعيد قد نكت عنه الصحف في هذه الأيام ، ويعرض عنه الذين

يجب عليهم أن يقبلوا عليه في هذه الظروف القاسية . وسكن تلاميذه ، والمتقنين .  
قد بدأ تشعر ، وعقولا تنكسر ، وضحاياهم . ونفوساً تريد على أقل تقدير أن تأتي  
السيح ، وإن لم تستطع أن تجبر بهذا الإباء . والعقل متمحن في هذه الأيام ، ومتمحن  
في كثير من أقطار الأرض : وسرى كيف يخرج من هذه الحنة ، فإن لم نزل نحن  
ذات فسيراه أبناءنا أو أحفادنا في يوم قريب أو بعيد .

كانت محنة الأستاذ توفيق الحكيم إذا هي التي أثارت هذا الحديث حول حرية  
الدين ، وحول ما كان القدماء يستمتعون به منها . وحول المقارنة بين حرية  
الديانة الديمقراطية الأثينية القديمة في القرنين الخامس والرابع قبل المسيح ، والديمقراطية  
اليسرية الحديثة في القرن العشرين . وتحدث المتقنون الذين تدرعوا هذا الموضوع  
عن عبث أرسطوفان بالديمقراطية منذ أربعة وعشرين قرناً ، وعن ضرره بتأهية  
الديمقراطية على حساب الديمقراطية . وبالنسبة للأثينيين ، وبإحدى المثلين لسلطان  
الدين على حساب سلطان الشعب . وبهذه الحرية الساحة التي عرفها القدماء  
من أن يبلغ العقل من الرقي هذا الطور العظيم الذي بلغه في هذا العصر .

وقد ذكر المتقنون فيما ذكروا قصصاً مضحكة خالدة لأرسطوفان من بينها قصة  
جنس النساء ، أو جماعة النساء ، التي مثلت في أوائل القرن الرابع قبل المسيح ،  
حين كانت الديمقراطية الأثينية شديدة المنحرج . شديدة الضيق بخصوصها  
ومعارضتها من الفلاسفة والساسة .

فلم يستقبلها الأثينيون إلا بالاضحكت والإعجاب ، وهذه الساحة التي تلائم طبيعة  
الديمقراطية ، والتي قد تفارق أحياناً قسوق الديمقراطية الموت إلى سقراط ،  
وتضطر أفلاطون إلى الهجرة . ثم ذكر هؤلاء المتقنون ما يكون في العصر الحديث  
من إقبال طائفة من الكتاب على تجويد التمثيل القديم ، وما يبلغون في ذلك من  
توفيق رائع . كالذي بلغه موريس دوييه ، وجيروودو ، و « جان كوكنو » حين

جددوا بعض القصص اليونانية المحزنة أو المضحكة ، وقال قائل منهم : ما يمنعنا  
أن نحاول في أدبنا العربي بعض ما يحاول الأوروبيون في أدبهم الأوروبية ؟ ورضي  
السامعون عن هذا الاقتراح ، ورسخوا أو كدوا يرسمون له برنامجاً واضحاً ، وتفرقوا  
المجلس ، والتأم بعد أسبوع ، وأعيد الحديث ، وتقدم رسم البرنامج ، وتفرقوا  
المجلس مرة أخرى . والتأم بعد ذلك . ولكن الأستاذ توفيق الحكيم انتزع عنه  
وقتاً . ثم عاد إليه ذات يوم . ومعه هذه القصة مطبوعة وعنوانها كما رأيت  
« براكسا . أو مشكلة الحكم » .

فالتحمده لجنة الأستاذ توفيق الحكيم هذه البسيرة . فضلتها على الأستاذ وعلى  
قرائه ، وعلى الأدب العربي الحديث الذي أخذ يتصل بالتمثيل اليوناني المضحك  
هذا النحو الخطيب القيم من الافعال . ونشتم على الله أن يزيد هذا الاتصال  
وبقويه . وأن يكثر أمثال هذه القصة دون أن يدعو إلى ذلك محنة بسيرة أو  
عسيرة للأستاذ أو لغيره في حرية الرأي . وإن كان كل مني . بدل على أن حرية  
الرأي لم تأمن بعد شر الامتحان . وعلى أن هذا الامتحان مهما يكن مؤلماً ثقيلاً ،  
فيؤتي نتجاً جيداً ، لأنه يدفع الأديب إلى التفكير . ثم إلى التعبير . ثم إلى النشر .  
والظاهر أن الأديب مخدق تستقيم أموره على الشقاء والألم ، أكثر مما تستقيم على  
السعادة واللذة .

فلنقف إذاً عند هذه القصة الصغيرة ، بل لنقف قبل ذلك عند أصلها اليوناني .  
فقد طلب إلينا الأستاذ توفيق الحكيم أن نقرأ قصة أرسطوفان قبل أن نقرأ قصته .  
وقد عدت إلى قصة أرسطوفان بعد طول عهدي بها ، ثم قرأت قصة الأستاذ  
توفيق الحكيم ، فحمدت الأستاذ تواضعه واعتداله ، وإيمانه القصد ، واعتراه  
بأنه لا يستطيع أن يقبس قامته إلى قمة أرسطوفان . وهو صادق في هذا كل  
الصدق ، موفق فيه إلى الحق كل التوفيق ، فإن قامته أرسطوفان لا تقاس إليها

تعد قوة أخرى إلا أن نستثنى بعض المتأخرين الذين لا تستطع الإنسانية أن تبلغ بهم  
أدبها اليد الواحدة .

أراد أرسطوفان أن يسخر من الديمقراطية والفلسفة معاً في قصته هذه ، وأن  
يرفع إلى حلت الأثينيين من أحب الأشياء إليهم ، وتحررها عندهم من الفلسفة والسياسة ،  
فبحم بقصته هذه الصغيرة على موضوع خطير جداً . سخر من أفلاطون وجمهوريته  
في هذه القصة ، كما سخر من سقراط في قصة السحاب . وسخر من النظم  
الديمقراطية القائمة . وأظهر للشعب الأثيني أن ما يقترحه الفلاسفة من النظم  
السياسية ليس خيراً من النظام الديمقراطي . ولعل أن يكون شرأ منه ، بل هو  
شر منه . ما في ذلك شك .

وتلخيص القصة يسير جداً . فقد انتشر الناس الأثينيات بأن يتخذوا أزياء  
الرجال ، ويشهدون مجلس الشعب . وسنن كثيرته المظلمة . ويقررون نقل السلطان  
من الرجال إلى النساء . ونعم حين ذلك . فتلعب نقاء الحكم وأقن الشيوعية ،  
كما كان يتصورها أفلاطون . مقام الديمقراطية . وأشرف على تنفيذ هذا النظام  
الشيوعي . فما هي إلا أن يمضي وقت قصير حتى يعد الأمر في أثينا فساداً  
لا سبيل إلى وصفه . فساداً يتناول السياسة والأخلاق والنظام الاجتماعي والحياة  
الدينية نفسها ، ويقلب الأوضاع قلباً على ما يوصف به أنه يدفع إلى الإغراق  
في فحل متفعل . ويجب أن تعلم أن أرسطوفان ليس من أعداء الديمقراطية  
الخصمين . وهو إلى الأرسطوقراطية المقتدة أقرب منه إلى أي شيء آخر . ولكن  
لهم أن الشاعر اليوناني العظيم قد دفع الشعب الأثيني إلى هذا الضحك الغليظ  
الذي يرض ، فلم يمنع ذلك من أن يعالج موضوعاً على هذا الخطر الذي تراه ، وأن  
يلجأ على نحو جميل رائع جداً . ولابد من أن أضيف إلى هذا كله أن الشاعر  
اليوناني العظيم قد كان يستطيع في أدبه المضحك حرية في اللفظ والمعنى والخيال ،

لا تحتلها أدواقنا ولا أخلاقنا ولا نضمن الاحتمالية ، وكثير جداً من قصصنا  
لا يمكن أن تقرأ جيداً . وإنما تقرأها العين وتقرأها الفرد . وليس من اليسير  
أن يشترك في قراءتها الأفراد . هذا كله يصور صعوبة العمل الذي أقدم عليه  
الأستاذ توفيق الحكيم . فبوقبل كل شيء ، ممنوع بحكم حياتنا الجديدة ، وبحكم  
أدواقنا وأخلاقنا من أن يصطنع الحرية المنطقية والفنية التي اصطنعها الشاعر  
اليوناني ، وهو بعد هذا ممنوع بحكم نظام الاجتماعى والقانونى من أن يتعرض  
للسيوعية أو ما يشبهها . فهو مقيد في حريته العقلية ، وهو مقيد في حريته الفنية .  
فإذا أضفت هذا إلى بعد الأمد بين أرسنوفان وبين الأستاذ توفيق الحكيم  
عرفت أنه قد كان من المستحيل لا أن ينسب الأستاذ توفيق الحكيم قامة إلى  
قامة أرسنوفان فذلك شيء مفروغ منه : بل أن ينسب قصته إلى قصة أرسنوفان ،  
فإن الأدب القيد لا يقاس إلى الأدب الحر . وأنت توافقنى على أن الكاتب  
الناطقة ، أو الشاعر الناطقة لا يستطيع أن يذعن للقيد ، أبداً القيد الذى يمس  
العقل والفن ، وإن أكره على أن يذعن للقيود والأغلال التى تمس الأيدي  
والأرجل والأعناق . . .

أما قصة الأستاذ توفيق الحكيم فقد ذهبت مذهب القصة اليونانية ، واحتفظت  
حتى ببعض العاطفة التى يمكن الاحتفاظ بها . وهى على كل حال قد جرت فى أثينا ،  
وأجراها الأشخاص الأثينيون الذين أجروا قصة أرسنوفان . فقد اثمر النساء بقلب  
نظام الحكم فقلبنه ، وقامت براكناس جورا مقام رئيس الدولة ، وهنا يظهر الفرق  
الهامثل بين القصةين . فقاما صاحبة الأستاذ توفيق الحكيم ، فقد أدركها الاضطراب  
الذى يدرك رؤساء الحكومات الحزبية فى مصر : كثر عليها الطلب ، وعجزت  
عن تخفيض المطالب ودفعت إلى أن تعد بما لا تستطيع ، وإلى أن تنورط فى  
المتناقضات . ولكنها امرأة جميلة ، وفى نفسها ضعف لقائد الجيش . وقائد الجيش

مصلحة جميل ، فيقوم الحب والجمال بإقامة القصة : يقبل قائد الجيش ليتحدث إلى  
رئيسة الدولة في تدير حرب داهمة . ولكنه يخون إليها هذه الحجة . ويحتجبان  
عليه عن الفيلسوف الناصح الآخر . وحتى عن الزوج . ولا يعلم سر هذا  
الحكم الاحتجاب إلا كاتمة السر . ومن بدرى ؟ أهل القوم جميعاً يعلمونه ، فقد علمناه  
بأنهم نحن أيضاً .

وتنتهى قصة الأستاذ توفيق الحكيم الشهيرة رقيقة مؤلمة ، فقد انتصر حب  
الطغان على حب الرجال . وانتصر قائد الجيش على رئيسة الدولة : سجن  
الفيلسوف أولاً ، وسجن معه رئيسة الدولة آخر الأمر . وفي النظام الديكتاتوري  
الشرعي مقام النظام الديمقراطي . وسجن الحرية بين أربعة جدران .

وقصة الأستاذ توفيق الحكيم لا تدعو إلى الضحك القوي العريض ،  
ولما شير الابتسام أحياناً ، وقد تدعو إلى صحت خفيف فائر أحياناً أخرى ،  
هي لا تدعو إلى الحزن القوي المؤلم . وإنما تسبغ لوناً شاحباً على حياة الناس  
تفشي شعوباً من هذا اللون الذي نسمه عليها طبيعة الأشياء . في هذه الأيام .  
وعنصرية معروفة للخطر في كثير من أقطار الأرض . والنظام الديكتاتوري منتصر  
في بعض هذه الأقطار . والناس يرون من ذلك ، ومن آثاره أكثر مما يريدون .  
الأستاذ توفيق الحكيم ، وهم يشعرون بحقائق ذلك في تحكيهم وسيرتهم . وفي  
إحساسهم وشعورهم ، أكثر مما يشعرون بقصة الأستاذ توفيق الحكيم ، وهم أمام  
هذه الأحداث الخطيرة التي تحقق بهم وتأخذهم من كل وجه ، محتاجون إلى  
بعض قصتين : فاما قصة عنيفة محزنة دافعة إلى العمل والشاط ، مثيرة للنخوة  
والنجاعة ، ترد عنهم الخوف ، وتذود عنهم الترقق ، وتدفعهم إلى المقاومة ،  
ليحتفظوا بالحرية أو ليستردوها ، وهذه القصة يكتبها الأستاذ توفيق الحكيم .  
وبما قصة قوية ، ولكنها قوية في التلبية والتسلية ، وتفرج الغم ، وإخراج

الناس عن أنفسهم ، لينسوا بعض ما يحيط بهم من خطر . وبعض ما يسعى إليهم من مكرهه ، وهذه القصة لما يكتب الأستاذ توفيق الحكيم . وإننا كتبنا أرسطوفان ، ولكن قصة أرسطوفان كتبت للأثينيين ، لا للشعوب الحديثة ، وهي قد تعجب المثقفين من المحدثين . ولكنها تنبؤ عن أذواق الكثرة من الناس ، أو تنبؤ عنها أذواق الكثرة من الناس . وإذا فما زال الناس في حاجة إلى هذه القصة أو تلك .

فأما قصة الأستاذ توفيق الحكيم فهي لا تضحك ولا تبكي ، وهي لا تسر ولا تخزن . وكل ما تستطيع أن تفعله هو أنها تمكنك من أن تنفق ساعة هينة أينة . تقرأ فيها كلاماً هيناً ليناً . لا يخرج من لذة . ولكنه لا يحدث في النفس شيئاً . ولا يدعو النفس إلى تفكير . فضلاً عن أن يدعوها إلى عمل . وهي إلى أن تكون تصويراً لسخرية الأستاذ توفيق الحكيم من مشكلات الحكماء ، أقرب منها إلى أي شيء آخر .

فالأستاذ قد يحب الديمقراطية على أنها مثل أعلى لا يستطيع الناس تحقيقه . فأما الديمقراطية الواقعة فهي تنبئ بها مشكوك فيه .

والأستاذ قد يحتمل النظام الدكتاتوري . بشرط أن تتحقق في ظله الحرية والعدالة ، وإس إلى ذلك من سبيل . لأن الحرية والعدالة تناقضان النظام الذي يقوم على سلطان الفرد وتحكمه . وإذا فالأستاذ يسخر من هذا النظام ، كما يسخر من ذلك . وأكبر الظن أنه يؤتمر المراجعات ، والتخيل أن يفرغ لهذا الفن . وحسه على كل حال أنه قد أضاف إلى آثاره القيمة أمراً جديداً ، وصل فيه أسباب أدبنا المعاصر الحديث بأسباب الكوميديا اليونانية ، وليس هذا بالشئ القليل .



## قصتان ! . . .

إحداهما لموليير ، والأخرى لجيرودو . وموضوعهما واحد ، أو يوشك أن يكون واحداً . وعنوانهما واحد على كل حال ، ومذهب الكاتبين فيهما واحد . وإذا أراد الكاتب المعاصر جيرودو أن يقلد الكاتب القديم والشاعر العظيم موليير ، فإن يحدد قصته ، كما صنع بقصص يونانية قديمة ، فحدها وأحيا أبطالها القدماء ، وحيا ما كان يعلم بهم من أحداث ، وأجرى الحوار بينهم في هذه الأحداث نفسها ، ولكنه أجراه على نحو لا يصور به الأحداث القديمة ، والعقل القديم . والشعور القديم بحسب ؛ وإنما يصور به الحياة الحديثة ، والعقل الحديث ، والشعور الحديث . ولعل على تصوير الحياة المعاصرة وأحداثها أحرص منه على أن يصور الحياة القديمة وما كان فيها من المخطوب ، أو لعل أحرص على أن يعقق غاية الفنية البالغة غير حافل بالحياة القديمة ولا بالحياة الحديثة إلا بتقدير ما تقدمان له من المادة لتحقيق هذه الغاية الفنية . وهي مجرد إمتاع العقل والشعور بلون من الأحداث والحوار يلائم ميله إلى الدعابة والفكاهة والعث بكل شيء ، والسخر من كل شيء . واستخلاص العظة والعبرة من هذا السخر وذات العث دائماً .

وقد وفق جيرودو في هذا النحو من تجديد القديم إلى آيات فنية رائعة بأربعة حقاً ، يقف منها القراء والنظارة موقف الدهش والخيرة والإعجاب . ولست أنسى تجديد قصته الكترا ، وعرضه أحداث هذه القصة على طريقته هذه الغريبة ، التي تملؤها المفاجآت ، ويكثر فيها التقليل بين النقاتن ، والمزئول من طور إلى

طور آخر لا يلائمه ولا يشاكله ، وإلحاق القدماء بما لا يمكن أن ينطق به إلا  
المحدثون . والانتباه بعد ذلك إلى تصوير ما يتميز به هذا العصر الحديث من اضطراب  
الخواطر والآراء ، واحتلاط الأمر على أهله ، حتى يخيل إليهم ، أو إلى أصحاب  
النداجة منهم ، أن أمور الناس كلها سائرة إلى الفساد ، ولكن حكمهم -  
وهو شخص نظير عليه أمارات البهت والغفلة ، وآيات النقر والإعدام ، حتى يراء  
بعضهم بأنها سؤلة ، ويراه بعضهم الآخر بأنها عاقبة - هذا الحكم بينهم بأن  
فساد أمورهم هذا ليس شرًا ولا نكرًا ، ولكنه فجر لعصر جديد .

قرأت قصة أكثر هذه مرة وشهدت تمثيلها مرتين ، وما زال أحب شيء إلي  
أن أجد المهدى فقرؤها مرة ومرة ، وأشهد تمثيلها مرة ومرة كذلك . ولكنني  
أكتب لأحدث عن أكثرها ، فقد نتاج لي أن أتحدث إليك عنها في فرصة  
أخرى . وإنما كتبت لأحدث عن هذه القصة التي حملت إنيما أخيراً والتي  
تجدد قصة قديمة لموليير . وقد قلت إن عنوان القصة واحد ، فقد سمى لموليير  
قصته *ارتجال فرساي* *L'improvisation de Versailles* وسمى جيرودو قصته  
*ارتجال باريس* *L'improvisation de Paris* وقلت إن موضوع القصة واحد أو  
يوشك أن يكون واحداً ، وإن مذهبهما واحد على كل حال . فقد خطر لموليير  
سنة ١٦٦٤ أن يرّد على بعض خصومه ومنافسيه من الممثلين الذين كانوا يعيبونه  
ويشتطون عليه في النقد ، فلم يرّد عليهم بكتاب يؤلف أو رسالة تنشر أو فصل  
يذاع ؛ وإنما يرّد عليهم بقصة تشال ، وزعم أنه ارتجال تشيل هذه القصة *ارتجالاً* .  
أخذ فرقة بأن تشال يعني لدى الملك عن غير استعداد للتشيل ، وعلى غير استظهار  
لحوار أعد من قبل . وإنما ينبغي أن يتخيل كل ممثل وكل ممثلة الشخص الذي  
يجب أن يصوره . وأن ينطق على لسان هذا الشخص بما ينبغي أن ينطق به

بالاخص نفسه ، وأن يأتي من الحركات ويضطر من الأشكال ويتخذ من جرس الصوت وتتيحه ما ينبغي لذلك الشخص أن يأتي به .

وقد خطر لموليير أن يهين ، فرقة الإعادة في وقت قصير جداً قبل مقدم الملك ليهود التمثيل ، وجعل أعضاء الفرقة يعملون عليه لأنهم لا يستطيعون التمثيل على غير تأهب ولا استظهار ، وجعل هو يسر الأمر عليهم يسيراً ، ويشد عليهم ويعنفهم أحياناً ، ويرشدهم إلى ما ينبغي أن يقولوا وإلى ما ينبغي أن يفعلوا ، ويتمجّلهم في ذلك وهم يستجيبون له حيناً ويتعنون عليه أحياناً ، ويكون من الحوار بينهم وبينه في ذلك كله إلمام بما أراد أن يلم به من الرد ، وهجوم على منافيه وخصومه وإستهزاء بهم وسخرية منهم ، وتصريح بهذا كله ، وقد للحياة الاجتماعية في المسرح وفي باريس ، وعرض للذهبة في التمثيل الضحك ، وتقرر لأنه عندما يضع قدمه مضحكة لا يريد هذا الشخص أو ذاك ولا هذه الطبقة أو تلك ، وإنما يريد إلى الناحية التي تستحق النقد وتثير السخرية من نواحي الحياة الإنسانية . فليس كما بأس أن يرى الناس أنفسهم في هذه القصص معادفة وعن غير عمد من الكاتب ، لأن قصصه كانت مرآة صادقة صافية لحياة الناس وما يكون لهم من الأخلاق . ويصدر عنهم من الأقوال والأفعال ، وإن موليير ليحور أعضاء فرقته ويداورهم وإذا قادم عليه ينسب بأن مقدمه الملك قريب ، فيضطرب ، ويستميل . ولكن الملك لا يتهل . فهذا رسوله ينجح ، وهذا موليير يستميل ، ثم ينتهي الأمر إلى أن يبين الملك عذر الفرقة ، فيميلها ويعفيها من هذا التمثيل الذي لا يمكن أن يرتجل ارتجالاً .

كذلك صنع موليير في القرن السابع عشر . فاما جيروود فقد سلك هذه الطريقة نفسها في القرن العشرين ، ولكنه لم يقصد إلى الرد على خصومه ومنافيه ، ولا إلى

النيل من نقاده وعائيه ، أو هو قد قصد إلى ذلك في شيء من التلخيص والإشارة .  
فأما قصده الصريح فكان إلى الدفاع عن التمثيل والزيادة عن هذا الفن الذي يخضع  
في هذه الأيام لأزمة عنيفة وشك أن تعرضه لخطر شديد .

وقد كان ظريفاً أن يرى النظارة في ديسمبر من سنة ١٩٣٧ أعضاء فرقة التمثيل  
في ملعب اللاتيه بباريس يتحدثون بأنسابهم وبأشخاصهم ، لا يمثلون أشخاصاً  
غيرهم ، ولا يتسمون بهذه الأسماء التي يضعها الكاتب لأبطال القصة وأشخاصها ،  
ولا يتحدثون في غير شؤونهم الخاصة التي تمس قلوبهم الذي يعيشون به ويعيشون  
له . وكان مصدر هذا الظرف قبل كل شيء أن الكاتب خدع النظارة عن أنفسهم  
وعن المثاليين ، فقبل إليهم أنهم يزعمون هؤلاء المثاليين وهم يضطربون في حياتهم  
الفنية اليومية ، وحيل إليهم بذلك أنه يظهرهم على دخائل التمثيل والمثاليين ، مع أنه  
في حقيقة الأمر لا يظهرهم إلا على ما أراد أن يظهرهم عليه من تكلف الفن وتصنعها  
فهؤلاء الممثلون الذين كانوا يضطربون ويتحاورون أمام النظارة لم يكونوا أنفسهم  
إن صح هذا التعبير ، وإنما كانوا أشخاصاً يتلون أنفسهم تمثيلاً ، ويمثلون أنفسهم كما أراد  
الكاتب أن يمثلها لا كما أرادوا أن يمثلوها ، فيذهب الخدعة الأولى . والخدعة الثانية  
أن هذا الحوار الذي كان يدور بين المثاليين لم يكن هو الحوار الطبيعي الذي يدور بينهم  
في حياتهم الفنية اليومية إذا خلوا إلى أنفسهم ، وتحدث بعضهم إلى بعض . وإنما  
كان حواراً صنعه لهم الكاتب ، وأخذهم بإدارته بينهم وإجرائه على ألسنتهم ، وبدلاً  
أخذ الممثلون حين رفع الستار يتهيئون لتمثيل القصة القديمة التي كتبها مولير ،  
وتحدثت عنها آنفاً ، وأخذوا يتعللون بما كان يتعلق به أصحاب مولير من أنهم لم  
يستعدوا ، ويتعللون بأشياء أخرى حديثة أقحمها الكاتب إقحاماً في القصة ليخرج  
البينة عن طورها القديم ويلازم بينها وبين العصر الحديث . فبهذه أدوات تطلب  
هنا وهناك ، وهذه مثلة مريضة يريد رئيس الفرقة أن يعطب خلقها فيمسه ببعض

الزواء قبل أن تبدأ بالتمثيل ، وهؤلاء المثلون يداعب بعضهم بعضاً ويتندر بعضهم بعضاً بمضأحاديث وفكاهات مشتقة من حياتهم اليومية وصلاتهم الخاصة .  
 يوم في ذلك ، وإذا قادم يقبل عليهم فيستكرونها ويتبرمون به كما فعل مولير في  
 نفسه ، ويريدون أن يردوه عن ملعبهم لأنهم يريدون ولا ينبغي أن يشهد الاعادة  
 صانعي . ولكنه يلح ويغرض نفسه عليهم فرضاً كما فعل القادم على مولير في  
 نفسه مع شىء خطير من الفرق ، وهو أن مولير قد نجح في التخلص من الطارىء  
 عليه . فأما جوفيه رئيس الفرقة المعاصرة فقد انتهى إلى أن يرغب إلى الطارىء  
 عليه في أن يقيم ، وفي أن يلقي عليه ما أراد من سؤال .

ذلك أن هذا الذي طرأ على الفرقة المعاصرة ، لم يكن ثقيل ولا طلع ، وإنما  
 هو عضو من أعضاء مجلس النواب الفرنسي ، ومن أعضاء اللجنة المالية في هذا  
 المجلس ، قد أقبل يحمل إليهم مالا ، أو يحمل إليهم الأمل في المال . ظهر للجنة  
 المالية أن دخل الدولة قد أربى على خرجها ، بتداول رأس به من الملايين ،  
 فرت أن تهدي هذا المال إلى الفرق التمثيلية ، وكلفت هذا العضو من أعضائها أن  
 يقدم تقريراً عن هذه المنحة التي ستزول عنها الدولة تشجيعاً للتمثيل ، ورأى هذا  
 العضو ألا يكتب تقريره حتى يتحدث إلى الممثلين أنفسهم عن هذا الفن وحاجاته  
 واحتار رئيس هذه الفرقة لمكانته المتتارة بين الممثلين والمخرجين . وأصحاب الرأي  
 في شؤون التمثيل بوجه عام .

ولا يكاد رئيس الفرقة يسمع منه هذا . حتى يطمئن إليه ، ويظهر حسن  
 الاستعداد للإجابة على ما سيلي عليه من سؤال . والحوار الذي يدور بين هذا النائب  
 وبين رئيس الفرقة وأصحابه هو الغرض الذي قصد إليه الكاتب حين وضع قصته .  
 وهو حوار لذيذ قوى حقاً ، وأدمنه وأقوى أن الكاتب قد استطاع أن يجريه على  
 لسان الممثلين ، وأن يجريه على ألسنتهم في الملعب ، وأمام النظارة ، وبين أيدي

الجمهور . وموضوع هذا الحوار خفيق أن يكون موضوعاً ثقافياً تنشرها الصحف أو الكتاب عن فن التمثيل . وهو على كل حال من الموضوعات التي يحسن أن يتناولها إليها القارئ فيقرأها بينه وبين نفسه ، ثم يتحدث فيها إلى أصحابه وأصدقائه ، قائماً بأن يعرض هذا الموضوع على جمهور النظارة الذين يكثف بهم ملعب التمثيل ، فهذا هو الشيء الطريف ، لأن الكاتب قد حول المثيلين إلى محاضرين ، يتحاور بعضهم بعضاً في النقد الأدبي الخالص الرفيع .

وهذا يعجبني وبمذاق . ويصور ما انتهت إليه بعض البيئات الأوربية أو الباريسية من الرق الأدبي المتعار الذي يمكن جمهوراً غير متخير ولا منتخب ، من أن يذهب إلى الملعب ، ويتفق في ذلك الوقت والمال ، ليسمع المثيلين يتحاور بعضهم بعضاً في هذا النقد المتعار الرفيع .

وقد كنت خليقاً أن أترجم لك هذا الحوار ترجمة ، فذلك أمثل طريق لإظهاره على ما فيه من قوة وجمال . ولكن صفحت « الثقافة » لا تسمح لهذه الإطالة . فحسبي أن أخلص لك الأصول التي دار عليها هذا الحوار .

فالكاتب يدرس في هذا الحوار ما يكون من صلة بين النقاد والمثليين ، وبين النقاد والنظارة . ويدرس ما يكون من صلة بين النظارة والمثليين وبين الملعب نفسه والمثليين ، ويدرس آخر الأمر ما يكون من صلة بين التمثيل والدولة ، وبين الدولة والنظارة التي تختلف إلى ملاعب التمثيل ، وكل موضوع من هذه الموضوعات خفيق أن يطول عنه البحث ويكثر فيه الكلام . ولكن الكاتب لم يله بالأمم رفيقاً سريعاً فيه مع ذلك الفناء كل الفناء . فأما الصلة بين النقاد والمثليين ، وبين النقاد والنظارة ، فبهاها الكاتب رديئة إلى أقصى حدود الرداءة . ذلك لأن النقاد لا يحبون الفن ولا يحبون النظارة ، وإنما يحبون أنفسهم وما يكون نقدهم من صوت بعيد . وقد صنعوا لأنفسهم من الفن صورة مشوهة ليست صحيحة ولا صادقة ، وقد أذاعوا هذه

أو الصورة وأسرفوا في إضاعته حتى فرضوها على الناس فرضاً . وحتى أفسدوا رأى  
الناس في التمثيل وذوقهم له . فهم قد أهملوا في هذه الصورة التي صنعوها لأنفسهم  
وأفسدوا بها ذوق الناس . ما ينبغي أن يكون لغة والأسلوب وحسن النطق من  
كأنه في التمثيل ، حتى انحط الفن وسفلت لغته وأسويبه . وأهمل الممثلون تجويد  
الناطق ، وأصبح التمثيل فناً مبتذلاً من فنون السوارع . بعد أن كان فناً من فنون  
الغريب الرفيع . ومن إساءة النقد إلى التمثيل والممثلين والنظارة جميعاً ، أنهم أقروا  
أن نفوس الناس أن القصة التمثيلية إنما تقاس جودتها بحظها من الوضوح ، وقربها  
من الفهم . بحيث لا يفترق فيها الفهم من . ولا يقبل من كتابها الالتواء . وبهذا  
أنزل التمثيل وأصبح شيئاً كغيره من الأشياء . يسيراً سهلاً لا مستقاً فيه ولا جهد .  
وكان الاستغناء عن جهود الممثل بقراءة القصة . مع أن التمثيل ليس القصد به  
إلى الفهم والأفهام ، وإنما هو متعة فنية خالصة ، يسترك فيها العقل والقلب ،  
والمزج والأذن ، والنزوق والمزاج كله . هو أشبه الأشياء بالموسيقى . ليس من  
الضرورة . وقد لا يكون من الممكن . وقد لا يكون من الخير أن نفهم ، وإنما  
منها أن تتبر اللذة وتحدث هذا المتاع الفني المتنازع .

والقياس الذي يجب أن تقاس به جودة القصة في رأى جيرودو ، هو الأثر الذي  
تحدثه ، أو قل الذي تحدثه في نفوس النظارة ، لأننا جهود التمثيل ، بل بعد  
أن تنقضي الليلة الكاملة بينهم وبين جهود التمثيل . فإذا أصبح أحدهم شيطاً سعيداً ،  
من طناً مناسباً للحياة ، مستقبلاً عمله في جود وحسن استعداد ، فقد شهد قصة  
تمثيلية جيدة . وإلا فقد شهد قصة تمثيلية رديئة .

وكذلك يسمى النقد إلى الممثلين وإلى التمثيل وإلى النظارة . حين يتذنون  
التمثيل ويفضون من شأنه ويكفونه ما لا ينبغي أن يشكف . والصلة بين النظارة  
وبين التمثيل والممثلين نتيجة موقف النقد . فهم يشددون لما يقرؤون ويأثمرون

بأمر هؤلاء السادة الذين يعجبونهم في المصحف إذا أصبحوا وإذا أمسوا ، وكان الحق أن يكون النقاد مرآة لتفاضرة لا قدة لهم ولا مؤثرين فيهم .

فأما الصلة بين الدولة وبين التمثيل والمثليين وبين النظارة فليست أقل رداءة من الصلات التي صورتها آتفا ، ومصدر ذلك أن الدولة لا تفهم نفسها ولا تفهم واجبتها لنفسها والفرن . فالدولة الفرنسية قد أعرضت في هذه الأيام عما ألفت من السنن والتقاليد ، وسلكت في حياتها مسلكا يفض من مكانها في الخارج . فهي تترجم العافية وتميل إلى الملاينة وتحرص على أن تحسن صلاتها مع أمم الأرض جميعا . وهي بذلك تقصر في مهمتها التاريخية الخطيرة ، ومهمتها التاريخية الخطيرة هذه هي أن تنفع على العالم حياته . فقد حلت فرنسا لتراقب وتنقد وتنكر الفناء والطغيان . وترد الظالمين والظفاعة إلى العدل والعدل ، بحيث يسر كل ظالم وكل طاغية أن أموره تستقيم له لو لم توجد هذه الدولة المنقصة التي تسمى فرنسا . وإنما عن تفسير فرنسا في فهم مهمتها وعن إخراجها العافية في حياتها الخارجية أن يساهم الأفراد والجماعات مسلك الدولة . فيكون المثلن ويكون النهور ويكون التفسير في الواجبات والإخلاص إلى حب الأمن والمدة وإتار النفس بالمدة والخير .

ويذهب التمثيل هذا المذهب . فيخرج الناس قصصا يصور هذه الحياة العائرة الخاملة . ولو قد مضت فرنسا في سننها وتقاليدها لذهب التمثيل في ذلك مذهبا . ولكن بعضهم على بعض رقيقا ، ولكن التمثيل منفعلة لحياة الأفراد والجماعات . بما يكون من مراقبته لها وقنده إيده وإنكاره عليها كل إسراف وكل تقصير . إذا التفت كل مسرف وكل مقصر نفسه إذا خلا إليها إن أموري تستطيع أن تستقيم لي وأن تجري على ما أحب لولا هذا المنع الذي يسمى مذهب التمثيل . وإذا فمن الحق على الدولة أن تفهم نفسها وتصحيح سيرتها وتؤدي مهمتها أولا . ليذهب الأفراد مذهبها في ذلك ، وليؤدي التمثيل مهمته . فيصيح الرقيب الناقد



الذي يوجه الناس إلى الخير وإلى الجلال، ويترده عن الشر والتبجح. وإذا كانت  
فلسفة تريد من أبنائها أن يعملوا وأن يتحجوا وأن يجدوا وأن ينشطوا، فينبغي أن  
تقدم لهم وسائل هذا كله، والتشيل من أهم هذه الوسائل وأقواها لأنه يغسل  
الإنسان النظارة من أوضاع الحياة اليومية، ويهيئها للعمل جديدة تقية عظيمة الحفظ  
من النشاط والإقدام.

وكذلك يتم العهد والاتفاق بين رئيس الفرقة ومندوب الدولة على أن تتحدد  
خدمة البرلمان بهذا الفن ليحدد الفن عديته بنفسه وبالناس.

ولم أخلص لك من موضوعات هذا الحوار إلا أظريها وأيسرها وأقربها مثالا،  
والتي توافقتني على أن الكاتب كان حريصا بارعا حين استطاع أن يعرضها على  
الشارحة في هذه الصورة التشيلية الجميلة.

وأنا على كل حال أرجو أن يثير لمخيض هذه القصة في نفوس القراء  
الذين ما أثارت القصة نفسها في نفوس القراء والنظارة الفرنسيين من ألوان  
الاحظة والنقد والتفكير.

## يوميات أندريه جيد

قرأت له كثيرا ، وفترات عنه كثيرا ، وشغلت بأحواله كما شغل بها كثير من الناس الذين يعنون بالأدب الفرنسي خاصة ؛ وبالأدب الإنساني الحديث عامة ، وكنت شديد الشوق إلى لقائه ، واخبرص على أن أسمع منه بعض الحديث صاعدا من نهار ، أو ساعة من ليل ، ونسكن ظروف الحياة لم تنجح لي ذلك على كثرة ما أتاحت لي من لذة الحديث إلى الأدباء البارزين من الفرنسيين وغير الفرنسيين ، حين أسافر أنا إلى أوروبا ، أو حين يسعون هم إلى مصر .

ثم زار أندريه جيد مصر في الستة الماضي ، وحاولت لقائه ، بل حاولت أن أتبع المثقفين المصريين الاستريح لبعض أحواله في محاضرة من محاضرات كلية الآداب ، فلم أجدني ذلك سبيلا ، لأن أندريه جيد كان محروفا كتيب النفس ، كاسف اليأس ، يخضع لأزمة من هذه الأزمات العنيفة التي تلم ببعض الأدباء والمفكرين المتأخرين ، فتدفعهم إلى العزلة دفعا ، وترهدهم تزهيدا شديدا في لقاء الناس .

وقد كتب إلى أندريه جيد في ذلك الوقت كتابا رقيقا عذبا ، يعتذر إلى فيه من امتناعه على هذا اللقاء ، وأرسته لك ، ويرجو مني أن أصدقعه ، وألا أظن به التعلل أو تعمد التقصير .

ثم عاد إلى فرنسا ، ومضيت أنا في القراءة له والقراءة عنه ، والاشتغال به ، حتى أتيت لي بعد أن عدت من أوروبا آخر الصيف الماضي أن ألقاه لقاء طويلا

في القاهرة ، وأن أدخل إليه أربع مرات في الأسبوع ، وأتفق معه في كل مرة  
ثلاث ساعات ، أو أقل من ذلك أو أكثر . وقد اتصل هذا اللقاء شهراً وبعض  
شهر ، وأكبر الظن أنه سيستأنف متى سمح الوقت باستئنافه ، وأرجو أن يكون  
ذلك قريباً .

لقيته في القاهرة مع أنه مقرب في باريس يعمل مع زميله وصديقه جيروود في  
نشر الدعوة لمراتب الله ، الخرب . وما أشك في أنه يلقى من إفته المتصلة في  
باريس مشقة شاقة وعناء ثقيلاً . فهو أبغض الناس للإقامة المتصلة . وأحبهم  
أغفر القريب والبعيد . ولكني مع ذلك لقيته في القاهرة . واستطاع أن ألقاه  
ثلاث مرات ، سواء أراد ذلك أم لم يردده ، وسواء أئمت به أربعة المفكرين أو التجلت  
فيهم . والمفضل في ذلك العطية التي نشرت في هذه الأيام وميانه ، والمفضل  
في ذلك لابني الصغير الذي أهدى إلى هذه اليوميات قبل إبحاره من مارسييا .  
وهذه اليوميات صورة دقيقة مطابقة للأصل كما قال أشد المطابقة ، ترسم فيها  
الخصية الأدبية جيد كما أوضح ما يمكن أن تكون ، وهي طويلة تقع في أكثر  
من ١٣٠٠ صفحة . قد طبعت طبعاً أليفاً في حرف دقيق . وتصور من حياة  
أصحابها خمسين عاماً كاملة ، فقد بدأه سنة ١٨٨٩ . حين كان في العشرين من  
عمره ، ووقف منها عند أول سنة ١٩٣٩ حين أبحر من مارسييا قصداً إلى مصر .  
فهو إذاً يحدثنا عن حياته أثناء نصف قرن كامل . وهو لا يحدثنا عن نفسه  
كما تعود أصحاب اليوميات أن يفعلوا : أريد أنه لا يظهر لنا نفسه في كتابه هذا  
كما يظهر نفسه للناس في المجالس والأندية والشوارع . وقد اتخذ من اللباس والزينة  
والهيئة المصنوعة ما تواضع الناس على أن يتخذوا حين يلقى بعضهم بعضاً . وأنت  
تعلم أن أكثر الذين يكتبون اليوميات والمذكرات يزنبون أشخاصهم المعنوية  
للناس كما يزنبون أشخاصهم المادية حين يلقونهم . يقتصدون في ذلك حيناً ،

ويسرفون في ذلك أحياناً . ولكنهم يتكفون على كل حال ، ويظفرون نفوسهم  
كأسية لا عارية . أما أندريه جيد فإنه قد أعرض عن هذا الصنيع إعرافاً تاماً  
لا غش فيه ولا محاولة للغش ، لأنه أراد أن يكون صريحاً صادقاً ، بل لأنه  
لم يستطع إلا أن يكون صريحاً صادقاً ، وخصلة الصراحة والصدق هي المميز  
الأول والأخير ، المميز الأساسي لشخصيته العقيدة الخفية البسيطة المتعددة الواحدة  
مع ذلك . فريحت هذه الخفية نفسها عليه ، فلم يستطع أن يحاص منها ، ولا أن  
يخالف عن أمرها ؛ ولعله لم يحاول ذلك على كثرة ما أرادته الظروف والناس  
ومناقمة القرية والمعدة على محاولته . فقام في الكتب التي كتبها للناس وأذاعها  
فيهم ، فقد أذعن خصلة الصراحة والصدق إذعاناً صريحاً صادقاً ، ولكنه راعى  
ما لا بد من مراعاته في الكتب الأدبية التي تذايع في الناس من أصول التي قبلها  
كل شيء ، ومن ظروف النظم والعرف بعد ذلك . فكانت خصلة الصراحة  
والصدق في هذه الكتب مقيدة بهذه القيود التي لا تكاد تغني شيئاً ، ولكنها  
مع ذلك لا تظهر الكاتب كما هو أو كما يحب أن يراه الناس . وأما في اليوميات  
فقد أتى أندريه جيد هذه القيود نفسها : لأنه لم يكتبها للناس ، وإنما كتبها  
لنفسه ، ولنفسه وحدها ، وقد أوم من نفسه رقيقاً بالاحظ أدق الملاحظة ما كان  
يجري به قلبه من هذه اليوميات ، وبنسبه في سرعة وقوة إلى ما قد يدفعه الناس  
إليه من التكلف أحياناً ، ومن التفكير في الناس ، وفي أنهم قد يقرأون ما يكتب  
في يوم من الأيام أحياناً أخرى ، فيرده إلى السذاجة والطبع ، ويجرد من التكلف  
والزينة ، ويضطره إلى ما ينبغي له . حين يخلو إلى نفسه ، من التبذل وإرسال  
المرآح على سجيته .

وقد عود الناس ، في كل كان يذيع فيها من الكتب ، صراحة لم بالقوة ،  
وصدقاً لم يعرفوه ، وتربداً لا عبيد لهم به ؛ حتى إذا تقدمت به السن ، وعرف

الناس منه ذلك ، وبلا سخطهم عليه وتبرمه به . وتم الاتفاق الصامت بينه وبين الناس على أنه قد خلق كذنت ، فلا سبيل إلى أن يغير نفسه ولا إلى أن يبره أحد ، ولا يد من أن يؤخذ كما هو ، وقبل أو يرفض على علاقه . دون أن يتنفع شيئاً ليمتلق الناس أو يرضيهم عن نفسه ، وعن آثاره . أقول لما تعود من صراحتة وصدقه ، وتعود هو من الناس سخطهم وإنكارهم . سقطت الفروق بين ما كان يكتب لنفسه . وما كان يكتب للناس . فجعل يكتب لتلك كما كان يكتب لأولئك ، أو جعل يكتب لأولئك كما يكتب لتلك . واستقام له طبعه الصادق الصريح في آثاره الخاصة والعامة . فلا يخرج من نشر بعض يومياته إلى الفرانسية الجديدة التي أنشأها مع جماعة من أصدقائه ، ثم في أسبوع صفار . لم يخرج من نشرها كاملة حين طلبت إليه ذلك دار من دور النشر . ويدعوه إلى التخرج . وقد صرح الناس من أمره بالفضيحة ! فليصارحهم بما بقي من أمره . فلن يستطيعوا له ضراً ولن يستطيعوا له نفعاً : وقد عود نفسه الاستقلال التام ، فهو لا ينتظر من الناس شيئاً . كما أنه لا يخاف منهم شيئاً ، وبخاصة أندريه جيد منسردة بوسع معنى هذه الكلمة وأدقها ، مشردة على الرف الأدبي ، وعلى القوانين الخلقية . وعلى النظام الاجتماعي ، وعلى النظام السياسي ، وعلى أموال الدين نفسها : متمردة على كل شيء . حتى على نفسها في أكثر الأحيان : وفي كل إنسان حر ، أو مؤمن بحريته . حظ من التمرد على هذا النظام أو ذلك من نظم الحياة الاجتماعية . ولكنه يصانع ويداجي ويحتال ليأتم بين شخصيته وبين البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها : ففي حياته شيء من الكذب قليل أو كثير . وفيها حظ من اتفاق عظيم أو ضئيل ، يظهر للنظم الاجتماعية طاعة لها ورضى بها . وهو لها كلب أو بعضها كاره . وعليها ساخط ، وبها متبرم : ولكنه محتاج إلى أن يعيش . فلا بد له من الكذب والتفاق

وخداع الجماعات وسرقة لذاته ما وجد إلى سرقتها سبيلا ؛ والناس قد عرفوا ذلك وأثروا وتواضعوا عليه ، وأصبح الكذب والنفاق وسرقة الذات وإخفاء الشئان وأوضاعا اجتماعية يفتها الناس ، ينكرونها في أنفسهم ويقولونها ، في سريرتهم وفي أعماق نفوسهم . أما أندريه جيد فإنه يتفرد بهذامعة بين تفرده الداخلي وسيره الخارجية إن صح هذا التعبير ؛ يرى الزنى فيعنه بها تكن نتيجة ذلك ، ويشتهي الشئ ، فسمى إليه ، ويتحقق بها تكن نتيجة ذلك ؛ ويحس هذا الحس أو ذاك ، ويشعر هذا الشعور أو ذاك ، ويحد القدرة على تصوير حسه وشعوره فلا يتردد في تصوير حسه وشعوره ، يقسو في هذا كله على الناس ، ويقسو في هذا كله على نفسه ، ولا يقبل في هذه القسوة هوانا ولا موادعة .

ومن أجل هذا أنكره الناس إنكاراً شديداً وعادوا بالحق والباطل ؛ واعادوا عادوه بالباطل أكثر مما عادوه بالحق ؛ فهم يحولون عليه أسب . لا يذنب فيها كنهه المرأة التي كان لها خليل أدب يسمى ، عشرينيا ، ويستطاع عليها في المعاملة ولا يعنفها من الضرب والإيذاء . فكأن تحمل هذا كله على أندريه جيد ، وتزعم أنه يغري تلاميذه وأصدقائه بإيذاء الأزواج والخطيلات . مع أن خليلها ذاك لم يكن يتصل بأندريه جيد من قريب ولا من بعيد . ولكن سيرته الصريحة وأدبه السريع وهذه الحرية المطلقة التي أباحها لنفسه . كل ذلك أنما رأى الناس فيه ، فحاملوا عليه من النكر والإهم ما جنى وما لم يجن . وكأن الصدفة قد أعادت الناس على ذلك ومهدت لهم سبيله . فالكتاب الذين يقدونه عابثين له وهم كثيرون ، لا يكادون يروون عنه جملة أو نصا حتى يرووه به محرفين ، إما خطأ اضطروا إليه أو عمد دفعوا إليه سوء النية . والكتاب الذين يقدونه مثنيين عليه وهم قليلون ، لا يكادون يقدون عنه نصا حتى يدركه التحريف ، وإذا هم يحسون على صاحبه من الخير ما لم يرد ، ويهدون إليه من الشئ ، حالا يستحق . وهو يرى هذا كله في الصحف والمجلات

كتب ، ويسمعه في الأحاديث ، ويهم بتصحيحه ورد الأمر فيه إلى نصابه ،  
وإنه يكف عن ذلك آخر الأمر ، لأنه لا يحفل بما يقول الناس فيه من خير أو  
شر ، وحسبه أن يسجل هذا كله في يومياته .

قلت إن شخصية أندريه جيد متبردة ، وإن ثورده حريج صادق ، وإن هذا  
الصرخ الصاوق هو الذي يميزه من غيره من الكتّاب والأدباء والمفكرين .  
وأب أن أشير إلى بعض النواحي التي يظهر فيها ثورده هذا قوية عتيقا ، ولكني  
أب أن ألاحظ قبل كل شيء أن التمس الأول من يومياته ، هذا الذي كتب في  
الشباب ، يصور لنا هذه الشخصية الناشئة ، وفيها أصول القوة والبأس والتمرد  
وإرادة ، فهو لا ينشأ كما ينشأ غيره من الشبان المتأثرين ، متأثرا بما حوله  
من الحياة الأدبية والفنية مؤثرا فيه ، ولكنه ينشأ قد نشأه وتأثيره ، مسجلا لما  
أشعره من خارج ولما يصدر عنه ، مبدع ما في هذا وذلك من خير أو شر ، محاولا  
أن يخرج ما يراه شرا والاستزادة مما يراه خيرا ، بحسبه نفسه حسبا شديدا على  
ما أخذ وما أعطى ، مراقب فنه الناشئ ، الفاضل مراقبة دقيقة ، يقومه إذا عوج ويرده  
إلى الطريق إذا جازعها ، وإلى الطريق التي يريدونها هو ، لا التي يريدونها  
الآخرون . وأصحاب الفن الذين هم أكبر منه سن وأقدم منه مائتين والأدب عبدا وأعمق  
منهما علما .

هو لا يقرأ كتابا ولا مقالا ولا فصلا في صحيفة ، ولا يسمع حديثا من أديب  
ناشئ ، مثله أو أديب متقدم في السن ممتاز في النكارة ، إلا سمع بالنقد والتحليل  
يرده إلى أصله ، واستخلص منه ما يلائم مزاجه وطبعه ، ونفى منه ما يخاف هذا الطبع  
أو ينافي ذلك المزاج . فهو إذا نشئ ، شخصيته الفنية نسبيا ممتازا قوامه الملاحظة  
والإحاطة الشديدة والنقد لا السماح فيه ، حتى إذا تمت نشأة هذا الفن واستقرت في  
أوس الشباب هذه الثقة أو هذا الشيء الذي يشبه الثقة وبدفع الأديب إلى الإنتاج

واجه الناس بآثاره ناقداً لنفسه في إصدار هذه الآثار ، مسجلاً ما يعرف من مواطن الضعف فيها ، منتظراً ما سيلقى الناس به آثاره من الرضى أو السخط ، ومن النقد أو التقريظ .

وقد كان أندريه جيد أقل الناس حظاً من رضى النقاد وثناهم عليه ، ثم من رضى الناس وإقبالهم على آثاره ؛ وكانت كتبه الأولى أقل الكتب رواجاً وانتشاراً ، ولكن ذلك لم يغير من سيرته مع نفسه ، ومع الناس ، فمضى في طريقه قدماً حتى غصب القراء غصبا ، وأكرههم على قراءته إكراهاً ، وحلهم على الإعجاب بها حملاً ، وأظهر للنقاد أن الأدب الممتاز يستطيع أن يفرض نفسه على قرائه سواء رضى النقاد أم سخطوا . على أنه كان وما زال فيما اعتقد يعزى نفسه بأنه لا يكتب لهذا الجيل أو لهذه الأجيال التي يعيش فيها ، وإنما يكتب لأجيال مقبلة ، فأس عليه بأس إذا لم يفهم معاصروه .

وقد نشأ أندريه جيد بروستنتيا ، ولكنه لم يلبث أن عرض لشؤون الدين بالتقدي كما عرض لغيرها من الشؤون ، فلم يبق له من مذهبه الدينى الموروث إلا شئ على نفسه وأخذ يباها بالخزم والعنف والدقة في بعض سيرته وفي تفكيره وحياته العقلية بوجه خاص . وإذا هو يفرق بين الدين والأوضاع الدينية والاجتماعية ، فبني هذه ويستبقى ذلك . وإذا هو مؤمن أشد الايمان وأقواء حتى يظن به التصوف ، منكر للكنيسة أشد الانكار ، ثائر عليها أعظم الثورة ، ولكنه لا يؤمن بإيمان المتأله وإنما يؤمن بإيمان المجتهد ، فيعرض له الشك ويؤذبه الرب . ثم هو ينظر في غير الأوضاع الاجتماعية ، وفي الأخلاق والعرف والأخلاق والقوانين هذه الغرائز من النظام . وإذا هو ينحرف عن هذا النظام انحرفاً متكرراً في سيرته ، فيألف لونا من الذة تنكره النظ الدينية والاجتماعية إنكاراً شديداً . ولكنه لا يتحرج من إرضاء غرائزه على هذا النحو البغيض ، ثم لا يداخى في ذلك



طريق لا يصانع ولا يخفى منه شيئاً ، بل يجبر بآرائه فينبها في كتبه ، ثم يؤلف في الدفاع  
 كتاباً وأى كتاب . وقد أحب فئة تجمعها به صلة القرابة أشد الحب فاتخذها  
 وجباً ، وكان أسعد الناس بحبها كما كانت أسعد الناس بحبه ، ولكن ذلك لم  
 يخلصه من المضي في طريقه تلك ، في غير تردد وفي أيسر تحفظ واحتياط . وأكبر  
 ألقين أنه شق بحبه وأشق به أيضاً ، فهو يثبت في يومياته بأنه لا يريد أن يودع  
 هذه اليوميات شيئاً مما يس زوجة ، ثم تستأ في آخر الكتب بأنه نادم على هذه  
 حياته ، لأنه انتزع من هذا الكتب نفسه .

ونحن نحن أثناء قراءة اليوميات الخلاف المؤنة الذي ثار بين الزوجين حول  
 مسألة الدينية خاصة ؛ فقد كانت مداء أندريه جيد مؤمنة صادقة ، وآداه من غير  
 أشد الايذاء ما ظهر من الخراف الذي كانت تحبه وتؤثره ، عن جادة  
 وعن جادة العرف أيضاً .

وقد وجد أندريه جيد نفسه في أشد الآلة وأعنفه حين أحس حين زوجته وبعد  
 بينه وبينها في السيرة والتفكير ؛ وإنه ليحس لنا بعض سعادته تلك العوجاء  
 في ظفرها في بعض أيامه ، خبيت إليه الحية ، وجددت نشاطه بالعمل والانتاج .  
 واحد ينقص عليه هذه السعادة . وهو تفكيره بين حين وحين في بأس  
 وقنوطها ، لو أنها علمت أنه يجد السعادة في غير حبها ، وفي غير قربها .

ومن أجل هذا ، وأشياء أخرى غير هذا . قلت في أول هذا الفصل إن  
 شخصية أندريه جيد متعددة وواحدة في وقت معاً . فهو يحب زوجته أصدق الحب  
 وأعمقه وأبقاه ، ويجزع لموتها أشد الجزع ، ويصور جريعه في حنف خالدة ، ولكنه  
 في الوقت نفسه ينحرف عنها الخراف منكر ، ولا يرى بذلك بأساً ولا جناحاً .  
 وقد قلت كذلك في أول هذا الفصل إنه يتصور على نفسه كما يتصور على غيره في  
 عراحة وصدق ؛ وربما كان من أوضح الأدلة على هذه القسوة أنه عرف من

نفسه البخل وحب المال ، فلم يتردد في تسجيل هذه الخصلة من خصاله ، ويحذف  
تسجيل ما تكلفه من العناء المادي والخلق : فهو يذهب إلى المطعم فيأكل ثم  
ما يشتهي أو أقل مما يشتهي بخلاً بالمال . ثم يأنم لذلك ويشكو منه ، وهو يدعى  
غيره إلى الطعام ، هذا أدى الثمن قصر في إرضاء الخادم ، ولم يمنحه إلا قليلاً  
ولهذا لا يمنحه شيئاً بخلاً وتقتيراً ، ثم يستخزي لذلك ، ويسجل خزيه ، ويدل على  
الناس عنه هذا البخل فيندرون به ، ويخترعون القصص والأحاديث ، وتذهب لأ  
نواذيرهم إلى أنذريه جيد ، فلا يتردد في تسجيلها وتصحيحها ، إن احتاجت إلى  
التصحيح ، ولا أذكر قسوته على نفسه في الفن ، فذلك خصلة لا يكون الأدب  
أدباً إلا بها . وأما قسوته على غيره فتصورها هذه الأحكام الصارمة التي  
بها أصدقاءه وأحب الناس إليه في فهمه ، وفي أخلاقهم ، وفي صورهم وأشكالهم  
كما يدفع بها خصومه وأغضب الناس إليه . ثم لا يتردد في إذاعتها ، وأصدقائه  
وخصومه أحياء ، كما أنه هو حي أيضاً . ومن الممكن ، بل من المحقق ، أن  
سبقرأونه وسيفقونه : ولكن أي بأس عليه وقد أخذ نفسه بالحرية والاستقلال  
وبالعصا راحة والصدق ؟ وهو على بخله وحب المال ، رقيق القلب جداً ، ضيق  
النفس جداً ، عطوف على الفقراء والبائسين ، لا يتردد في معونتهم ، وتيسير الحوائج  
لهم ، فهو يبخل على نفسه ، ويبخل على القادرين من أصدقائه وذوي معرفته  
ولكنه لا يبخل على العاجزين والبائسين .

وعطف أنذريه جيد على الفقراء والبائسين ، وإيمانه بالحرية والمساواة ، وكرامته  
الشخص الانساني : كل هذا مضافاً إلى مسيحيتته الخالصة ، قد دفعه إلى الشيعية  
حين ظيرت وعظم أمرها . وإذا هو يدافع عنها أشد الدفاع وأقواه ؛ ولكنه حين  
صادق ، فلا يكاد يزور روسا ويرى فيها ما يرى ، حتى يعود ساخطاً على النظم  
القائم فيها ، معلناً سخطه ، متعرضاً لغضب المستطرفين ، كما تعرض من قبل لغضب

وذلك فظيلن ، ساخرأ من غضب أولئك وهؤلاء ، كما سخر من غضب البروتستنت  
في الكاثوليك والملاحدين .

وهناك مسألة يُعنى بها « أندريه جيد » في يومياته عناية شديدة ، وهي مسألة  
في الشباب ؛ فخصومه يشفقون من هذا التأثير أشد الاشفاق ، على حين يرى هو  
في مض أوقاته أنه لم يؤثر في الشباب أو لم يؤثر فيهم كما ينبغي . ويشقى في بعض  
الأمور لأن لم استطاع أن يؤثر في الشباب ، فعملهم الحرة والاستقلال . ولا سيما  
المرأة . س إلى أساندهم وبالقياص إليه هو خاصة . والشئ الذي لا شك فيه هو أن  
يأخذ به جيد قد أثر في أجيال من النساب الفرنسيين ، ثيراً عميقاً ، ولا سيما من  
التيه الفنية ومن ناحية الحرية الأدبية . في الشعور وفي تصوير الشعور . ولعل  
أكثر أثراً إليك في يوم قريب عن تعيد من الأملية كد يكون صورة منه لولا أن  
قال لك أن أحترمه قبل أن يبلغ الأربعين .

وبعد ، فقد يكون من الخير أن نرد هذه الشخصية القوية المتردة إلى أصولها  
التي صرنا في أسطر قصار بعد هذه الإطالة التي لم نجد منها بدءاً . وقد ذكرت  
بعض حيلته الموروثة ، وأثرها في أخلاقه ومكبره . فلأضف إليك كلمة بالعموم التجريبية  
التي أركته فيها . وأسفه لأنه لم يفرغ لها . ثم لأضف إلى هذين العنصرين عنايته  
بالمسعى وبراعته فيها ، وأخذ نفسه بالإقناع ساعات في كل يوم ، وحزبه أن  
يجازي الظروف بينه وبين هذا الإقناع . فمما القراءة قتل فيها ما شئت ، ولا سيما  
القرأة الأدب الانجليزى والألماني والروسي . وتنوع خاص شيكبير وجوت  
في ودستوفسكى . وهو من أكثر الأدباء قراءة للأدب الفرنسى قديمه وحديثه .  
ويعبر الكتاب مرة ومرتين وثلاثاً ، ويجد في كل مرة لذة جديدة ورغبة في الإعادة .  
فإنهم مشغوف شغفاً خاصاً بذلك وزولاً ؛ وله على معاصريه أحكامه تبلغ القسوة المشككة ،  
بأحكام أخرى تبلغ الإعجاب الذي لا حد له . وما ينبغي أن أنسى عنايته بالأدب

القديم وبالأدب اللاتيني خاصة ، وتأثره بهذا الأدب في فنه ، ولا سيما من ناحية  
النظم والموسيقى ، حتى يضيق أحياناً بهذا التأثير : فثبوته يوشك أن يكون شعراً  
لأنه يقبضه على لون من الموسيقى يوشك أن يكون حساباً .

وأندريه جيد حضريّ الغريزة بدويّ السيرة ، حريص أشد الحرص على  
لذات الحضارة ورغائيتها ، مبغض أشد البغض الإقامة المتصلة في مكان واحد  
كان أبا تمام قد قال فيه بينه المشهور :

كَأَنَّهُ بِهِ ضِفْتَانِ عَلَى كُلِّ جَانِبٍ مِنْ الْأَرْضِ أَوْ شَوْقًا إِلَى كُلِّ جَانِبٍ

فأنت تراه منتقلاً بين باريس وقرينته في نورمنديا ، وجنوب فرنسا ، إيطاليا  
وألمانيا وأفريقيا الشمالية وتركيا ومصر وإروسيا . ولأفريقيا الشمالية أثر خاص  
ممتاز في حياته الأدبية ، وقد أهتمته أجل كتبه وأروعها . ولم يتصل جيد بشعب  
بعد الشعب الفرنسي ، كما اتصل بالشعب العربي في أفريقيا الشمالية ، وبالشعب  
العربي الساذج الغافل ، لمتى عنده لذاته على اختلافها .

وقد أعلنت ، ولكن ماذا أصنع وأنا مطيل بطلمي . ومضطرب في هذا الحديث  
إلى أن أصور لك كتاباً يبلغ أكثر من ألف وثلاثمائة صفحة ، وشخصاً واحد  
ولكنه لا يكاد يحصى ! ومع ذلك فهل أختتم هذا الحديث دون أن أذكر ما يندرج  
قارئ هذه اليوميات من المتاع الذي لا حد له حين يرى الكاتب يصور له أصدق  
التصوير وأدق عنايته بآثاره الفنية منذ يفكر فيها وحين يأخذ في إنتاجها إلى أن  
يتبها ، مبطل حيناً مسرعاً حيناً آخر . شقيّاً بالزائرين له والصارفين له عن العمل  
دائماً ؛ ثم قراءة هذه الآثار على أصدقائه وخاصته ، وعلى « روحيه مرتان دي جارا »  
من بينهم بنوع خاص . ثم قبوله لملاحظاتهم ، يدعن لها عن رضا ، ويدعن لها  
عن كره ، ويمتنع عليها أحياناً ، ويندع على هذا الامتناع ؛ ثم إذاعته لهذه الآثار

انظاره لآراء الناس فيها ، وعنايته بهذه الآراء ، لا ليرد عليها ولا ليصححها ،  
بل ليسجلها في يومياته ليس غير .

وهل أختتم هذا الحديث دون أن أشير إلى ما نصور لنا هذه اليوميات من  
فائدة للكاتب وحصوله . وهم خلاصة الأدباء الفرنسيين وصفوتهم ! ولكن  
هناك أشياء كثيرة جدًا في هذه اليوميات لم أشير إليها . ولن أستطيع الإشارة إليها ،  
إلا أن أطلب على غيرى من الزملاء الذين يكتبون في « الثقافة » ، كما فعلت في  
الأسبوع الماضي ، آسفًا معتذرًا .

فلأقف عند هذا الحد : ولأسجل حزيني حين أقرأ ما يتيح لي الأيام قراءته  
في الكتب الممتعة . فأود لو يشاركني المتقنون من المحررين في فيها من متاع ،  
وأعجز عن تمكين كثير منهم من هذه المشاركة . ما أريد حاجتي إلى الذين يقرءون  
ويعتصرون للناس ما يقرءون ، ويترجمون لهم بعض ما يقرءون !

## السلطان الكامل

لا أريد أن أكتب فصلاً من فصول التاريخ عن لقب بهذا اللقب من ملوك القدماء ، وإنما أريد أن أتحدث عن كتاب ظهر بهذا العنوان منذ حين للكتاب الفرنسي العظيم جان جيرودو .

ولاشك في أن الكتاب الفرنسي قد استعار عنوان كتابه من أعقاب السياسة الكثرة ما طليت الوزارات الفرنسية والمزاولة الفعالة خاصة إلى البرلمان الفرنسي أن يتمتعها السلطان الكامل الذي يتكهن من إصدار مراسيم لها قوة القانون في غيبة البرلمان ، مراعاة لحال فرنسا في الأحوال الخطيرة التي كانت تحيط بها وبكثير من أقطار الأرض قبل أن تصبح الحرب أمراً واقعاً .

وكان الفرنسيون يختلفون أشد الاختلاف في أمر هذا السلطان الكامل ، يرى بعضهم أن الخير في منحه للوزارة ، تعجلاً لإصلاح الأمر وتقويم المفعول والاستعداد للأخطار الداهية ، دون تمديد بالمشاqqات البرلمانية التي قد تقصر وتطول ، وقد تتحرف وقد تستقيم ، والتي في آخر الإصلاح في أوقات لا تحتل تأخير الإصلاح . وكان بعضهم الآخر يرى أن حقوق الديمقراطية يجب أن تكون فوق كل شيء من جهة ، وأن الوزارة قد تقع في الاستمتاع بهذا السلطان الكامل إن أهدى إليها . وكان الفرنسيون يعظمون في هذا الموضوع جدالاً شديداً مقصداً إلى مختلفه المراتب ، فيه الجد وفيه الغزل ، وفيه الدعاية المرة والفكاهة الحلوة ، ولعل من هذه الفكاهة ، أو من تلك الدعاية ، اصطفاك الكتاب جان جيرودو لهذا العنوان .

ولم يقرض في كتابه لهذا الموضوع الذي يختلف الفرنسيون فيه من قريب  
من بعيد ، وإنما أعرض أو كاد يقرض عن الوزارة والبرقيات ، وعن  
سلطان الكامل المطلق والسلطان الناقص المحدود ، وعن شيء آخر له خطره  
كعدم في نفوس الفرنسيين ؛ وآية ذلك أن الكتاب قد ظهر منذ أشهر قليلة  
لأنها بلغت الأربعة . وأن الطبعة التي قرأها منه هي الطبعة الثالثة عشرة .  
والموضوع الذي عني به الكاتب في كتابه هذا هو الإصلاح الاجتماعي . وإذا  
قد اختار له هذا العنوان ، فهو لا يحتره إلا في شيء من العيب والتجاوز . إن  
هذا التعبير ؛ فهو يريد أن يصور أقصى ما تستطيع فرنسا أن تحققه لنفسها  
من الخير إذا أخذت أمورها بالعلم ، وفهمت ما يجب عليها لنفسها والعالم  
جميعاً . وأظن أن الترجمة الدقيقة لعنوان الكتاب ، الترجمة التي تؤدي  
إلى هذه المؤلف حين استعار من أصحاب السياسة كلهم هذه الشائعة عابثاً فاسياً  
بأنها هي القدرة الكاملة ، قدرة فرنسا على الخير لنفسها ولغيرها من الشعوب .  
يراد باستعارة هذا العنوان من أصحاب السياسة أن يقول لهم وللذين تابعوهم فيما  
بعد من جدل : إن جدالهم هذا ضعيف فارغ لا طائل تحته ولا غناء فيه ، لأن  
صالح فرنسا أن يتسع سلطان الوزارة أو يضيق ، وأن يصلح فرنسا أن تتخذ وفاة  
البرقيات حتى تحيط بكل شيء ، أو أن تنقصر حتى لا تحيط بشيء ؛ لأن رجال  
السياسة يذهبون في طريق أقل ما توصف به أنها معاكسة للطريق التي يجب أن  
تتأخذ حين يراد الإصلاح . فرجال السياسة يصطنعون مذهبهم ويعيشون من  
مصادم هذه المهنة . وهي إضاعة الوقت والجهد والمال في لا يمس ما يحتاج الوطن  
إليه من إصلاح شؤونه على اختلاف ما تتصل به هذه الشؤون من مرافق الحياة .  
والكتاب كما ترى منذ الآن وكما ستري بعد حين فقد عني لاذع للحياة  
السياسية الفرنسية من جهات مختلفة . والظريف الذي يستحق أن تفكر فيه هو

أن جان جيرودو موظف من موظفي الحكومة الفرنسية . كان حين أصدر هذا الكتاب موظفًا في وزارة الخارجية ، فلما دنت أخطار الحرب كلف الإشراف على إدارة المطبوعات ، وانتقل إلى رئاسة مجلس الوزراء .

فأعجب هذه الحرية التي أتاحت لموظف من الموظفين أن ينقد النظام السياسي لبلاده نقداً صريحاً إلى أبعد آماذ الصراحة ، حرّاً إلى أوسع حدود الحرية ، يعفّ الحكومة ولا البرلمان ولا المحاسن البلدية ولا الجمهور ولا المصارف ، ولا سلطات من السلطات ، ولا هيئة من الهيئات التي تشرف على تنظيم الحياة الفرنسية من قرب أو بعد . ولكن أعجب أيضاً لأنه أثر في هذا النقد أقصى ما يستطاع الكتاب أن يؤثر من النزاهة وضمانة الضمير ، والارتفاع عن الصفات ، ونسب نفسه ومصلحته الخاصة ، وتجنب العرض لبرادة بعينها ، أو حزب بعينه فراق بعينه من الذين يمدّون وقلوبهم في مجلسي البرلمان .

نقد الحكومة الفرنسية من حيث هي حكومة ، ونقد البرلمان الفرنسي من حيث هو برلمان ، فأرضى الناس جميعاً ، ولم يقصب أحداً ، ولم يجد من حكمه ولا من وزيره أذى ولا شططاً .

وأعجب لشيء آخر ، وهو أن جان جيرودو كاتب أديب ، قد برع في القصص الروائي ، وبرع في القصص التمثيلية ، وطفر في الأدب الفرنسي بمكانة ممتازة لا حاجة إلى التعريف بها . وهو في قصصه الروائي أو التمثيلي شاعر بارع ممتاز وإن كان يصطنع الترددون النظم . وهذا كله لم يمنعه من أن يخرج هذا الكتاب حين أحس الحاجة إلى إخراج هذا الكتاب . وحين أحس القدرة على إخراج هذا الكتاب . فهو إذا لا يقيم في برج من العاج لينزل على قرائه ونظاراته قصصه الروائي الرائع ، وآياته التمثيلية الباهرة . ولكنه يعيش مع الناس . ومع أوساط الناس ، ولا من هم أدنى طبقة من أوساط الناس : يتشّى بينهم في الطرق ، ويحبب معهم أحبا



عزيس ، ولا سيما هذه الأحياء الفقيرة البائسة ، حتى إذا أراد أن يصور حاجات  
الطبقات إلى المعونة والإصلاح ، بل إلى الإعانة والافتاد ، كان بارعاً كل  
بارعة في هذا التصوير .

ثم أعجب آخر الأمر للفكرة التي أفاها عليها كتابه ، والتي تلائم كل الملامة  
التي اعتقد حياتنا المصرية الخاصة ، بحيث نستطيع أن نقول إن هذا الكتاب من  
الكتب وأمتها وأقومها للذين عتاون الإصلاح الاجتماعي في مصر منذ  
عاشت وزارة الشؤون الاجتماعية في مصر . ويجب أن أعترف أن وزارة الشؤون  
الاجتماعية المصرية هي التي دفعتني إلى قراءة هذا الكتاب الذي شغلت عن  
قراءته بأدب جيروود ، حتى إذا عدت إلى القاهرة وسمعت أحاديث الوزارة الناشئة  
بما تهتم به وما تفكر فيه وما تقوله وما قال عنها ، فرغت هذا الكتاب قراءته في  
عدتين اثنتين لأنه قصير . وأرمنت أن أكتب عنه ، لا لأحله ولا لأفصل  
مقوله فيه ، ولكن لأشير إشارة مجملة ، ولألفت إليه وزارتنا الجديدة الناشئة ؛  
مقد يصرها ببعض الأمر ، وقد رسم لها بعض الخطط ، وقد يجسها كثيراً من  
الخطأ ، وقد يعصها من كثير من الزلل ، وقد يصرها إلى العمل الثقيل ، وقد  
مؤد بها عن الأقوال العامة الغامضة التي امتلأت بها الصحف منذ أعوام وأعوام ،  
حتى حفظناها عن ظهر قلب ، وحتى أصبح الطلاب والتلاميذ يشتمون بها على  
أفاناسيوس ومعاليهم ، حين يملنون بها ما يكتبون من موضوعات الإنشاء .

الفكرة التي أقام عليها جان جيروود كتابه هي أن لوطنه في العالم مركزاً ممتازاً ،  
وأن هذا المركز الممتاز لم يتح لوطنه عفواً ، ولم تكسبه له المصادفات ، وإنما جاءه  
لأن أن طبيعة الشعب الفرنسي منذ عرف الحياة السياسية أنه لا يستطيع أن يعيش  
بلاش المقام الأول بين الشعوب ؛ فهو خير بين اثنين ، فيجب أن يكون له الصدر  
والأخير كما يقول شاعرنا القديم . فهو لا يستطيع أن يتصور فضلاً عن أن يرضى

أن تكون الدولة الفرنسية من دول الطبقة الثانية . وهو قلق أشد القلق مضطرب .  
أشد الاضطراب بانس أشد البؤس إذا أخرته ظروف السياسة عن مكانته المتأخرة  
في الطبقة الأولى بين الدول والشعوب : وتاريخه كله يؤيد هذه الخصلة من خصائص  
أشد التأيد . وإذا فعلى الذين يسوسون هذا الشعب وينهضون بشؤون الإصلاح  
فيه أن يعرفوا هذه الخصلة من خصائصه حق المعرفة وأن يتوخَّوها في كل ما يدبرونه  
من أمر ، وفي كل ما يشرعون من قانون ، وفي كل ما يهتمون به من إصلاح  
والشعب الفرنسي لا يرضيه أن يتنازل في السياسة وحدها ، وإنما يريد أن يظهر  
في كل شيء ، يريد أن تكون حياته الفنية أروع ما يعرف الناس من حياة الفنانين  
ثم يريد أن تكون حياته السياسية ملائمة لهذا كله أحسن الملائمة ، ومصورة لهذا  
كله أحسن التصوير .

لا يستطيع أن يفرغ نفسه وأن يكف عنها وأن ينفرد بحياته الخاصة الضيقة  
ولكنه ينظر دائماً إلى غيره ، ويريد دائماً أن يكون سابقاً ، ويكره دائماً أن يكون  
متخلفاً . وأضيق أن أيسر النظر في تاريخ مصر ينتهى بنا إلى أن الشعب المصري  
منذ عرف الحياة السياسية قد امتاز بهذه الخصلة ، بالقياس إلى أمم الشرق القريب  
نلاحظ ذلك في حياتنا منذ أقدم عصورنا التاريخية ؛ فنحن لم نرض قط ولو  
نسعد قط إلا حين كان لنا التفوق في الشرق الأدنى ، وحين كنا دعاة الحضارة  
وأنتها في هذا الشرق ، وحين كانت حياتنا على اختلاف ألوانها مثلاً يحتذى ، وقد  
ردتنا الظروف في كثير من الأحيان عن هذه المثلة المتفوقة المتأخرة ، فكنا أشقياء  
وكننا مع ذلك مجاهدين ، حتى نعود إلى التفوق والامتياز .

فعلى الذين يسوسون أن يعرفوا هذه الخصلة من خصائص الشعب المصري ، وأن  
يتوخَّوها في كل ما يدبرون من أمورنا .

وأول ما عني به جان جيرود ، بل أهم ما عني به من مواطن الضعف الاجتماعي في وطنه

والجنس الفرنسي نفسه ، فقد نظر إليه من جهات مختلفة : من جهة ما يسمونه  
نفس المواليد وكثرة الوفيات وتنقص السكان ، ومن جهة ما تدخله المهاجرة إلى  
شأنها على هذا الجنس الفرنسي من أسباب الضعف والقوة ومن أسباب الزيادة  
والانقراض ، ومن جهة ما تدخله هذه المهاجرة السهلة من ألوان الفساد الخلقي أحياناً ،  
ومن ألوان العظمة الخلقية أحياناً أخرى .

والكاتب يود لو أُنشئت في فرنسا وزارة فنية لا تُعنى بالسياسة وما يكون فيها  
شؤون السلم والحرب ، وإنما تعنى بالشعب الفرنسي . تمكن أفرادها من أن  
يبدؤوا عيشة مادية ممتازة ، يتيح لهم أن يعمروا بلادهم بالنسل الصالح المتزايد القوى  
الخالقة يمكن أن يوجد وأن يتزايد وأن يقوى ليكسب فرنسا من النهاية والعزة ما يرد  
عالم الطامعين ، وما يضمن لها والعالم سلفاً متصلاً .

وأظن أن أمر الشعب المصري من هذه الناحية يشبه أمر الشعب الفرنسي ؛  
واقعة لا تنقص المواليد في مصر كما تنقص في فرنسا . ولكن عدوان الموت على طفولة  
مصر وشبابها لا يقاس إلى عدوان الموت على الفرنسيين . ومن المحقق أن مصر  
تدور حجة لكل طارئ ، وأن المهاجرة إليها آثاراً شائعة جداً في حياتنا المادية  
والأدبية والفنية والخلقية أيضاً .

ويعني جان جبرودو عناية مفصلة بحياة المدن الفرنسية وبحياة القرى من حيث  
قوامها تخطيطها لحاجة الشعب الصحية ولطبيعته ولذوقه ولآماله في الرقي . وأؤكد  
أنك أتقراً ما يكتبه عن باريس واضطراب العناية بتخطيطها وتاريخها وصحة  
أغلبها وذوقهم ، فيخيل إليك أنك تقرأ فصلاً عن هذا الاختلاط الشنيع الذي أصاب  
مدينة القاهرة في العصر الحديث . فهذه العمارات التي تقام حيث يريد أصحابها  
في غير ذوق ولا نظام ولا عناية بصحة المجاورين لها . وهذه الأحياء الأثرية التي  
تفقد جمالها الفني لأن يد التجديد تعبت بها في غير رحمة ولا ذوق ولا حساب .

وهذه الأحياء التي أنشئت خارج المدينة لتكون متنفساً للمدينة يجد فيها الناس هواء طلقاً نقياً ، فلم تلبث أن اكتظت بالمهارات الضخمة ، وأصبحت كغيرها من أحياء المدينة موطناً للعزل والأمراض ومصاد القذوق وقبور الهمم أيضاً . كل هذا وأكثر من هذا يصوره الكاتب بالقياس إلى باريس ويصف ما ينبغي من الطب له . وكل هذا وأكثر من هذا يستطيع كاتب مصري أن يصوره ويصف ما ينبغي من الطب له .

وهناك علة اجتماعية يمتنى بها الكاتب الفرنسي ، ويكفي أن أشير إليها لتشعر بأنها من عللنا المشوطة ، وهي علة الخباثة في تطبيق القوانين على أفراد الشعب لا من الناحية القضائية . والناحية القضائية دائماً بحاجة من اللوم ، بل من الناحية الإدارية . فهؤلاء يتاح لهم أن يقيموا عماراتهم الضخمة حيث لا يتاح لأولئك أن يقيموا منازلهم المتواضعة . وهؤلاء يتاح لهم أن يخالفوا بسياراتهم عن نظم المرور على حين يؤخذ أولئك بأشد النظم عنفاً وضيقاً . وهنا يحمل جيروودو على أعضاء المجالس البلدية حلة عنيفة حقاً ، لا تعدلها إلا حملته على أعضاء البرلمان ؛ فهم قوام هذه الخباثة لأنهم يشتركون بها أصوات الناخبين ثم ينفذون على رجال الإدارة والوزارة حياتهم بألوان الإخفاق والرجاء .

وقد مضى جيروودو في قده رجال البرلمان إلى حد بعيد ، حتى كره أن يستمر البرلمان في العاصمة قريباً من أحدهب السلطة التنفيذية المركزية ، وطمح أن يستمر البرلمان في مدينة بعيدة صغيرة ، يفرغ فيها لعمله التشريعي ، ويخضع فيها أعضاؤه لمراقبة الجمهور في حياتهم الخاصة ؛ فيه في حاجة إلى هذه المراقبة .

وعلى هذا النحو من النقد الاجتماعي انفصل الدقيق يمتنى الكاتب حتى يبلغ حاجته : وإذا هو ينفعني إلى أن الأزمة التي تشكو منها فرنسا ليست أزمة التنافس بينها وبين هذه الدولة أو تلك . وليست أزمة الخصومة بين هذا النظام أو ذاك

من نظم الحكم ، وليست أزمة الاقتصاد الذى ينشأ عن الاضطراب فى أعمال المال  
فى الإنتاج والاستهلاك ، وإنما هى أزمة أعمق من هذا كله وأيسر إصلاحا من  
هذا كله ؛ هى أزمة عميقة لأنها تمس حياة الشعب فى أعماق دوائها ، وهى أزمة  
سياسية ، لأن هذا الشعب غوى خصب صالح لبناء وانماء . ونسكن هناك شرطا  
للا - منه لحل هذه الأزمة ، وهو ألا يترك هذا الحل إلى رجال السياسة الذين  
لقد وهبوا لأنفسهم مهنة يعيشون بها فى الوزارات وفى البرلمان . وإنما يترك هذا الحل  
لرجال الكفاءة الفنيين . وما أكثر حظ فرنسا حتى فى هذه الظروف العسيرة من  
الكفاءة الفنيين الذين لا تنفع بهم فرنسا ، فتدعوهم الدول الأخرى فى أوروبا  
يقبلونهم . يركبونهم إلى حيث ينفعونها ويكملون لها النقص على وطنهم وإن قلبهم لتزورها  
للمرات ! .

أليس ترى أن من التصح لوزارة الشؤون الاجتماعية فى مصر أن تلحقها إلى  
هذا الكتاب وأمثاله ؟ وما أكثر أمثال هذا الكتاب فى غير لغة من لغات  
الأرض ! وقد يخيل إلى أن لهذا الكتاب أمثالا قليلة . ولكنها موجودة فى مصر  
فى اللغة العربية نفسها .

## بين بين

الأصل في الكلام أنه وسيلة توصل بها إلى الإعراب عما يريد أن يفهمه عليك  
غيرك ، فبما وافق جلياً لا لبس فيه ولا غموض . والكلام كله يشترك في هذا  
الأصل سواء منه ما كان شعراً وما كان نثراً . وسواء منه ما تحدث إلى المتلقي  
وما تحدث إلى القلب والشعور . فإذا خرج الكلام عن أصل البيان والتبيين هذا  
فكان فيه غموض أو النواء ، فمصدر ذلك قصور في المتكلم أو الكاتب أو قصور  
في السامع أو القارئ : قصر ذلك فلم يحسن الإعراب عما يريد . أو عجز هذا  
يحسن القيمة التي إليه . وقد يكون الغموض مقصوداً والالتواء متعمداً ؛ لأن  
الكاتب أو الشاعر أو المتكلم غرضاً يدفعه إلى أن يتكلف الغموض ويتعمد  
الالتواء . ولكن هذا الكلام الغامض المتعقّب واجد على كل حال من يقرؤه  
يسمعه يفهمه فيما صححاً مستقيماً .

هذا هو الأصل في الكلام . ولكن يظهر أن الترف الفني الذي ترقى به  
الحضارة إليه ، وتنقل بنا في درجاته المختلفة ، يأتي أن يقرأ الأشياء في أصولها أو  
يدعها مبسّرة لما خلقت له . فكأن الأصل في الطعام والشراب الغذاء والرياء  
ولكن الحضارة والترف قد خرجا بهما عن الأصل إلى ما يتجاوز الغذاء والرياء  
إلى غيرها من اللذات التي يجدها الطامعون والشاربون . فقد خرج الترف الفني  
في هذه الأيام بالكلام عن أصله المأخوذ إلى شيء آخر غير البيان والتبيين  
ونشأت طائفة من الكتاب والشعراء لا تكتب النثر ولا تقرض الشعر لتقول

ثنا وانحما جليلاً أو لتقول شيئاً ينتهى بعد الجهد والعناء إلى الوضوح والجلال . وإنما  
 كاتب وتنظم لتثير في نفسك ألواناً من المعاني وحسروها من الخطوط ، وتتهيج  
 في قلبك أشكالاً من العواطف وفنوناً من الشعور ، تحسها فتدرك وتأنسها ، وتتهيج  
 بعد وتضيق بها . وتفهيمها حيناً وتمجيز عن فهمها أحياناً ، وتذهب مذاهب متعددة  
 في غاية متباينة في فهم هذا الكلام الذى يلقى إليك وتأويله وتخرجه ، فتقرأ ما انتهى  
 إليه . ثم يبدو لك فتعدل عنه . ثم تقرأ هذا الكلام مرة أخرى فإذا أنت تذهب  
 في فهمه وتأويله وتخرجه مذاهب لا تكن قد ذهبت إليها من قبل . ثم تتحدث إلى من  
 قرأ هذا الكلام نفسه فإذا هو يخالفك في الفهم كل اختلاف أو يخالفك في بعضه  
 أو يقلك في بعضه الآخر . ثم تتحدثان إلى ثالث فتقرأ هذا الكلام فإذا له فيه  
 رأى لم تراه ولم يخطر لك على بال . ولعلكم إن سألتم الكاتب أو الشاعر الذى  
 كتب إليكم وإلى الناس هذا الكلام عما أراد به حين كتبه أو نظم له تجدوا منه  
 ما لم يقصده ولا رداً مريخاً . أو وجدتم أجوبة مختلفة وردوداً متباينة : لأنه هو  
 لا يعرف باللبس ما إذا أراد حين كتب أو نظم . أو كان يعرفه أثناء الكتابة والنظم  
 ثم ذهب عنه بعد ذلك ، أو كان يعرفه فيما أتم الكتابة والنظم وترك ما كتب ونظم  
 حين عاد إليه يقرؤه فإذا هو يفهم منه غير ما أراد ويبقى منه غير ما كان قد قصد إليه .  
 وقد يخطر لك أنى أقصد بهذا الدخول من الكلام إلى شئ من اللعب أو الدعابة .  
 أفقدت عن نفسك هذا الخاطر فقلت بصاحب عمت ولا دعابة ، وإنما أنا صاحب  
 كل الجد ، وأنا أكتب هذا الكلام بعد أن قرغت من قراءة قصة لذيذة  
 كقصة ممتعة للكاتب الفرنسى جيروود ، ضاعها في صيغة القصص التمثيلية ووضع لها  
 فى المون الذى وضعته أنا لهذا الفصل ، ونشرها في عدد من مجلة باريس .  
 وقد قلت إن هذه القصة لذيذة قيمة ممتعة ، وأنا أريد ما أقول ، ولعل مقصر  
 حين أكتفى بهذه الأوصاف . وحسبك أنى قرأتها ثلاث مرات ، وسأقروها الرابعة

إن أذن بذلك الوقت وسمحت به الظروف . وقد وجدت في كل قراءة لذة ومتعة ، وأنا واثق بأنني سأجد في القراءة الزائدة لذة ومتعة . ولكنني على ذلك كله لم أقف . ما أراد الكاتب أو قل قيمت أشياء مختلفة وأغراضاً متباينة ، ما أظن أن الكاتب قد أراد إليها أو فكر فيها . وقد أسأت الظن بنفسى ، فأقرأت هذه القصة قومًا آخرين وجدوا فيها لذات لم أجدها ومتعة لم أشعر به . ولكنهم كانوا مثلي عاجزين عن أن نفهموا بالدقة أو بالتقريب ما أراد إليه الكاتب حين كتب قصته هذه البديعة الغريبة . ثم انتهى بنا الأمر إلى أن اتفقا على أن الكاتب لعله لم يرد شيئاً أكثر من أن يثير في نفوس وقلوبنا هذه الخواطر والعواطف وهذه الأهواء والميول ، وعلى أن الكاتب لعله أراد أن يذهب بالكلام مذهب الموسيقين بالموسيقى ، فلا يقصد إلا إلى أن يثير في نفسك ضرراً من العواطف والأهواء حول فكرة خطرت له واثرت فيه . فصورها كما استطاع في هذه الألحان التي لم تطابق ما في نفسه وقد تنصّر عنه وقد تتجاوزوه وتزوي عليه . ولكنها على كل حال قلما تنقل إلى نفسك صورة صحيحة مطابقة لما كان في نفسه ، وقلما تثير في النفوس المختلفة عواطف وأهواء مؤلفة أو متغيرة تقارباً شديداً . إنما قصارها أن تدغم بك في عالم من الخيال لا حده . فأنت تصور فيه ما تشاء . وأنت تحس فيه ضرراً متباينة من الإحساس . وقد تسمع المعلن للموسيقى الآن فيثير في نفسك لوناً من الخواطر ، وتسمعه بعد ذلك فيثير في نفسك لونا آخر . وكذلك يذهب أصحاب الكلام بالكلام حتى يجهلوه فنا من النغم وضرباً من الموسيقى ، وحتى يستطيعوا أن يلقوه إليك فإذا أنت لا تفهم منه شيئاً دقيقاً جليلاً كما تعودت أن تفهم من الكلام ، ولكنك على ذلك لا ترغب عنه ولا تنفر منه . بل تؤثره ولا تعدل به شيئاً .

في هذه القصة خداع غريب خطر؛ لأنه يخيل إليك أنك تفهم ما تقرأ على وجه



وجوه الفهم، فتعفى في القراءة متابعا فيمتك هذا مطمئنا إليه، ولكنك لا تلبث أن تضل الطريق، وإذا أنت في واد غير ذلك الوادى الذى كنت تمنى فيه. ويزال كذلك ينقلك من واد إلى واد، ويثبثك من مذهب إلى مذهب آخر حتى تنتهى القصة، وإذا أنت تسأل نفسك ماذا فهمت أنت منها، وماذا أراد الكاتب بها إليه.

ولا بد لي من أن أخلص لك المقدار الذى يستوى الناس جميعا في فهمه من هذه القصة حين يقرؤونها، وهو هذه الصورة الفاضحة التى يقسمها الكاتب إلى مناظر ورسول. ولكنى أحب أن تنهم أن هذا التلخيص لا يعطى شيئا ولا يصور ما أراد الكاتب. وقد قرأت جماعة من النقاد، قد أرى أنهم فطنوا لما قصد إليه في دقة ووضوح.

كل شيء في القصة مبهم، قد نعد الكاتب إبهامه. حتى الأماكن التى تقع فيها حوادث القصة، والأوقات التى احتارها الكاتب لوقوع هذه الحوادث. فأكثر ما يقصه عليك الكاتب يجرى في مكان غير محدود ليس هو داخل المدينة وأنس هو شديد البعد منها. وكأنه في طرف من أطرافها حيث تتصل عمارات المدن بالفضاء الواسع الطلق. وهو في غبة أو في شيء يشبه الغابة، تنين فيه الأشجار، ولكنك لا تضيق بها ولا تحس كثافتها والغابها. والمكان واسع قد كما أنه العشب، وانتشر فيه زهر كثير مختلف. ولا تقع حادثة من حوادث القصة في أول النهار أو في وسطه حين تستطيع العين أن تحيط بالأشياء وتحقق النظر فيها، وبين تستطيع النفس أن تتابع العين فتفكر في شيء، بين محدود، وإنما تقع الحوادث في الأصيل حين يختلط آخر النهار بأول الليل، وحين يضطرب على الأشياء رداء رقيق جدًا من الضوء. وحين تتفرق النفس كأنها تريد أن تتابع النفس في مسراها من وراء الظلمة الكثيفة الملبدة.

وإذا اختار الكاتب هذا المكان المبهمة ، وهذا الوقت المبهمة لم يكن من العسير عليه أن يختار أشخاصاً إن ظهرت صورهم المادية ظهوراً واضحاً في بعض الأحيان ، فإن صورهم النفسية وما يصدر عنها من الأحاديث والخواطر مبهمة شديدة الإيهام ملائمة أئد الملائمة لما يحيط بها من زمان ومكان . ولعل أحسن مظهر إبراعة الكاتب إنما هو إنشاء هذه البيئة الغامضة الواضحة . المهمة الجلية التي هي بين بين .

موضوع القصة نفسه يقتضى هذا الموقف المتوسط بين الوضوح والغموض . فنحن في مدينة صغيرة من مدن فرنسا ، كانت هادئة مطمئة ، تجري حياة أهلها في اطراد لا تنوء فيه كأنه السهل المنسط ، ثم يضطرب أمرها فجأة وتحدث فيها حوادث غير مألوفة كأن شيطاناً ماكرًا قد أشرف على أمورها قلبها رأساً على عقب . تعودت أن تجيل بين أهلها في كل عام طائفة من أوراق « النسيب » فإذا جاء موعد القرعة فقد تعودت المدينة أن تخرج القرعة لأغنى أهلها إلا في هذه السنة فقد خرجت لرجل فقير . تعودت أن تؤدي عملية الإحصاء من حين إلى حين كما تؤديها غيرها من المدن . فإذا سئلت الأسر عن عددها ردت بأجوبة تلائم العرف والقانون إلا في هذا العام ؛ فالعمدة يستحي أن يقدم إلى المركز أوراق الإحصاء لأن الناس قد أحصوا أنفسهم ، وكلاهم ، وماشيئهم ؛ ولأن الرجال لم يضعوا زوجاتهم في أجوبة الإحصاء ، وإنما وضعوا خيلاتهم . تعودوا أن يهرج الرجل صبيه فلا يشور الصبي ، وأن يهرج كلبه فلا يشور الكلب . أما في هذا العام فالصبيان يثرون بأبائهم وأمهاتهم ، والكلاب ثائرة بأصحابها وسادتها . وعلى هذا النحو اضطرب في المدينة كل شيء . ومصدر الاضطراب فيما يظهر أن إشاعة ملأت المدينة بأن شعباً يظهر لبعض أهلها إذا تولى النهار وأقبل الليل . وقد صدق الناس هذه الإشاعة واطمأنوا إليها ، فكلهم يلتصق بالشبح ، وكلهم يراه ، وكلهم

خافه ويحتاط لقائه . وانتهى أمر هذا الاضطراب إلى باريس فأرسلت الحكومة المركزية منشأ إلى هذه المدينة يبحث ويستقصي . وأمرته بأن يحسم الداء إذا انتهى إلى أصله . وفكرة الحكومة أن هذا عارض من الضعف العقلي ومن الشوذة دألم بهذه المدينة ، فيجب أن يرد عه وأن يسلط عليها سلطان العلم والعقل . يقبل هذا المنشأ ممثلاً بهذه الفكرة . فلا يكاد يتحدث إلى العمدة والصيدلي مراقب المكابيل والموازن حتى يروعه تصديق المدينة هذه المخافات ، وحتى يستد عزمه على أن يشر في الحرب فذا السخط حتى تمضي عليه . وهو ينكر وجود الأشباح والأرواح ، وهو يتحدثى الأشباح والأرواح ويطلب إليها أن تطلق أثراً ولو يسيراً عن غصن من هذه الأغصان ، وهو يحصى ثلاثة فلا يتم الإحصاء حتى تسقط قلنسوته عن رأسه ! فيقول : ما أشد الريح ! ويحجيه أصحابه : ليس في الجو أثر للريح ! وهو يعود إلى التحدى في لفظ غليظ بنم ، ويطلب إلى الأرواح والأشباح أن تسمه بأذى ولو ضئيلاً . ويحصى ثلاثة ، فلا يكاد يخرج من الإحصاء حتى تزل قدمه به فيهوى ! فإذا بهض قال : ما أشد الرطوبة ! فيحجيه أصحابه : إن سدننا بالمطر لبعيد ! وبهذا يتحقق الخلاف بين ممثل الحكومة المركزية وأهل المدينة . هو صاحب علم وعقل . وهم أصحاب خيال وإيمان بالمخافات .

ولكن علم المنشأ أولى وعقله محدود : فهو يؤمن بما في الكتب ويسلم به ما بدأ فيه . وهو يرى الإيمان به والتعصب له سياسة تلائم الديمقراطية وتوافق نظم السياسة الحديثة . وسداجة أصحابه الذين يحاورهم طريقة طلبة ليس فيها غلظ ولا حقيق . وإتمامى سداجة ذات أجنحة تسمو بأصحابها حتى تتجاوز بهم حدود الآفاق المقول . كأنها قد اتخذت أجنحتها من الخيال وأصبحت شعراً كلها . فاقوار إذا إنما هو بين الحقائق الواقعة القيدة التي لا تبرأ من الجلود ولم تسلم من التصور ، وبين الخيال المطلق الحر الذي أخذ يحظ عظيم من الرق والصفا .

والتهذيب . الحوار إذا بين الحياة اليومية الماثوفة يمثلها شخص المفتش وبين الشعر  
يمثله هؤلاء الناس ، بل يمثله معهم أكثر أهل المدينة ، وتمثلده معهم بنوع خاص  
إيزابيل هذه الفتاة التي تقوم على تعليم البنات مكان المعلمة المريضة والتي تذهب في  
تعليم الفتيات مذهبا غريباً ملائماً كل الملائمة للطبيعة الحرة والشعر الطلق . فهي  
لا تضطهرن إلى المدرسة . وإنما تتخذ من الغابات والحقول مدرسة تلقى عليهن فيها  
علماً غريباً يضيق به المفتش الذي يمثل حياة كل يوم . وهي تلقى إليهن أسماء غريبة  
تدل بها على ألوان من العلم في الفلك والطبيعة والنبات والحيوان ، وهي لا تتحرج  
في أن تعلمن على أن يتسكنن بأشكال الحيوانات المختلفة وينسمن بأسمائها  
ويسرن سيرتها . كل تعليمها تشار بأنه شعر . ويقوم على تحبيب الطبيعة إلى التلاميذ .  
ولا يكاد المفتش يرى هذا وينيته ، حتى ينفر منه ويثوره ، ويرى أنه أصل هذا  
السخف الذي سيطر على المدينة ونشر فيها الفساد والاضطراب ، فيعزل الفتاة  
إيزابيل من منصب التعليم . ويأمر أن يجري التعليم في المدرسة على ما يجري عليه  
في المدارس الأخرى في أضيق حدود التقاليد . وقد أتى . بأن مصدر هذه الإشاعة  
التي اضطربت لها الفتاة إنما هو هذه الفتاة المعلمة . فهي التي ترى الشبح وتناجيه  
إذا كان المساء . وقد ثبت له ذلك . فأرصد لفتاة وطلاتها ومعه نفر مسلحون  
حتى إذا كان المساء أقبلت الفتاة وأقبل الطائف . فتحدثت إليه وتحدث إليها . وعما  
في حديثهما وإذا نار تطلق فهوى الطائف إلى الأرض كما يهوى القليل . ويظهر  
المفتش وأصحابه وهم لا يشكون في أن هذا الطائف ليس إلا شاباً أراد أن يغوى  
الفتاة فاتخذ صورة الطائف وشكل الخيال . ويحوى بعضهم على القليل فلا يرى  
جثة ، وينظر القوم فإذا الطائف يرتفع في الجو شيئاً فشيئاً حتى يستقر صورته الأولى  
ثم يقول : إلى غدا إيزابيل ! إلى غدا في غرفتك إذا كانت الساعة السادسة !  
فإذا كان الغد أقبلت الفتاة إلى غرفتها قرب الموعد المضروب ، وأقبل مراقب

الكاييل والموازن ، فأخذ يتحدث إليها حديثاً فيه حب . فتريد أن تصرفه عن  
سبها ، فيأبى ويعرض عليها الزواج . ولما في الحديث وإذا الطائف قد أقبل وطلب  
إليه أن ينصرف ويدعه مع الفتاة . ولكن الرجل يأبى ويلج في الأياء . ويكون  
فيه وبين الطائف حوار عفيف دقيق أيها يستمر بالفتاة . والفتاة مترددة بين هذا  
الرجل الذي يمثل الحياة وهذا الطائف الذي يمثل الموت . وتسكن ميلها إلى الحياة  
تصرف آخر الأمر ، فينصرف الطائف مبروماً . وتهوى الفتاة في غشية كأنها الموت .  
ويقبل المقتس والعمدة والصيدلى والتلميذات . ومع أهل المدينة وكلهم يريد أن  
يقتنض الفتاة من هذا الإغواء . وكلهم يقترح لذلك دواء وطباً ، ولكن الصيدلى  
يعدم إليهم جميعاً في أن ينسوا الفتاة وينصرفوا إلى أنفسهم . وينسأف كل منهم  
بآفته في هذه العرفة كما لو كان بعيداً عنها . ف هؤلاء يلعبون الورق ، وهؤلاء الغتيات  
تحدثن فيما بينهن حديثاً عادياً . وهاتان الفتاتان تحدثان في الأزياء ، وهذا  
الشمس ينطلق من حين إلى حين بأعماظ نسي العلم والتعليم والديمقراطية . وقد  
اتحالت العرفة صورة مصغرة المدينة . وإذا الفتاة المضي عليها غميق شيئاً فشيئاً  
حين تشترك في الحديث عن الأزياء ، ويأتى من يخبر بأن الأمور قد استقامت  
لما جت قرعة النصيب الأغنياء دون الفقراء ، ويعلم الصيدلى في ألقاظ تذكر  
بقصة فوست أن قد انتهت هذه الحال التي كانت بين يمين !

هذه صورة غليظة جداً لهذه القصة ، لا دقة فيها ولا تحديد ولا إلمام بشئ مما فيها  
من مواطن الشعر ومظاهر الجمال الفني الرائع ، ولا إلمام فيها أيضاً بهذه المواقف  
التي تعرض فيها الكاتب للحياة اليومية على اختلاف فروعها بالنقد اللاذع  
والمر . ولكنك تستطيع أن تسأل نفسك كما سألت نفسي وكما سألت غيرى من القراء  
عندما حين قرأ هذه القصة : ماذا أراد الكاتب أن يصور فيها ؟ أترأى اكتفى بنقد  
ما تقدم من ألوان الحياة الفرنسية ولم يرد غير ذلك ؟ ألا فإن هذا النقد عارض في

القصة يكفي أن تنظر فيه لتعلم أن الكاتب لم يتخذ غرضاً من أغراضه الأولى .  
أثره رمز بهذا الطائف إلى شيء مما يعرض للناس في حياتهم وجعل الفتاة رمزاً  
للناس جميعاً أو لطائفة من الناس ؟ ولكن ما عسى أن يكون هذا الشيء الذي  
اتخذ الطائف رمزاً له . أهو الحب ؟ أهو الموت ؟ أهو الأمل ؟ أهو المثال الأعلى ؟  
أهو شيء غير هذا كله ؟ أثره إما أراد أن يصور حالاً من أحوال الناس تعرض  
لهم في طور من أطوار حياتهم حين يكونون بين النوم واليقظة ، أو حين يكونون  
بين الشباب وبين الاكتهال واكتزال السن ؟ أثره أراد أن يصور  
حياة فتاة مريضة بنوع من أنواع الأمراض العصبية تتأثر باليوم وتتبعه حتى تمضي  
في أثره إلى أمد بعيد ثم لا تتركه إلى الحياة الواقعة إلا في هدوء ورفق وإلا بأن تحيل  
بها الحياة الواقعة إحاطة متصلة لا تكلف فيها ولا جهد ؟ كل ذلك ممكن ، ولعل  
شيئاً غير ذلك كله ممكن أيضاً . ولعل الكاتب -- وقد هممت أن أسمى الشاعر --  
لم يرد كما قلت إلا أن يخلق حولك هذه البيئة الشعرية التي نطلقتك من قيود الحياة  
الواقعة ونسلكك إلى الخيال يتجلى لك حيث يشاء ساعة من نهار أو ساعة من ليل .  
وقد ذهب الشعراء إلى هذا النحو من الفن منذ عهد غير قصير ، فمنهم من جعل  
الشعر موسيقى تليق السمع أولاً . وتثير في النفس نكهة النغم الموسيقي بعد ذلك .  
وأعرض عن المعاني إعراضاً شديداً أو هيناً . ومنهم من أعرض عن هذه الموسيقى  
الظاهرة التي يتأثر بها السمع قبل كل شيء . واتخذ الشعر مفتاحاً يفتح لك به أبواب  
اللانهاية ، كما يقول الشعراء . ووسيلة يخلق لك بها هذه البيئة الفنية العليا التي  
ترتفع بها وقتاً ما عن الحياة والأحياء .

وأخذ الكتاب يذهبون بالنثر مذهب الشعراء بالشعر . ولكن كاتبنا قد تجاوز  
مذهب الكتاب الذين يقدون الشعر والشعراء في النثر الذي يتجه إلى القراء  
ليس غير ، وسلك هذا المذهب الشعري بالنثر التمثيلي نفسه . وأنت في غير

حاجة إلى أن أبين لك الفرق بين النثر الذى يذهب فيه صاحبه مذهب الشعراء  
الموسيقين والذى يتجه به إلى الناس جميعاً ولكلهم يقرءونه متفرقين ويتأثرون به  
متفرقين ، وبين النثر الذى يذهب به صاحبه هذا المذهب ويتجه به إلى طبقات  
الناس يجمعهم فى مكان واحد هو الملعب . ويتفرعون من الحياة الواقعة معاً  
يسمو بهم معاً إلى عالم الشعر والخيال . ويتخذ هذا سبيلاً واحدة هي التمثيل .  
أفنتك توافقنى على أن فى هذا النوع من الإقدام والابتكار جرأة فنية قيمة .  
ولكن قد رأينا الآثار التى تتركها قراءة هذه القصة فى نفس القراء . وما أشد ما نحب  
أن نرى الآثار التى تتركها تمثيل هذه القصة فى نفس النظارة ! ولكن أين نحن  
من هذا . وأين هذا منا فى عصر الآن !

وأنا أريد أن أعرض عليك منظرًا من مناظر هذه القصة لم أختره اختياراً ، وإنما  
دو كغيره من المناظر التى تستحق كلها أن تترجم وأن تتخذ نموذجاً ومثلاً لهذا  
النمط التمثيل الجديد . وهذا المنظر حوار بين إيزابيل وبين الطائف :

الطائف — أ كنت لتضربانى ؟

إيزابيل — لا تعتذر ! فلو كنت طائفاً مثلك لوقفت عند هذا الشق وعند هذه  
الأودية ، حيث لم أستطع إلى الآن أن أحمل إلا جسماً كفيفاً . إذ لا استوقفتنى  
السرور والنبات الملتهب وكل ما لا أقف عنده الآن ! إذ ما كنت هنا الآن لو أنى  
أستطيع مثلك أن أطوف بقل كل ما لا أستطيع إلا أن أمسه أو أراه ! إذ لا أخذت  
لجسى جسماً من الأشياء كما أهوى . عصفوراً على العصف مرة ، أو طفلاً مرة أخرى ،  
أو أنحرف مرة ثالثة فأقمص عوداً مزهراً من السرير . إنما الاحتواء هو القرب  
الصحیح . . . ولكنى أؤمك لأنك أقبلت هذا المساء وحدك ، وحدك دائماً لم

تستطع أن تمس أحداً من ذوبك ولا أن تحمله على صحتك !

الطائف : لم أستطع .

إيزابيل : لقد فكرنا أمس بعد كل هذا الإخفاق أن أقدر الأشياء على أن  
يهيجهم ويؤثر فيهم ، ويوقظ ما يمكن أن يكون أعصاب الطيف ، قد يكون  
صيحة طويلة ، وشكوى متصلة متشابهة ، تتردد في طول واتصال ، كهذه الصيحة  
الحقيقية أو التي نعلم بها والتي تصدر عن القطار فتوقظنا أحيانا مع الفجر وتردنا إلى  
الأحياء ، أو كصيحة السفينة أثناء الليل في الخلجان ، تلك الصيحة التي تبلغ حتى  
الأسماك الرخوة في القاع . أبعثت هذه الصيحة ؟ أبعثت يقطك في بعضها ؟  
الطائف : نعم !

إيزابيل : أنت بنفسك ؟ أنت وحدك ولم تلحق بصوتك شيئا فثبات آلاف  
من أصوات تشبهه ؟  
الطائف : لقد اصطدمت بسوء الموقى .

إيزابيل : أنامون ؟

الطائف : أكون هذا يوما ؟ لقد تسود في أكثر الأحيان حيث يحتمون ،  
رعشة ، ثم يصاب فيهم نشاط شديد . حتى لقد يبعث منه شيء يشبه الصوت  
أو انعكاس الضوء ، فإذا أقبل عليهم الطارقون المحدثون انغمسوا في اضطراب للذي  
تبدأ به بقية حياتهم ، يهزهم دائما ترجيح الأرض الخفيف . ولكن ربما اتصلت جماعتهم  
كلها ، فكأنها قطعة من الثلج قد نمرها يوم الشتاء ، فإذا هبط إليها الموقى الوافدون  
غرقوا فيها مع شعاع يرافقهم ، لأن يوم الأحياء شمس وبهجة .

إيزابيل : أكانوا كذلك أمس ؟ أبتصل ذلك زمنا طويلا ؟

الطائف : قرونا . نوافي .

إيزابيل : أليس من أمل في المعونة ؟

الطائف : منهم ! لا أظن .

إيزابيل : لا تقل هذا ! إن بين الذين قضوا من حولي من أحسست أنهم قد



هبوا إلى غير رجعة ومحت أشخاصهم من كل حياة ومن كل موت . لقد أرسلتهم إلى العدم كما أرسل الحجر ، ولكن ينهم من وجههم إلى الموت كأنما وجههم في حية ، أو كأنما كلفتهم محالة ، يظهر الموت فيها وكأنه أقصى غايات الثقة ، فكان ينطرب حول المقابر جو السفر والأماكن المجهولة . ولم أكن أميل إلى أن أودعهم القبط بل بالإشارة . وكنت أحس أثناء النساء كله كأنهم يبحثون عن إقليم جديد ومن يشة جديدة . وكانت الشمس مشرقة ، وكنت أراهم هناك ينامون في شمس المدينة ، وكان المطر يسقط وكانوا يتلقون التغيرات الأولى من أمطار الجحيم . فلن نأمن بأن هؤلاء أيضاً ينسون أو يسقطون متى انتهوا إلى مستقرهم !

الطائف : لم يصلوا ، أأره .

إيزابيل : ولكنك أنت غسكت تلقى السلاح ؟ وتكتفى من الأمل والرغبة بأن طائفاً فوق مدينة ضائية .

الطائف : المهمة خطيرة .

إيزابيل : ومع ذلك فما أنت ذا !

الطائف : إن بين الموقى من يناء وكأنه يقطن .

إيزابيل : إن هذا النائم السقيظ يستحق مع الصبح وما زالت مقبلاً .

الطائف : لقد جذبني ! لقد أوقعني في الشراك !

إيزابيل : أي شراك ؟

الطائف : إن عندك لشراكاً يجذب إليه الموقى .

إيزابيل : وأنت أيضاً ترائى ساحرة ؟

الطائف : إن سحرنا لطبعي حتى لكأنك قد عرفت فيم يفكر الموقى ، فانت

لا تبشئين لهم ذكريات ولا صوراً وإنما تبشئين لهم الشعور بالانعكاس الصوري وأجزاء

الضوء قد استقر على زاوية من الموقد . على أنف هر ، أو على ورقة كأنها الخطام  
الضئيل يطفو على الطوفان .... أترينى مصيباً ؟  
إيرازيل : وإذا ؟

الطائف : وإذا فكل غرفتك في الظاهر غرفة للأحياء ، لفتاة حية من أهل  
الأقاليم ، ولكن من يحقق فيها النظر يرى أن كل شيء ، قد قدّر لتكون هذه العلامة  
من الضوء على الأشياء المألوفة ، على إنباء من الصبى أو مقبض من المقابض قد استنهي  
دائماً بالشمس أو النار في النهار ، وبالمصباح أو القمر في الليل . هذه هي حبالك  
وفد كان حقاً على أن احتاط حين رأيتك في نافذتك ذات مساء . لم يكن وجهك  
المشرق هو الخطر . ولكن رأيت انعكاس الذهب على الحاجز أمام الموقد ، ورأيت  
ضوء القمر على المنبه ، ورأيت مس الظلال ، فأخذت !

إيرازيل : أخذك الشر من أبقاك ؟

الطائف : صوتك قبل كل شيء . . . . . أحادث صوتك هذه التي تجعل في الشفق  
كل مساء شيئاً شبيهاً به الظلال يشبه ما يرى الناس أن الطير تحبه من الشمس !  
وأبقى بنوع خاص هذه الثقة الكريمة التي تمنحك حتى من أن تفكرى في أنى  
قد خدعتك وأنى حى .

ثم تطلق النار فيوى الضيف !

## ساعة ...

ساعة قضيتها أمس مع جماعة من المثقفين المتنزهين في هذا البلد ، ذات غنى  
نوم حتى تقدّم الليل ، ودفعني إلى مذاهب من التفكير والتروية ، لا أريد أن  
سورها في هذا الحديث لأنها مختلفة شديدة الاختلاف ، متناقضة شديدة التناقض ،  
لأن تصويرها يحتاج إلى جهد لا يحتمله حديث قصير نشره مجلة أسبوعية  
تسكاد تنشر حتى تطوى ، ولا يكاد يُقرأ ما فيها حتى يُنسى .

ولكن هذه الساعة ذكرتني في ذكرتني كتباً ثلاثة قرأتها في هذين العامين  
الخيرين . وأكبر الظن أن هذه الساعة ستضطرني إلى أن أعيد قراءة هذه  
الكتب ، لأن فيها تسلية وتغرية . ولأنها تقوى النفوس وتمصها من الخور العقل  
الذي تعرض له في هذه الأيام .

أما أول هذه الكتب فقد ألفه الكاتب الفرنسي الفيلسوف جوليان بندا ،  
سماه « خيانة المثقفين » . وأما الثاني فقد نشره الأديب الفرنسي العظيم جورج  
ذي هامل وسماه « الدفاع عن الأدب » . وأما الثالث فقد أذاعه في هذا الصيف  
الكاتب الفرنسي المشهور جورج برناتوس ، وسماه « نحن الفرنسيين » . وموضوعات  
هذه الكتب مختلفة في ظاهر الأمر كما ترى من عناوينها . ولكنها متفقة في حقيقة  
الامر كما ستري من التحليل البير الذي سأعرضه عليك في هذا الحديث ، لما بقي  
مها في نفسي . وما أقول ما يبقى في نفوسنا من الكتب التي نقرأها في هذه الأيام  
التي طفت فيها علينا أحداث الحياة الداخلية والخارجية ، فاستنا أو كادت تنسينا  
كل شيء ، وشغلتنا أو كادت تشغلنا عن كل شيء . وجعلت من الجهاد المحمود

أن يأخذ الرجل من نفسه بالقراءة بين حين وحين ، والتفكير فيما يقرأ من وقت إلى وقت !

وهذه الكتب الثلاثة تصور نواحي مختلفة من هذه الأزمة العنيفة التي أصابت المثقفين في أخلاقهم وفي إنتاجهم وفي موقفهم من المشكلات الدقيقة التي أخذت تعرض بعد الحرب الماضية لحياة الأفراد والجماعات . فما عسى أن يكون موقف الرجل المثقف الممتاز الذي غلبت عليه العقول والقلوب ، وفرغ خا ووقف عليها جهده كله ، أو خلاصة هذا الجهد ؟ ما عسى أن يكون موقف هذا الرجل المثقف من مشكلات الحياة حين تعرض للناس في سياستهم وفي نظمهم الاجتماعية ؟ أيجمل هذه المشكلات كل الجمل ، ويعرض عنها كل الاعراض ، ويفرغ الفراغ كله لما يشتر له وتوفر عليه من ألوان المحدث والتفكير ؟ أيعرب بين نفسه وبين الحياة والأحياء حجاباً صميماً كثيفاً . لا يرى من دونه شيئاً ، ولا يسمع من دونه شيئاً ، ولا يحس من دونه شيئاً ، وإنما تنقطع الأسباب منه وبين نظرائه ، لا يعرفون ولا يعرفونه ، لأن حياته العقلية العليا قد استغرقت نشاطه واستأثرت بجهوده ، فم يبق منه للناس قليل ولا كثير ؟ ذلك نرى . لا سبيل إليه ؟ فأيسر التفكير في حياة الفرد مهما يكن نشاطه في هذا العصر الحديث . بدلت على أن كلمة أرسطاطاليس لم تزل تدل على معناها وعلى أن الإنسان ما زال مدينّاً بالطبع . فهو محتاج إلى الناس ، والناس محتاجون إليه ؟ وهو متضامن مع الناس . والناس متضامنون معه . وإذا فلا سبيل إلى أن يقطع الرجل المثقف الممتاز ما بينه وبين الناس من صلة ، وإنما هو مضطر إلى أن يعيش معهم وإلى أن يشاركهم فيما يلم بهم من خير أو شر ، وما يعرض لحياتهم من عرف أو نكر . وإذا فما عسى أن يكون موقفه من هذه الأحداث التي تعرض لمواطنيه ، ولشركائه في الإنسانية عامة ؟ أيقف منها موقف الذي يسمع ويرى ويحس ويشعر ، ولكنه مع ذلك يلتزم الحيدة ، فلا يصلح

خطأ إن وقع ، ولا يدفع شرًا إن ألم . ولا يشجع على خير إن عرض ، ولا ينبه على ما قد تدل عليه التذمر من الأحداث التي قد تقع إذا لم ينبهوا إليها فتجر عليهم شرًا عظيمًا ؟ ولكن موقف الحيدة هذا غير ملائم لطبيعة الأشياء ؛ فما دمت مضطرًا إلى التضامن الاجتماعي بحكم القطرة أو بحكم الظروف أو بحكم القطرة الظروف معًا ، فأنت مضطر إلى نتائج هذا التضامن . وأنت مضطر إلى أن تجد ما يجده الفرد العامل في جماعة من الجماعات من الرضا والسخط ، ومن الفرح والحزن . ومن اللذة والألم . ثم أنت مضطر إلى أن تدفع إلى العمل الذي يقتضيه هذا الذي تجده ، فتعلن الرضا وتدعو إلى أسبابه . وتعلن السخط وتقاوم ما يقتضيه . إذا فما عسى أن يكون موقفك من هذه الأحداث المختلفة حين تلم بالبيئة التي تعيش فيها . أو حين تلم ببيئة معاصرة لك في وطن قريب منك أو بعيد عنك ؟ وكيف السبيل إلى أن تلام بين فراغك النجاسة العقلية العليا ، وبين مشاركتك في أعراض الحياة العادية ومسافرها ومضارها العاجلة وما تستشعره من المساومة في النشاط ؟

هذه مسألة كثر التشكيك فيها واشتد حولها الجدل . لالأمها بحاجة إلى أن تحمل ، وحلت نفسها أو حالتها الظروف . ولكن لأن هذه الحفول التي فرضتها الظروف تحتاج إلى كثير من البحث ونقطة كثير من الجدل . أما أنها حلت نفسها أو حالتها الظروف فذلك شيء واضح ؛ نعم ، هذا العصر وأدباؤه وفلاسفته ورجال الدين فيه يحيون كما يحيا غيرهم من الناس . ويشتركون في النشاط العام ، يؤيدون هذا المذهب السياسي أو ذلك . ويظهرون هذا الحزب الاجتماعي أو ذلك ، ويصطفون في هذه المظاهرة وذلك التأييد ما يصطنعه غيرهم من الناس ، فهم يلقون الكتب . وينشرون الرسائل ، ويذيعون المقالات ، وهم يشتركون في الانتخابات فيصوتون للأحزاب السياسية والاجتماعية التي تلامم ميولهم وآراءهم

وأمرجتهم وأهواءهم . وقفا تجد واحداً من هؤلاء الناس قد اعتزل الخصومات السياسية والاجتماعية ، فلم يكن فيها رأياً ، ولم يُظهر فيها هوى ، ولم يتخذ لنفسه منها موقفاً معيناً معروفاً . وهذا الحل الذي اقتضته طبيعة الأشياء أو فرضته ظروف الحياة هو الذي يحتاج إلى البحث والتفكير ، وإلى أن تبين ملامته أو مبادئه لما ينبغي للتثقف المتناز من خلق . وما تفرض عليه ثقافته المتناز من واجب ، وما تحظر عليه هذه الثقافة المتناز من الأمور . ذلك أن هذا المثقف المتناز ليس مسئولاً عن نفسه وحدها كغيره من أوساط الناس وعامتهم ، بل ربما كانت آرائه بارزاً عن نفسه تأتي في المنزلة الثالثة : وقفا السجة التي تأتي في المنزلة الأولى فهي تبعته بارزاً ثقافته : بارزاً عنه إن كان عذراً ، وأدبه إن كان أدبياً . وفلسفته إن كان فيلسوفاً ، وفنه إن كان من رجال الفن . براء عقله قبل كل شيء ، وبعد كل شيء . فما ينبغي أن يتبدل العقل في سبيل الأعراض الزائلة ، والمدفع العاجل ، والظروف الطارئة . وهذه الألوان التي تختلف على هيئة المس قمرضى حيناً ، وتسلط أحياناً ، وترفع حيناً ، وتضع أحياناً . بل يجب أن يكون العقل مرتفعاً دائماً عن صفات الحياة ، محتفظاً دائماً بمكانته المتناز . لا يصغر ولا يتضائل . ولا يتعرض لما تقتضيه الحياة العامة في بعض الأحيان من سرور البدنة وأضوائها .

وليس المثقف مسئولاً عن عقله حسب ، بل هو مسئول عن نتائج هذا العقل وعن آثاره في معاصريه من جهة وفي الأجيال المقبلة من جهة أخرى . فالمثقف المتناز أستاذ . سواء أشغل منصب التعليم أم لم يشغله . ومن الحق على الأستاذ لتلاميذه أن يكون لهم مثلاً صالحاً وقدوة حسنة ، وأن يعصم لهم نفسه من الضعف الذي يفسد رأيهم في العقل ويشككهم فيه ويدفعهم إلى أن ينظروا إليه كما ينظرون إلى مصادر الإنتاج المختلفة ، كالبحارة والزراعة والصناعة ، على أنه شيء قابل للبيع والشراء والأخذ والعطاء ، وعلى أنه يصلح موضوعاً للمساومة

أى مهما تكن شريفة نقيّة فإنها لا تليق بالحق ولا بانفعل الذى يلتبس الحق ويبحث عنه . ثم هو آخر الأمر مسئول عن نفسه : فقد ينبغى للرجل الكريم أن يأتي من الأمر ما يستغذى منه أمام نفسه إذا خلا إليها ، وألا يشارك فيما لا يطمئن ضميره الخالص إلى المشاركة فيه . وجملة القول أن المثقف الممتاز خليق أن يحفظ لنفسه بالحرية المطلقة التى لا تشوبها شائبة . وبالكرامة النقية التى لا يكدرها مكدر . وهو بعد ذلك — أو بحكم ذلك — خليق أن يصطنع مع الناس دراحة وانحة جليلة لا يشوبها لبس ولا غموض . فكما أنه محتاج إلى هذه الحرية وإلى هذه الكرامة ليستكشف ذاتاً من قوانين العلم ، أو لينتج ثروة من أدب ، أو ليشتغل أصلاً من أصول الفلسفة ، أو ليخرج ضرباً من ضروب الفن ، فإنّه محتاج إلى العسراحة المطلقة ليعلم إلى الناس ما وفق له من ذلك ، وهو محتاج إلى الحرية والكرامة والعسراحة فى كل ما يشارك الناس فيه من أدب أو نشاط . ولا عليه أن ينكره الناس أو يصيتوا به . ولا عليه أن يقتله السلطان أو يخط عليه ، لا يخاف سخط الناس ولا مقت السلطان . في متصل بعلومه وأدبه أو بصفته وفنه . وتاريخ المثقفين الممتازين حافل بالذين ضحوا بأراحته والأمن والحياة فى سبيل الرأى بل فى سبيل العقل : فما ينبغى أن تنقطع هذه السلسلة ، بل ينبغى أن تتصل وأن يكون الاستعداد للضحية والتعرض لها والإقبال عليها هو الذى يكسب الجماعة عن إيذاء المثقف الحر ، ويردع السلطان عن اضطهاد العقل . حين يشر الناس ويشعر السلطان بأن الإيذاء والاضطهاد لا يغيران من حرية العقل ولا يبلغان المؤذين والمضطهدين شيئاً . هذا هو المثل الأعلى للمثقف الممتاز ؛ فهل أحفظ به المثقفون الممتازون فى هذا العصر الحديث أم هل أضاعوه كله أو بعضه ؟ هل أحفظ العقل الممتاز بحريته المطلقة وكرامته النقية وحراحته التامة أمام المشكلات التى عرضت للأوروبيين فى حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؟ أليس

بين المثقفين المتأخرين من داهنوا في السياسة وصانعوا في الاقتصاد وشاركوا في  
الظلم الاجتماعي ؟ ! أليس بينهم من غرّتهم المنافع العاجلة وأغرّتهم المصالح القريبة  
فصانعوا ولم يكن من حقهم أن يصانعوا ، وسكنوا وكان الحق عليهم أن يتكلموا ؟ !  
هذا هو الموضوع الذي عالجه جوليان بندا في الكتاب الأول من هذه الكتب  
الثلاثة ؛ وهو كما ترى يصور ناحية من نواحي الأزمة التي تخضع لها الحياة العقلية  
في هذا العصر الحديث .

أما الكتاب الثاني فقد عرض لناحية أخرى من نواحي هذه الأزمة العقلية ؛  
فقد كثر القراء في هذا العصر يقتضي انتشار التعليم ، وأصبحت أم عظيمة قارئة  
كلها ، رجاء ، ونساء ، شبها وشبها ، بل صبتها أيضاً . وكل هذه الطبقات  
القابلة في حاجة إلى الغذاء العقلي اليومي ، ولكنها مختلفة متفاوتة فيما بينها : فهنا  
الطبقات ذات الثقافة العميقة الواسعة ، ومنها الطبقات ذات الثقافة المتوسطة ،  
ومنها الطبقات ذات الثقافة السيرة جداً . وكل أولئك يريدون أن يقرءوا ، وكل  
أولئك يشترطون ما يقرءون . وواضح جداً أن أصحاب الثقافة العميقة الواسعة لا  
لا تذكر بالقياس إلى أوساط الناس ودهاشهم ؛ فالذين يكتبون لهذه الفئة أجبر  
ألا يصيبوا من الربح شيئاً تماس إلى ما يصيبه الذين يكتبون لأوساط الناس  
ودهمهم . وإذا فهناك أزمة خطيرة يتعرض لها الكتاب الجيد المتقن الذي يصور  
الثقافة العالية المتأخرة . والذي يحتاج صاحبه إلى أن يبذل فيه الجهد العنيف ،  
والوقت الطويل ، والتفكير العميق . وإذا فلن يُقبل الطابعون والناشرون على  
هذه الكتب المتأخرة في نفسها . لأنها لا تضمن لهم ربحاً ، وقد تجر عليهم ، بل  
من المحقق أنها ستجر عليهم خسارة عظيمة . والأمر لا يقف عند هذا الحد ؛  
فالناس في حاجة إلى القراءة ، ولكنهم في حاجة إلى القراءة السريعة اليسيرة السهلة ؛  
لأن الحياة الحديثة تقتضي السرعة والسهولة واليسر . والفصح والمجلات تقدّم إلى



الأساس ما يريدون وأكثر مما يريدون ، فما حاجتهم إلى الكتاب الجيد أو الردي ؟  
 من الأمر أشد خطراً من هذا . فهذا الراديو الذى احتل البيوت كلها ، والأندية كلها ،  
 وليادين كلها ، والذى يصحبك فى القطار . ويصحبك فى السفينة ، ويصحبك  
 فى السيارة — هذا الراديو يغنيك عن القراءة : عن قراءة الكتب . لأنه يتحدثك  
 فى الأدب والعلم والفن ، وعن قراءة الصحف ، لأنه يعمل إليك الأنباء على اختلافها ؛  
 ومن كل قراءة لأنه يستطيع أن يشغلك مادست بقطران . وأن يشغلك دون أن  
 يملكك ، وإنما هو مفتاح يدار فينصب عليك الكلام أو الغناء أو الموسيقى . ثم يدار  
 فيقطع عنك هذا كله . ولا بأس أن تدعه يصيح بما يشاء . وأن تمنى أنت فيه تشاء .  
 نغ له إن أحببت ، ونعرض عنه إذا أردت . فما حاجتك إلى القراءة التى تقيد نظرك  
 وتثقل ، وتشغلك بنفسها عن كل شئ . ! ولا تنس السنين ، فأنت واجد فيه منى  
 شت ما يرضى عينك وأذنتك معاً : فما حاجتك إلى الكتب . وما حاجتك إلى  
 الصحف ! ولكن هذا الإنتاج الذى تنشره الصحف ويذيعه الراديو والسينما شئ ..  
 الإنتاج العالى الممتاز شئ آخر . فإذا أغرق الناس فى الاستمتاع بهذا الإنتاج  
 السريع ، ضعفت عقولهم وقلوبهم وملكاتهم . وضعت شخصياتهم ،  
 وأصبح بعضهم مشبهاً لبعض . وأصبحوا وقد صيغوا على صورة واحدة هى التى  
 يرونها عليهم عليها الراديو أو السينما أو الصحف .

والواقع أن هذه الأدوات الثلاث تجتمع كلها غالباً فى أيدي واحدة . وإذا  
 قلنا الخطر على العقل وإنتاجه المتناقص . ولكنه على الحرية أيضاً وعلى  
 شخصية الأفراد والجماعات فى الوقت نفسه . ومن أجل هذا وأشياء أخرى كثيرة  
 نرى هذا بعث جورج دى هاميل صيحة الخطر المنكر فى كتابه هذا  
 الذى سماه « الدفاع عن الأدب » . وهو بالطبع يريد الدفاع عن الأدب الرفيع

الذى لا ينتج في سرعة ولا يساغ في سرعة ، وإنما هو محتاج إلى الأناة والمهل لينتج ويساغ .

أما الكتاب الثالث قصته أطرف وأعجب من قصة الكتابين الآخرين . ذلك أن صاحبه قد أبى أن يكون مثقفاً خائفاً ، وأبى أن يدعى لمقتضيات الحياة الحديثة ، وصمم على أن يحتفظ بشخصيته كاملة ، وعلى أن يفرضها على مواطنيه فرضاً ، غير حافل برضاهم إن رضوا ، ولا بسخطهم إن سخطوا ؛ إنما هو مزيم أن يفكر ويعلم نتيجة تفكيره ، وأن يلاحظ ويعلم نتيجة ملاحظاته . والشروط الأولى للاحتفاظ بهذه الحرية المطلقة أن يعزل نفسه استقلالاً المادى والمعنوى . فأما الاستقلال المعنوى فبلى ، يتصل برأيه . وهو قادر على أن يوفره لنفسه متى شاء . وأما الاستقلال المادى فبلى ، إذا تمثل المعنى الذى صورده شاعرنا القديم تصويراً حسناً حين قال :

لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرئ  
سرى راغداً أو راهباً وهو يعقل  
وقد تمثال صاحبنا هذا المعنى تمثلاً حسناً ، فعاش من عمله عيشة متواضعة ليس لأحد عايه فيها يد ولا سنيعة ؛ وهاجر من وطنه فلاحظه من بعيد ، وأرسل إليه كتيبه من بعيد أيضاً . عاش فى أسبانيا وفى جزر البليار خاصة ، فلما شهد الثورة الأسبانية أنكر آثارها ، فهاجر من أسبانيا ، وعصور إنكاره هذا فى كتاب رائع ، ما أضل إلا أن المتصبرين فى أسبانيا قد ضاقوا به كل الضيق . ولكنه لم يترك أسبانيا . يستقر فى وطنه . بل لجعل المحيط إلى أمريكا الجنوبية . ومن هناك أرسل كتيبه هذا الذى أتمدث عنه .

وهذا الكتاب يصور ما يملأ نفس الكاتب من السخط العنيف على ثلاثة أشياء : على موقف فرنسا فى مؤتمر مونتيخ فى السنة الماضية ؛ لأنه كان موقف خزي وذلة لا يلائم الشرف الفرنسى ، ولا يلائم طبيعة الشعب الفرنسى العظيم ، ولا

بأنهم مصلحته القريبة والبعيدة ، وإنما يلازم أهواء جماعة من الساسة أصحاب  
الموس الضعيفة والنظر القصير .

وعلى حزب الملكيين الفرنسيين : فالكتاب ملكي متطرف في حب الملكية  
وأي بغض الجمهورية . ولكنه ينكر سياسة حزبه أشد الانكار : لأن هذا الحزب  
يدال الشعب الفرنسي من جهة ، ويضل صاحب الحق في العرش الفرنسي  
من جهة أخرى ؛ يعطاع في السياسة وما ينبغي للسياسة الملكية أن تصانع أو  
لا تصنع ، يحيل إلى دكتاتورية موسوليني وهناك لأن الديكتاتورية تعاضم الجمهورية .  
والكتاب الديكتاتورية تعاضم الملكية الصحيحة أيضاً أو الملكية الفرنسية على كل حال .  
وعلى الكنيسة الكاثوليكية : فصاحته متدين إلى أقصى غيات الدين .  
من كاثقوى ما يكون الإنسان ، ولكنه يريد من الكنيسة الكاثوليكية أن  
تكون صادقة مخلصة بالدين ، لا تصانع في ذلك ولا تداجي : وهو يراها قد  
تحت المتسربين في آسيا ، فانسحبت في اضطعوا من عنف ونعمت بدها  
بمفسكوا من دم بري . فهو ينكر عظم ذلك في حرية مطلقة ومراحة لا حد  
لا يعنيه أن ترضى الكنيسة عنه أو تسخط عليه ، كما لا يعنيه أن يعرفه  
أو لا يكون أو أن ينكره ، وكما لا يعنيه أن يحبه الساسة الجمهوريون أو ينفضوه ؛  
والذي الذي يعنيه شيء واحد ، أن يفكر حراً ، وأن يعين رأيه حراً . وأن يحتل  
ذلك تبعات هذا الرأي مهما تكن .

وواضح جداً أن مثل هذا الكتاب يقدح القراء الفرنسيون أحسن لقاء : لأنه  
حراً أولاً ، ولأنه يهاجم في عنف ما يكره الناس ما يحته ، ولأنه بشير الفيظ والخلق  
في الجوب كثير من الناس ، ولأنه بعد هذا كله قد جلي في أروع صورة  
أدبية ممكنة .

أرأيت إلى هذه الكتب الثلاثة ، وإلى ما تصور من النواحي المختلفة لأزمة

الحياة العقلية على اختلاف فروعها ! ألت توافقتي على أن قراءتها خليقة أن تُسأل  
عن كثير مما نسمع ونرى في مصر من التقصير في ذات الثقافة العليا ، ومن ابتذال  
العقل الممتاز في سبيل المنافع العاجلة والأعراض الزائلة ، وحسن المكانة عند هذا  
العظيم أو ذاك ، وحسن المكانة عند عامة القراء الذين يستطيعون أن يهدوا إلى  
من يرضيهم ويهبط إليهم شهرة عظيمة بعيدة الصوت ، ولكنها أشبه بهذا الاله  
الذي يكفي أن تنفخه ليحمد كأنه ! يكن ! .

نعم ! لقد كان لي من التفكير في هذه الكتب الثلاثة تسلية عن بعض ماسمعت  
في تلك الساعة التي قضيتها أسير بين جماعة من المثقفين الممتازين . ومع أن كثيرين  
هذه الجماعة كانوا متى يؤمنون بالمثل ، ويعرفون للأدب الرفيع حقه ، فقد ذابت في  
عنى هذه الساعة النوم حتى تقدم الليل : لأنني سمعت فيها صوتاً شاذاً ، وقد صدر هذا  
الصوت عن آخر من كنت أظن أنه يصدر عنه . ومن أجل هذا أستأذنت  
القارئ الكريم في ألا أسمي صاحب هذا الصوت : لأنني لا أريد أن أؤذي .  
وفي أن أهدي إليه مع ذلك هذا المقال .

## قصة المجمع اللغوي

لا أريد مجمعا اللغوي المصري، وإنما أريد المجمع اللغوي الذي إذا أطلق عليه هذا  
اللفظ، فهم منه فهما يسيرا في غير حاجة إلى تفسير ولا إيضاح. وهو هذا الذي  
تأسس في باريس منذ ثلاثة قرون، والذي سيحتفل العالم ببنوئه هذه السن بعد أن  
تقارب هذا الفصل يومين اثنين.

فقد جد الكردنال ريشوليو وزير فرنسا العظيم في إنشاء المجمع اللغوي الفرنسي  
في مثل هذا العام (١٩٣٥) من القرن السابع عشر، ولم يكن إنشاءه هينا ولا سهلا  
بل كان لمثله العظيم من القوة والبأس ومن الجهد والسلطان، وإنما كان عسيرا  
فنادى العسر، ملتويا شديدا الاثواء. وهذا استطاع كاتب فرنسي أن يضع  
إلى جانبه العسير الملتوي قصة طريفة طريفة نشرت في «الأنستراسيون» في ملحق  
أحد من أعدادها ظهر في شهر يناير الماضي. وهذا الكاتب الفرنسي هو إميل ماني،  
ومد عنوان قصته بهذا العنوان الطريف «مولد الأكاديمية الفرنسية».

وأنا أكتب هذا الفصل بمناسبة هذه الأعياد التي ستقام في باريس بعد  
يومين، وأرجو أن يكون هذا الفصل تحية لهذه الجماعة الأدبية العظيمة التي يسميها  
الفرنسيون بحق أو بغير حق، صادقين حيناً وعاشين حيناً آخر «جماعة المخالدين».

فليس الفرنسيون جميعاً يحبون مجمعهم اللغوي ويرضون عنه ويعجبون به، بل  
كثير منهم، ومن خيارهم، يسخرون من المجمع اللغوي، ويفضون من قدره

ما وسعهم ذلك وما وجدوا إليه سبيلا . ومن هؤلاء الساططين الساطرين من أن يغلفوا السخط والسخر ما أتاح الشباب له ذلك ، حتى إذا دنا من الشيخوخة أو قرب توسط الكهولة تنهات على الجمع المغمى تنهات كما وود بجذع الأنف لو استطاع أن يظفر بكرسى من كراسى الخالدين . ومن هؤلاء الساططين الساطرين من يجد في ذلك ويصدق ويخلص في بعض الجمع المغمى والذرائع والإعراض عنه ، ويأبى إلى كل الإباء هذا الخلود الذي لا يفنى عن صاحبه شيئا .

وليس من شك في أن كثيرا من الذين سيقرون هذا الفصل قد قرءوا هذه المقدمة الزائفة التي وضعها القومس دوديه وسمها «الخالد» وأعلن على صفحتها الأولى أنه لا يرد ولا يريد وأن يريد أن يكون عضوا في الجمع المغمى . ثم صود فيها بطلان ذلك من بعض الخالدين وقدسهم وخطوتهم وصغر القومس عند كثير منهم ما لا يزال يذكر في الرحمة والاشفاق إلى الآن . ومن المعاني المأثورة الثامنة عند الفرنسيين من الخالدين هؤلاء هم في حمتهم أهل الناس حقا من الخلود . فهم يظنّون بالخلود حين ما يشرفون على الموت ويخجلون على القبر . وهم بعد أن تلقوا الموت ويهبوا إلى فاع البر لا يحتفظون في أكثر الأحيان بهذا الخلود الذي اشبهوا إليه في آخر أيامهم . واما تطوى الأيام ذكرهم طيبا ، ويطوى عليهم النسيان طغيانا . والحقق الذي ليس فيه شك هو أن الكثرة الضخمة من أسماء الخالدين الذين لبسوا الثوب الأخضر منذ ثلاثة قرون . قد ذهبت أسماؤهم إلا من سجلات الجمع . ومن الجريدة الرسمية الفرنسية . ومن بعض كتب التاريخ . وليس خلود الذين بقيت أسماؤهم ظاهرة من أعضاء هذا الجمع ناشأ عن انسيابهم إليه أو دخولهم فيه ، وإنما هو ناشأ قبل كل شيء عن آثارهم الأدبية أو غير الأدبية التي فرضتهم على التاريخ فرضا . وأكبر الظن أن الجمع انتفع بانسابهم إليه وشرف بدخولهم فيه أكثر مما انتفعوا أو شرفوا بتسجيل أسماؤهم في قصر مازران . ومن الذي يستطيع أن يزعم

فكنوز هوجو ، وأنتول فرانس ، والمريشال فوش ، والمريشال جوفرو ، وريجون  
وكراريه قد شرفوا بالجمع أكثر مما شرف بالجمع بهبه : وهم مع ذلك لم يكونوا  
من الذين أن يصفوا فصلا من الفصول أو مقالا من المقالات أو كتابا من الكتب  
في يوم ، أن يضيف كل منهم إلى اسمه العظيم هذا اللقب العظيم وهو العنوفى الجمع  
في يومى القرنى .

ليس أعضاء الجمع خالدين جميعا ، وإن وصفوا جميعا باخود ، ولكن الجمع  
عنه خالد من غير شك . الجمع الذى لا يتألف من هؤلاء الأشخاص ، أو من  
أولئك الأشخاص ، وإنما هو معنى من المعانى وفكرة من الفكر ، ومعقل من  
الإنسين ، واللغة الفرنسية ، والأدب الفرنسى ، والتقليد الفرنسية الصالحة ،  
والأدب الفرنسى بوجه عام .

هذا الجمع خالد من غير شك . لا يستطيع الزمن أن يعدو عليه إلا بتدريج  
ما يستطيع أن يعدو على فرنسا نفسها . وما دامت فرنسا الجيدة قائمة ، فسيظل جمعها  
قائما على رأسها دائما مجيدا .

وفى درس القصة التى أحاطت بشأته هذا الجمع وظهوره عبوة من أراد أن يعبر ،  
بوجه عظة لمن أراد أن يتعظ ، وموضوع عمل وتفكير لذين يحسون التأمل والتفكير .  
وسيل إلى الموازنة والانتفاع لذين يعرفون بالموازنة والانتفاع ، ولعل القصة التى  
أدت إليها آتيا أجل ما صور نشأة هذا الجمع العظيم . فنحن حين ننظر فى هذه  
القدمة نرى فى أواخر رجلا من أوساط الناس وأشرفه متصلا بعظيم من عظماء  
فرنسا ، ويعمل فى إدارة أمواله وأعماله ، وقد أجهده العمل ذات يوم ، فإراد أن يرفقه  
على نفسه ، فزار صديقا له قيسا ، وهو يارويير الذى كان أثيرا عند الكردينال  
ريشوليو ، منتظعا إليه ، يستلوه ويلبسه ، ويتجسس له على الأشراف والعظماء ، والذى  
كان أدبيا مترفا ، وشاعرا متكثفا ، ورجلا موقفا من رجال الدين . فلما انتهى هذا

الشريف إلى هذا القيس وأخذ في حديثهما، عرف القيس أن صاحبه يختلف إلى  
اجتماع خاص سرى يتألف من تسعة نفر سماهم له . وأن هؤلاء نفر قد ألفت بينهم  
المودة الخاصة والحب الصادق للأدب ، فهم يلتقون من حين إلى حين ، في بيت  
واحد منهم ، يتحدثون في الأدب والشعر ، وفي الفلسفة والحكمة ، ويعرض كل  
منهم على أصحابه ما أحدث من أثر . فيتناولونه بالتقد في نصيح صارم لا يجب الهوان  
ولا المداراة . فما سمع القيس من أمر هؤلاء نفر ما سمع رايه أمرهم وأشفق عليهم  
يكونوا قد ألقوا جماعة سرية تخرج على القانون وأمر الوزير العظيم ، فأنس إليهم  
متجسسا ، واتصل بهم مترقفا ، ولكنه لم يسمع منهم . ولم يتحدث إليهم حتى أمرهم  
على الدولة وعلى مولاد . وحتى أحب سيمفون . وأحال فيه التفكير ، وود لو استفاد  
أن يحول هذا الجمع إلى شيء رسمي اعترف به الدولة ويعينه السلطان . فتحدث  
في ذلك إلى مولاد . وأذن له مولاد في أن يطلب إلى هؤلاء الناس أن ينظموا أمرهم  
وينظموا عددهم ويهيئوا أنفسهم ليصبحوا جماعة رسمية . ثم قضى في القصة قضي  
هؤلاء الأدباء . وقد ألقى إليهم أمر الوزير العظيم . فضايقوا به وارتاعوا له ، وأشفقوا  
على حريتهم وعلى أدبهم من عبث السياسة وكيد السلطان ، ولكنهم مع ذلك  
يستطيعوا إلا أن يذعنوا لأمره . ويستحيوا إذا دعوا إليه ، فنظموا أمرهم ووضعوا  
لأنفسهم قانونا ، وأخذوا يسمون إلى أنفسهم جماعة من أعلام الأدب والشعر .  
ولكنهم قد قرأوا عن حريتهم منذ قبلوا عطف السلطان ! فأوزير العظيم لا يحب لهم  
أن يختاروا من أعلام الأدباء والشعراء من يريدون . ولا من تهيئهم كفاتهم  
ليكونوا أعضاء في الجمع ، وإنما يحب لهم بل يأمرهم أن يختاروا من يريد هو ومن  
يرضى عنهم هو ، ومن تهيئهم أعلامهم السياسية الظاهرة أو الخفية ليكونوا في الجمع  
اللقوى . وما دام هؤلاء نفر قد أذعنوا مرة فلا بد لهم من المنى في الأذعان .  
وهل كانوا يستطيعون أن يخالفوا عن أمر الوزير العظيم ! إنما كانوا مخيرين بين



الاداعة المطلقة والحنة المطلقة . فآثروا الطاعة على الحنة . ووضعوا قانونهم وضخموا  
معددهم ، كما أرادوا ويشولوا كما أرادوا .

ثم تمضى فى القصة فترى الوزير الكردى يطلب إلى الملك لويس الثالث عشر  
على أن يعترف فى الدولة بهذه الجماعة ، فيجيبه الملك إلى ما طلب . ويتبع  
دولة بهذا الأمر : فقد أصبحت اللغة الفرنسية جماعة رسمية . تحميها من العبث . وتحفظها  
أن من الضياع ، وتضمن لها النمو والصفاء . وهذا أمر الملك يرسل إلى البرلمان ليُسجل فيه .  
بما كان النظام يريد فى ذلك الوقت . وهذا البرلمان يحيل أمر الملك على مقرر اختاره  
من نفسه . وعرض أمره عليه . ولكن هذا المقرر كان رجلاً مترف المعدة ، والخلق ،  
واعلم ، غليظ العقل والقلب . يؤثر صناعة الطبخ على صناعة الأدب . ويقدم ألوان  
شديدة على فنون الشعر . وكان البرلمان والشعب الباريسى معه يكرهان الوزير  
الكردى . وبينما كان فى طريقه وأولاده . فلم يشك الناس ولم يشك  
البرلمان فى أن الجمع المغوى إنما هو أداة سياسية لطفيان هذا الطاغية .

ومن هنا سخط الشعب على الجمع وعداً أحمائه من الخوبة . وسخط البرلمان على  
الجمع ، واستجاب لدعاء مقدره فرفض تسجيل الأمر الملكى ، وأبى الاعتراف بهذه  
الجماعة . وتناقل الناس عن مقرر البرلمان أنه كان يقول : إن بطون الفرنسيين أحق  
بالناية من عقولهم ؛ فآلعمول تستطيع أن تصير . وأما البطون فليس لها إلى الصبر  
سبل . وكان الجمع المغوى فى أثناء ذلك ياتس بائساً ، حزيناً مسكيناً . ليس له  
سفر يطمئن فيه ولا ملجأ يأوى إليه . إنما هو ينقل بين الدور التى كان يسكنها  
أعضاؤه ، فهو اليوم ضيف على هذا المصو ، وهو غداً ضيف على ذاك . وكان  
أعضاء الجمع إذا انصرفوا عن اجتماعاتهم لم يسمعوا ولم يقرأوا إلا شراً ونكراً ؛  
قد كانوا كهُم الحديث وسمر السامرين ، بل كانوا موضوعاً للغناء الطرائل والدعابة  
اللاذعة . وهم كانوا يستحقون كثيراً مما كان يصيبهم من الشر ؛ فهم قد حملوا

أنفسهم أفعالاً لم يستطيعوا جعلها : أخذوا أنفسهم بوضع المعجم ثم لم يشعروا  
فيه ، وأخذوا أنفسهم بإصلاح النحوم لم يصلحوا منه شيئاً ، وإنما أنفقوا  
اجتماعاتهم المتصلة في خطب ومحاضرات لبس ف رأس ولا ذيل . وقد زهد فيهم  
مولاهم الوزير الكاردينال نفسه واستينس منهم ، وانصرف عنهم إلى عمل أدنى  
آخر كان يحبه وتهالك عليه . فقد كان الوزير الكاردينال يحب التمثيل كما كان  
يقرض الشعر . وقد بدأه ذات يوم أن يقترح خمسة من الشعراء من بينهم كورني  
ومن بينهم قيسه دواروير ، وأن يقترح عليهم موضوعاً ينشئون فيه قصة تشبه  
وأن يرسم لهم خطة هذه القصة . وقد شعده هذا كله عن مجده اللغوي . وتم إذا  
القصة وأستمع لها ورسمي عليها ، وقد رسمت الشعراء وهو كورني ، وأجاز بعضهم  
الأخر ، وهما القصة للتمثيل وأمر بنشائها وأنفق فيه مالا كثيراً ، ولكن القصة  
أخفقت شر إخفاق . وقد غضب كورني من قد الوزير له فنفى نفسه من باريس  
وأقام في تورمندا حينئذ معصية له صبة على فنه . وأصبح الناس ذات يوم  
وإذا بباريس لا تحدث إلا بكورني وقصة تشيلية أنشأها كورني فتجسدت لوجها  
باهراً وحفرت فوز عظيم ، وهي قصة « السيد » .

وفي أثناء هذا الوقت الذي نجحت فيه قصة « السيد » وشغلت بباريس كان  
الوزير الكاردينال يهيئ تمثيل قصتين اقترحهما ورسم خطتهما ، ورضى عليهما  
إنشائهما وأمر بتمثيلهما .

فلما سمع بقصة السيد ، وما أدركت من فوز عظيم ذلك . على أنه أخفى غوطه  
وأمر قيسه أن يشهد التمثيل وأن يحدثه عن هذه القصة . وجاء القيس ليثني على  
القصة ثناء حسناً ، ولا يعيبها إلا بأنها لم تخضع للقاعدة المقدسة ، قاعدة الوحدات  
الثلاث التي كان الوزير الكاردينال يحكمها ويحرص عليها ، كأنها قانون من  
قوانين الدولة . على أن الوزير لم يعصب للوحدات الثلاث ، وإنما غضب لأمرين

الذين : الأول أن قصة السيد تشيد بالمبارزة ، وهو كان قد حرمها . وقتل بعض الأشراف الذين خالفوا عن أمره وأقدموا على المبارزة . والثاني أن قصة السيد تشيد بالأسبانيين في وقت كانت جيوش أسبانيا فيه قد احتلت بعض الأرض الفرنسية ولم تجل عنها إلا بعد جهد عظيم . ويريد سوء الحظ أن تشل القستان من اقتراحهما الوزير فيذكر كما الإخفاق لشكر كما أدرك القصة الأولى . على حين لا تزاد قصة السيد إلا نجاحاً وفوراً .

وكان الوزير الكاردنال يود أن يعاقب كورني على نجاحه . ولكن ماذا يصنع والجمهور معجب بالقصة ، والقصر معجب بالقصة أيضاً : فقد شهدتها الملكة مرين ! ثم بدأ من أن يشهد لها هو أيضاً : فامر فثلت له في قصده . وأخبر الإعجاب بها وثناء عليها ، ورتب ناشاعر مكافأة حسنة منصفه . ولكنه ذكر أمره من وراء السبب نديراً . فهؤلاء جماعة من الشعراء والكتاب ينفذون القصة نقداً عفيفاً ، وهؤلاء جماعة آخرون يدفعون عنها دفعاً قوياً . وهؤلاء الباريسيون يسفنون بريد الخصومة الأدبية شتماً لا عهد للأدب الفرنسي بشده . وهذا كورني يدافع عن نفسه دفاع المؤمن بنوعه العنان له الذي لا تحرج حتى من التعريض الخطر بالوزير العظيم . وهذا كاتب ينشر رسالة عنيفة في نقد قصة السيد . ولكنه يفتح اقتراحاً غريباً لا شك في أنه صدر عن الوزير الكاردنال : فهو يقترح تحكيم الجمع في هذه الخصومة التي شجرت بين الأدباء حول قصة السيد . والوزير الكاردنال يرضى عن هذا الاقتراح ويشجعه ويأمر من يوحى إلى الجمع أن يقبل هذه القضية . وكان الجمع في أول أمره متحرجاً من النظر فيها . ولكنه أذن لأمر الوزير كما أذن من قبل . على أن قانون الجمع ! يكن يسمح له بالقضاء في كتب الناس إلا إذا رضى أصحاب الكتب قضاءه فيها . فلم يكن بداً إذاً من أن يقبل كورني تحكيم الخالدين في قصته . وقد رفض كورني هذا التحكيم أول الأمر لسبب يسير ، وهو أنه

إن قيل فقد سن سنة خطيرة تبيح لجماعة من الناس أن يتحكموا في الأدب والفن والحرية والنبوغ أيضاً . ولكن كورني خير بين قبول التحكم وإلغاء الراتب الذي فرضه له الوزير ، فأثر راتبه ورضاه الوزير على الحرية والنبوغ ، وأدعوا الحكيم الخالد .

وأخذ الخالدون منذ ذلك الوقت يدرسون القصة درساً دقيقاً ، فأنفقوا لذلك جانباً من مخصصات اللجان تقريراً وتقريراً وتقريراً . وكان كل تقرير بمعرض على الوزير فينظر فيه ويتم بالتخير والتبديل . وربما كره صيغة التقرير فكلف موظفاً من موظفيه أن يضع مكانها صيغة أخرى . وكان الجمع يرى هذا ويكرهه ، ولكنه يدعى له . وما دام قد بدأ حياته الرسمية بالإذعان ، فهو مضطر إلى أن يعرض في هذا الإذعان .

على أن هذه القضية هي التي ضمنت للمجمع وجوده الرسمي . فمادام الوزير الكاردينال قد أراد أن يقضى المجمع في قصة «السيد» وأن يقضى فيها كما تريد السياسة أو كما تريد شهوة الطاغية المستبد ، لا كما يريد الأدب والفن ، فلا بد من أن يظهر هذا المجمع بكل الصفات الرسمية التي تجعل حكمه رسمياً خاتماً بالإكبار والاحترام وإذا فلا بد من أن يسجل البرلمان أمر الملك ، ولا بد من أن يعترف البرلمان بالوجود الرسمي لهذه المحكمة الأدبية العليا . وقد كاد المجمع يفسد الأمر على نفسه إفساداً ؛ فقد هيا حكمه وأرسله إلى المطبعة قبل أن يرسله إلى الوزير . على أن الوصفاء أصلحوا هذا الأمر وضمنوا غموز الوزير عن هذه القطة . وجدَّ الوزير في حل البرلمان على تسجيل الأمر الملكي ، وجدَّ البرلمان في رفض هذا التسجيل ، وانتهى الأمر إلى أزمة بين الحكومة والبرلمان . واشتهت الأبناء إلى البرلمان بأن الحكومة والقصر قد ينظران في اختصاص البرلمان وقد يضيقان من سلطانه ؛ فأدعى البرلمان آخر الأمر كما أدعى المجمع أول الأمر . وسجل الأمر الملكي سنة ١٦٣٧ وتمت

فولادة الجمع بعد أن جاهد فيها الكردينال أكثر من عامين . ولم يكد الأمر  
سلكي يسجل ويصبح الجمع هيئة رسمية من هيئات الدولة حتى أصدر حكمه في  
قصة السيد ، فإذا هو حكماً لا يرضى كورنى لأن فيه نقداً شديداً ، ولا يرضى خصوم  
كورنى لأن فيه إغضاء شديداً . ولا يرضى الجمع نفسه لأن فيه تجاوزاً للحق والسن ،  
فلا يمكنه يرضى الوزير الكردينال لأن فيه غشاً من كورنى هذا الشاعر الجرى-  
يرادى استطاع أن يقول الشعر ويعلم البوع ، ويعلم أنه ليس مدنياً لأحد بهذا  
السر حتى الوزير الكردينال .

وكذلك كان التمسح داعياً إلى التفكير في إنشاء الجمع الماغوى الفرنسى .  
إن الطمأنينة السياسى وسيلة إلى إنشاء هذا الجمع . وكان ظم السياسة للأدب سبباً  
في الوجود الرسمي لهذا الجمع . وكانت قصة السيد صيحة غذى هذا الجمع بدورها .  
وإن كان الغريب أن قصة السيد لم تمت . وإنما خفرت وخضر صاحبها المظوم بالخلود .  
والجمع نفسه لم يمت وإنما ظفر بالخلود أيضاً . فقاما إلى مات ، ومات مونا  
بعد بضعة بلاشور ، فهو طمأنينة الوزير الكردينال . وأدب الوزير  
الكردينال ، وشهوة الوزير الكردينال .

أراد ريشيليو أن يتخذ الحق سبيلاً إلى البطل . وأن يتخذ الأدب وسيلة إلى  
السياسة . وأن يتخذ الجمع الماغوى أداة للظلم . فحقق ريشيليو وزهق باطله وبجور ظلمه  
عن أن يبلغ غايته . وعاش كورنى . وعاشت قصة السيد . وعاش الجمع الماغوى ،  
وعاشت فرنسا يتألق على جبينها تاج الأدبى الخالد بعد أن نعتت عن جبينها  
تاجاً آخر لم يكن يستمد قوته ولا جماله من الفن والأدب ولا من العقل والقلب ،  
وإنما كان يستمد قوته وجماله من اليأس والبطش والطمأنينة .

## أسبوع جول رومان

يستطيع هذا الأدب الفرنسي الكبير أن يقول نفسه منذ الآن ولمواطنيه عاد إليهم بعد أيام إنه شغل المثقفين من سكان مصر أسبوعاً كاملاً بل أكثر من أسبوعاً ، ويستطيع أن يقول نفسه ومواطنيه إنه شغل هؤلاء المثقفين من سكان مصر شهراً لهذا مريضاً لا أمة فيه ولا جهد ولا عناء ، وإعاق فيه الحديث الجاد والحوار العذب ، والفكر الخصب ، والإعجاب بتظاهر الجمال الفني الرفيع . وقد يكون مسيو جول رومان من هؤلاء الأدباء المتواضعين الذين يسرهم ما يلقون من نجاح فيتحدثون به إلى أنفسهم وإلى الناس ، وينعمون به إذا تحدثوا إلى أنفسهم أو إلى الناس . وقد يكون من أصحاب الكبرياء التي تدعو أصحابها إلى العجب والخيلاء . فيزدهيهم النجاح ويدفعهم النور إلى أن يغفروا ويكاثروا ويستطيعوا على المنافسين . وقد يكون من أصحاب هذه الكبرياء التي تدفع أصحابها إلى أن يستغنوا بأنفسهم عن كل شيء ، وعن كل إنسان . وإلى أن ينظروا إلى الناس في شيء من الأذراء الرحيم ، فلا يزهيههم إعجاب الناس بهم ، ولا يسوءهم إعراض الناس عنهم . ولا يستخفهم من الناس شيء . لأنهم لا ينتظرون من الناس شيئاً ، وإنما ينتظرون من أنفسهم كل شيء . وأكبر الظن أن جول رومان ليس من هذه الطبقة بين طبقات الأدباء : فقد رأيت شديداً العناية بما يكتب عنه في مصر أو يقال فيه . ورأيت شديداً الحرص على أن يتبين ذلك ويحصى ويتفهّم . ثم سمعته يتحدث في بعض محاضراته عما قال هذا الناقد أو ذاك في هذا الكتاب

أما ذلك من كتبه التي أذاعها في الناس . بل سمعته يتحدث في بعض محاضراته  
 أنه إذا أصدر كتاباً من الكتب التي يصور فيها حياة الأفراد والجماعات كانت  
 عنيته برأى هؤلاء الأفراد وهذه الجماعات في كتابه أشد جدّاً من عنيته برأى  
 الفرد والجماعة . وقد قص علينا في ذلك قصصاً طريفة ، وكان ظاهر السرور  
 ورضا حين كان يقص علينا هذه القصص : لأنها كانت تصور مقدار ما ظفر به  
 في التوفيق إلى رضا الأفراد والجماعات الذين وصفهم في كتبه وأسفارهم . وقد  
 رأينا بأنه يلهو أحياناً بالمقارنة بين ما يكتب إليه القراء وما يكتب عنه الناقدون ،  
 وما تنتهي إليه هذه المقارنة من بعد التدبّر عن الحق والإنصاف وتورطهم في  
 طغرائهم والجور ، ومن إصابة القراء لمواضع الصدق وحسن التقدير . وإذا لم يكن  
 دليل رومان من أصحاب الكبرياء العاغية المعتصمة بنفسها المتعالية عن الناس ،  
 من شئ في أنه سيفتبط ويتهيج حين يعلم أنه قد شغل المثقفين في مصر  
 أسبوعاً أو أكثر من أسبوع . ولم يثر في نفوسهم إلا حيرة وإعجاباً وعناية بأثاره  
 ولذا في قراءتها والاستمتاع بما فيها من جمال . ثم لا وسيتبع ويقتبط حين يعلم  
 أن المثقفين من أهل مصر قد نظروا إلى هذا الأسبوع الذي أقامه بينهم محاضراته  
 كأنه عيد من أعياد الثقافة العليا ، خلقت فيه نفوسهم من أفعال الحياة  
 الرومية وأعبائها وتكاليفها ، وما شجرة من الخصومات وما تبعته من المصوم التي  
 تصعب القلوب ، ومن الأحزان التي تبيت النعوس ، ومن المشاغل التي تنحط  
 بأثقالها عن مكاتبها وتبتذلها ابتذالاً .

بدى هذا الأسبوع حين أتى جول رومان محاضراته الأولى في مدرسة الليسيه  
 الفرنسية ، وختم حين أتى محاضراته الأخيرة في قاعة الجمعية الجغرافية مساء الخميس  
 الماضي . وكان في محاضراته الأولى يتحدث عن وطنه فرنسا ورأى الأفراد والشعوب  
 فيه . وكان في محاضراته الأخيرة يتحدث عن نفسه وعن كتابه الأخير . وعن

وأى الناس من مواطنيه ومن غير مواطنيه فيه وفى هذا الكتاب . وكان فيما بين ذلك يتحدث عن العقل وعما أحدث فى حياة الناس السياسية من خير ، وما ينتظر أن يحدث فى مستقبل حياتهم من خير . وكان فيما بين ذلك أيضاً يتحدث إلى الجماعات والأفراد أحاديث حصة فى موضوعات مختلفة من الأدب الفرنسى والأجنبى ، ومن السياسة والفلسفة والاقتصاد . وكانت أحاديثه ومحاضراته كلها متعة عالية ممتازة للذين استمعوا منه وتحدثوا إليه . ذلك أن جول رومان ليس أدبياً عادياً من هؤلاء الأدباء الذين يتبعون الآثر الأدبية القيمة دون أن يتنازوا ما كثر من قدرتهم على الانحياز وراعتهم فيه . إنما هو أدب ممتاز حقاً . وأما ما يميزه من الأدباء . أنه من هؤلاء الأفراد القليلين الذين جعلت نفوسهم مرآة صادقة شديدة الصفاء . انعكس فيها صور الحياة التى تحوط بها ، فإذا وصلت إليها استقرت فيها . وما تزال الصور تتبع العصور دون أن يطفى بعضها على بعض أو يفسد بعضها جمال بعض . وإذا أنت أمه نفس من أغنى النفوس ، أمام نفس لا تصور فرداً ولا بيئة ، إنما تصور نوعاً كاملاً . وإنما تصور خلاصة كاملة لأرض ما تنقل إليه الثقافة فى عصر من العصور . والذين كانوا يسمعون من جول رومان أو يتحدثون إليه إنما كانوا يسمعون من العقل الفرنسى كله . ويتحدثون إلى العقل الفرنسى كله . ولا تظن أن فى هذا النحو من القول غشاً أو ميلاً إلى الإسراف ، إنما هو الحق كل الحق ، والاقتصاد كل الاقتصاد . ذلك أن جول رومان لم يكذب ببلغ رشده الأدبى ، كما تقول . حتى رأى نفسه أكثر من فرد ، ورأى مطعمه الأدبى أكثر من مطعم الفرد . ورأى أنه إذا كتب فلن يستطيع أن يكتب كما تعود الناس أن يكتبوا فى هذه الموضوعات المحصورة ، وفى هذه الأطارات الضيقة المحدودة . وإنما هو إن كتب فيصور الجماعات ، وسيصورها فى إطار واسع مخالف لما ألف الكتاب أن يتخذوا من الأطارات والحدود . رأى أنه لا يستطيع



بين أن يتخذ الفرد من حيث هو فرد موضوعاً لأدبه . وإنما الجماعة هي موضوع هذا  
 من الأدب . فهو شاعر الجماعات إن نظم الشعر ، وهو واصف الجماعات إن كتب  
 القصص . وهو مصور الجماعات إن عالج التمثيل . ولم يكدي كتب وهو في العشرين  
 من أوائل هذا القرن حتى ظهرت هذه الخصلة في آثاره ظهراً بيناً وفرضت نفسها  
 عليه فرضاً ، وأحسن هو ذلك وشعر به ، وإذا هو ينظم صفة هذه تفتيحاً ويصوغها  
 بريق المذهب الأدبي ، ويدعو إلى هذا المذهب ويجاهد في الدعوة إليه ، وإذا هو  
 شاب به صاحب مدرسة خال التلاميذ وطا أنصار ، وإذا مدرسته لا تلبث أن  
 تجاوز حدود فرنسا بل حدود أوروبا فتكسب الانتصار والتلاميذ في ألمانيا وإنجلترا  
 وأمريكا . ثم تتقدم به السن ويمضي في إنتاجه الأدبي شعراً وقصصاً وتمثيلًا ،  
 فلما مضى في هذا الإنتاج راد امتيازهُ وضوحاً وجلالاً ، ولأن مذهبه واشتدت  
 روعته . وإذا جول رومان منذ أعوام يفرض نفسه على الأدب الفرنسي ثم على  
 الأدب الحديث قرصاً ، ويصبح من أظهر الممثلين حياة الأدب الفرنسي في هذا  
 العصر الذي نعيش فيه . فليس غريباً إذا أن يكون حديثه حديث الشعب الفرنسي  
 النقف كله : لأنه قد وعى هذا الشعب كله وصوره واحتصر خلاسته كلها في  
 نفسه ، فهو يتحدث بها ويتحدث عنها . وهو يصورها في حديثه أجمل التصوير  
 وأروع وأبلغ تأثيراً في النفوس . وقد عالج جول رومان من فنون الأدب الشعر  
 وعالج القصص وعالج التمثيل . وكان قبل هذا كله أستاذاً للفلسفة . مر بالسوربون  
 طالباً ، وتخرج في مدرسة المعلمين العليا . وعلم في المدارس الثانوية . وليس هنا  
 بالطبع موضع الدرس لشعره وقصصه وتمثيله ، فذلك شيء لا ينسج له فصل في صحيفة  
 بل لا تنسج له فصول ، وإنما تنسج له كتب وأسفار .

ولكن من الخير أن ندع الآن شعر جول رومان لأنه هو نفسه قد انصرف عن  
 الشعر أو كاد ، وأن نقف وقفة قصيرة عند تمثيله ، ووقفة أقصر منها عند قصصه

وعند كتابه الأخير بنوع خاص . ونفل أظهر ما يتنازع به تشيل جول رومان أنه أقرب التشيل الفرنسى الحديث إلى تشيل مولير ؛ فموضوعاته فرنسية ولكنها من دون إطارها الفرنسى تتجاوز قرن . وتصبح موضوعات إنسانية عامة لا تقتف عند بيئة خاصة ولا عند زمان بعينه ، وإنما تتجاوز الزمان والمكان المعينين إلى جميع الأزمنة والأمكنة . قصته الدكتور « كنوك » ليست نقداً لطبيب بعينه ، ولا لطبيب فرنسى ولا لطبيب فى القرن الثم عشرين ، وإنما هى نقد للون من ألوان حياة الأطباء فى كل أمة وفى كل عصر وفى كل مكان . ولا يكاد يعرف التشيل الفرنسى بعد الحرب فوراً كالغور الذى أدركته هذه القصة التى لا أتردد فى أن أراها آية من آيات التشيل الحدث .

وقصته التى تسمى « مسيو لثروادك » . وقصته الأخرى التى تسمى « زواج لثروادك » لا تصفان أستاذاً بعينه من أساتذة الجغرافية ، وإنما تصفان لوناً من حياة الأستاذ الذى نلقى عليه ظروف الحياة فخرجه عن الدرس إلى الحياة العامة ، وتعرضه لألوان من الغنى والخطوب غير المسجلة ولكنه الضحك الذى يشهده مولير والذى يتلى بالمر والمفاتيح . وقد هممت أن أسأل جول رومان لماذا اختار هاتين القصتين بدلاً من أساتذة الجغرافية ، دون أساتذة التاريخ أو العلم الطبيعى أو الفلسفة ؟ وأكبر الظن أن هذا الاختيار ليس نتيجة المصادفة . ومن يدري ! لعله كان يضيق بأستاذ من أساتذة الدين تعلم عليهم وصف الأرض وتقسيم البلدان فى المدرسة أو الجامعة .

وليس أقدر من جول رومان على تشخيص الجماعات ومحو ما بين أفرادها من الفروق وجعلها شخصاً واحداً يشعر ويعمل وتكلم ويصدر فى هذا كله عن نفس واحدة . والذين يقرءون زواج لثروادك يرون أنه وفق فى ذلك إلى أقصى حدود الإمكان .

أما كتابه الأخير الذي لم تنفق أمس — وكثيرين — على ترجمة دقيقة من لغته ، والذي أسميه كما سماه صديق هيكس « الأخبار من الناس » فأمجوبة بتصميم الفرنسي في هذه الأيام . أخذ يظهر منذ أعوام ، وظهر منه الجزء الخامس والسادس في هذا العام . والناس يفتنون كما تكون أجزاءه ؟ وجول رومان يأتي ، وينبئهم بعدد هذه الأجزاء . اشتاقوا عليهم وعلى نفسه من السوء والخوف فيما يقول . وأكبر الظن أنه لا ينبئهم بعدد هذه الأجزاء ، لأنه هو لا يعرف كم تكون . وقد ندم بعض نقاده في « التوفيل الرير » منذ أسابيع أنها قد نيفت على العشرين ، وتغنى داندالط أن تبلغ الحمين . والله يعلم ماذا عني جول رومان . وأكبر الظن أنه لا يمتنى إلا أن تستقيم له الطريق ، ويصق القلم في يده حتى يتم شيئا لا يستبينه غير في نفسه إلى الآن .

وقد حدثنا جول رومان عن كتابه هذا أحداث صادق بها توفيق الحكيم : لأنه لا يحب أن يتحدث الكتاب عن أنفسهم وعما يكتبون ، ورغبت عنها أنا كل الرضا ؛ لأن الكتاب إذا بلغوا منزلة جول رومان كان من حفيهم أن يتحدثوا عن أنفسهم . ولست أدرى لم يباح للكتاب أن يتحدثوا عن أنفسهم إلى عشرات الألوف في الكتب ، ويكره منهم أن يتحدثوا إلى مئات في قاعة من قاعات المحاضرات ! وأحب أن يعلم توفيق الحكيم ، وأن يعلم جول رومان أيضا ، أنني لم أؤمن بكل ما سمعت من هذا الحديث . فالأدب يحدثنا بأنه تصور موضوع كتابه تصورا دقيقا كل الدقة ، محددا من جميع الوجوه ، ولم يبدأ حتى وضع له برنامجا مفصلا أدق التفاصيل . ولما كان من المستحيل أن يعرض علينا الصورة التي في نفسه ، أو البرنامج الذي رسمه لكتابه على الورق . فإني أسمح لنفسى بأن أشك في هذا الحديث . وإنما هو خيال يتطهى به الكاتب الأدب ، على حين أنه في حقيقة الأمر لا يتصور كتابه إلا تصورا مجالا ، يفصله الظروف ، وتفصله المحاولة

والكتابة بنوع خاص . ذلك أن موضوع الكتاب ليس من هذه الموضوعات التي يمكن أن ترسم في دقة وضبط . فجول رومان يريد أن يصف الجماعة الإنسانية ، فحدثني كيف تستطيع أن تحدد هذه الجماعة أو أن تحدد ما تريد أن تصف من أمرها تحديداً دقيقاً ، بل أن تصف ذلك بالفعل . إنما يريد جول رومان أن ينشئ أثراً كالذي أنشأه بلاك أو رولا أو رومان رولان . ولكن من الذي يستطيع أن يقول إن هؤلاء الناس قد رسموا موضوعاتهم رسماً دقيقاً قبل أن يبدؤوا في كتابتها ! إنما الشيء ، القيم الذي تحدث به إلينا جول رومان هو مذهبه في الاستعداد لكتابه : فهو لا يملك طريق غيره من الذين سبقوه ، فيحصى ويستقصى ويكتب المذكرات ويجمعها ويرتبها ثم يعود إليها كلها بالكتابة في موضوع من الموضوعات ، وإنه هو يحيا في جميع البشاش التي يريد أن يسورها ، يحيا فيها كما يحيا أهلها ، حتى يصبح واحداً منهم ، ثم يرسل خياله على مسجته فيكتب ، حتى إذا أتم الكتابة عاد إلى هذه البيئة فتقارن بين الصورة وبين الأصل . وانتهى في أكثر الأحيان إلى الرضا عن هذه المقارنة .

على أن التصوير الصحيح لمذهب جول رومان في الاستعداد لهذا الكتاب هو الذي تقرؤه في المقدمة . فهو تصور معقول لا يتجاوز حدود الممكن المألوف . وهو في الوقت نفسه تصوير يبين ما في هذا الكتاب من الابتكار . فالكتاب لا يدور حول شخص بعينه ولا حول حادثة بعينها ، وإنما هو قصص كثيرة مختلفة لبيئات كثيرة متباينة . تنشأ هذه القصص في وقت واحد أو في أوقات متقاربة ثم تمضي كل واحدة منها في طريقها التي رسمت لها ، فتلتقي أحياناً وتفرق أحياناً ، وتتوارى أحياناً ، ويضاد بعضها بعضاً أحياناً أخرى . والله يعلم — ولعل جول رومان يعلم أيضاً — إلى أين تنتهي وكيف تنتهي آخر الأمر .

وقد بدأت هذه القصص في أكتوبر سنة ١٩٠٨ وحدثنا جول رومان أنها

تنتهي في سنة ١٩٣٣ إلا أن يطرأ ما يغير هذا الميعاد . فالكتاب إذا محاولة جديدة  
لوصف الجماعة الإنسانية وصفا قصصياً رائعاً في ربيع قرن . وتريد أن تعلم بالطبع  
هل وفق جول رومان إلى ما أراد ؟ وتريد أن تعلم مقدار ما في هذا الكتاب من  
روعة وجمال . فالذي أستطيع أن أقوله هو أن كتاباً آخر ما يخطر ببال ما يخطر به  
هذا الكتاب من الإعجاب بعد كتاب « مرسيل بروست » في هذا العصر الذي  
نعيش فيه . فإذا أردت أن تدبّر جماله وروعته والسبيل إلى ذلك أن تقرأه . وأنا  
واثق بأنك لن تأسف على ما تنفق في قراءته من الوقت أو الجهد .

## حول قصيدة

في مساء يوم من أيام سنة ١٩٢٠ دخل الأديب الفرنسي « جاك ريفير » على  
حديقته الشاعر العظيم بول فاليري . فرأى أمامه صوراً مختلفة لقصيدة أنشأها ، أر  
قلت لقصيدة كان يفتشها . فاحتسب صورة من هذه الصور . ثم خرج فشر هذا  
الصورة في مجلة من المجلات الفرنسية الكبرى .

وهذه القصيدة هي « الفكرة البحرية » . ويجب أن تعلم أن بول فاليري لا يتم  
أثراً من آثاره الفنية وإن يتركه . وهو يفسر لنا هذا حين يتحدث إلينا في بعض  
ما كتب من الفصول . من الشعر ، وأصحاب الفن في العصور القديمة ، لم يكونوا  
يتمون أثراً من آثارهم ، وإنما كانوا يعمقون فيه ، يتقنون ، ويبدعون ، ينتقصون  
منه ، ويضيفون إليه ، ولا يثبون بين أجزائه . ويتقنون الكمال ما وجدوا إلى  
استغاثته سبيلاً ، حتى إذا أكرهوا على تركه أسموه إلى النار أو أسموه إلى الجمهور .  
فالنار والجمهور عند بول فاليري وعند أصحاب الفن الأقدمين سواء ، كلاهما يحميت  
الأثر الفني بالقياس إلى مبدعه : لأنه يختص نفسه بهذا الأثر فيحرقه تحرقاً ويقطع  
الصلة بينه وبين صاحبه ، ويجعله ملكاً لنفسه ، يتمثله كما يشاء أو كما يستطيع ،  
ويذوقه ويغمه كما يريد . أو كما تمكنه ملكاته الخاصة من الفهم والذوق .  
وبول فاليري حريص على هذه السمة الفنية القديمة ، فهو لا يتم كما قلت قصيدة  
من الشعر ، ولا فصلاً من الشعر . وإنما يعمق فيه مصلحاً مذهباً ، ساعياً إلى هذه  
الغاية القريبة التي لا تدرى وهي الكمال . حتى تضطره الظروف إلى أن يدع

قصيدته أو فصله أو كتابه لصديق مختلس كجناح وغيره أو لنشر ملج ، أو لأى طرف من الظروف التى تدفع آثار الشعراء والكتاب ، وتخرجها من أيديهم إلى يدي القراء .

وكذلك قرئت هذه القصيدة فى صورتها المعروفة على صاحبها فردا . ولعله خير لاختار صورة أخرى من هذه الصور التى كانت بين يديه ، ولكنه نظرات لم ، فإذا المجلة الفرنسية الجديدة نشر له قصيدة « القبرة البحرية » لم يكن له من التسليم والإذعان .

على أن من العسير جدا أن تظهر فى التاريخ الأدبى الفرنسى ، بقصيدة كثر حولها الحوار واشتد فيها الجدل وتسمت فيها الخصومة ، كهذه القصيدة التى تزيد على أربعة وأربعين ومائة بيت . فقد ألقى النقاد الفرنسيون أعواما برسوتها ، ويحللونها ، ويبتصمون معانيها ، وأغراضها ، ومظاهر الحسن ودخائلها . ثم لا يتفقون على ذلك بل لا يتفقون على شئ من ذلك . بل يبلغ بهم الاختلاف أقصاه . فإذا بعصب يرفع القصيدة إلى أرقى منازل الآيات الشعرية الخالدة ، وإذا بعضهم يزل بها إلى حضيض السخف الذى لا يفتنى الرفوف عنده ولا الالتفات إليه . وإذا الأمر يتجور الخجالات والصحف الأدبية إلى الصحف اليومية الكبرى ، ثم يشتد الخلاف وينظم الخصومة ، حتى يضطر ناقد من كبار المقاد إلى أن يبدأ بحثا دقيقا ، وتحقيقا بعيد الأمد . فيختار قطعتين من هذه القصيدة ويعرضهما على الأدباء والنقاد المعروفين يسألهم عما يفهمونه منها ، وما يروه فيها من الرأى . ويدعوهم ذلك إلى أن يسألهم عن أصل من أصول الفن الشعرى ظهر أنهم لم يكونوا يتفقون عليه بحال من الأحوال ، وهو الموضوع أهو ضرورة من ضرورات الشعر الجيد ، أم هو شئ يمكن أن يستغنى عنه هذا الشعر ؟ وإذا اشتد النقدة والجلاء قتل : أوجب أن يكون الشعر الجيد واحدا جليا يفهمه من قريب من

سمعه أو قرأه ، أم يستطيع الشعر أن يكون جيداً وإن حال الغموض بينه وبين فهم القارئين والسمعين ؟

ولا يكاد يبدأ هذا التحقيق حتى يعود الخلاف حول القصيدة وصاحبها كما كان جاداً عنيفاً متشعباً ، وكان قول فليوري في أثناء ذلك قد انتخب عضواً في الجمع اللغوي الفرنسي . فبشر انتخذه حقد الحاقدين وحنق المحققين ، ويزيد الخلاف حدة وعنفاً ، وتستطيع أن تقول غير مبلغ ولا مسرف إن المثقفين الفرنسيين جميعاً قد شغلوا بهذه القصيدة وصاحبها أعوام ١٩٢٧ و ٢٨ و ٢٩ .

وانتهى أمر هذه القصيدة إلى السوربون ، وما أقل ما تعنى السوربون بشعر المعاصرين ! وإذا أستاذ من أستاذة الأدب فيها هو مسيو جوستاف كوهين اتخذها موضوعاً لدرسه في تفسير النصوص الأدبية ، وإذا هو اتخذها موضوعاً لكتاب سمه محاولة لتفسير لغزيرة البحيرة . كان هذه الحركة العنيفة والشاعر صامت لا يقول شيئاً ، ما كان لا يفتي شيئاً ، أو هو لا يقول ولا يأتي شيئاً . ثم هذا الخلاف العنيف حتى اضطر صاحب التحقيق الذي أشرت إليه آنفاً أن يكتب إليه لينبهه بأن كثرة الذين أجابوا على ما أتى إليهم من الأسئلة يعترفون بأن القصيدة معنى ولكنهم لا تفقون على هذا المعنى ، وإنما يختلفون اختلافاً شديداً في تحصيله ، ويسأله أن يبين ما أراد ليقطع الشك ويزيل الخلاف . فلا يجيب الشاعر ، ويضطر كاتب آخر إلى أن يطأ به في صحيفة من الصحف الكبرى بأن يبين للناس ما أراد أن يقول في هذه القصيدة . ليظهر من أخطاء من النقاد ومن أصاب ، ويصفه بالكبرياء ، وبالحرص على أن يفيظ النقد ، ولكنه على ذلك كله لا يجيب . حتى إذا ظهر كتاب أستاذ السوربون بظر الناس ، فإذا الشاعر قد قدم بين يدي هذا الكتاب مقدمة بديمة متممة ، يصفها بعضهم بأنها مثيرة للدوار ، لكثرة ما تشتمل عليه من المعاني والآراء في وضوح لا يكشف الحجاب عنها كل الكشف ، وفي



مخوض لا يريح القراء من التأمل وإطالة البحث والتفكير . فإذا فرئت المقدمة  
لبديعة الممتعة المثيرة للدوار ، لم يبق فيها القارئ جواباً لهذه الأسئلة الملحة التي  
تلقاها النقاد على الشاعر يسمون عليه فيها أن يبين لهم ما أراد ، وإنما يجد القارئ  
في هذه المقدمة آراء مؤنسة من الوصول إلى تحصيل المعاني التي أراد إليها الشاعر  
بين نظم قصيدته . فهو يقول مثلاً : « إن الناس يسألونني ماذا أردت أن تقول ؟  
فأنا لم أرد أن أقول شيئاً ، وإنما أردت أن أعمل شيئاً ، ورغبتي في هذا العمل هي  
التي قالت ما يقرمون » . وهو يقول مثلاً : « إن الأثر الفني الذي يصدره الشاعر أو  
الكاتب أو غيرهما من أشجابه الفن لا يكاد يخرج من بدئ منشته حتى يصبح أداة  
من الأدوات العامة يصر فيها الناس كما يريدون أو كما يستطيعون . ومعنى ذلك أن  
القصيدة إذا أذيعت بين الناس ، فكل واحد منهم أن يفهم منها ما أراد أو  
استطاع . فأما ما أراد الشاعر فامر مقصور عليه حين نظم ، وأما قد نسيه أو  
أصرف عنه إلى غيره من المعاني ، فلا ينبغي أن يسأل عنه ولا أن يطالب  
ببينته للناس » .

وأطرف وأطرف أن الشاعر يثني على الكتاب الذي يفسر قصيدته فيقول :  
« إنه قريب هذه القصيدة إلى الشبان من تلاميذه . وأحاط بخصائصها التي تتصل  
بها من الموسيقى والأنسجام » . ولكنه يقول : « أوفق الأستاذ الشارح إلى تحقيق  
المعاني التي قصد إليها الشاعر أم أخطأ هذا التوفيق ؟ » .

كل هذه الآراء وآراء أخرى للشاعر العظيم في هذه المقدمة الممتعة إن لم تبين  
المعاني التي أودعها قصيدته فهي تبين شيئاً آخر أظنه أقوم وأجل خطراً من هذه  
المعاني ، وهو مذهب الشاعر في فن الشعر ، وما ينبغي له من الارتفاع عن هذا  
المنحوج الذي يفسد الفن إفساداً ، ويقربه من الابتذال . فهو يرى مثلاً أن جمال  
الشعر يأتي من أنك تعجد اللذة الفنية في نفسك كما جدت قراءته ، ومن أنك

تستكشف في القراءة الثانية من فنون الجمال ما لم تستكشفه في القراءة الأولى ، بل تجد في كل قراءة فناً جديدة من الجمال لم تجدها في القراءات التي سبقتها . وأنت لا تجد هذه اللذة المتعة المتنوعة إلا لأنك خالق أن تستكشف في كل قراءة معنى جديداً يثير في نفسك شعوراً جديداً بالجمال . وهو يرى مثلاً أن الشعر صفات تعصمه من الموت أو تعصمه من الموت القريب ، وهذه الصفات تتصل بوزنه وقوافيه ، وبهذه الصور الخاصة التي لا تجدها في النثر . وموت الأثر الفني عنده يأتي من فهم الناس له . فانت إذا قرأت كتاباً وفهمته فقد قتلته وقضيت عليه . فهناك إذا جهاد عسير بين القارئ والمقروء . فإذا فهم القارئ فقد غلب وإنما الأثر الفني الخالق بهذا الاسم هو الذي غلب قارئه وبعجزه . ولكن دون أن يضطره إلى اليأس والتمنوط . ومن هنا يرى شاعرنا العظيم أن النثر بطبيعته يكونه أقرب إلى الموت وأدنى إلى القضاء : لأنه أقرب إلى الفهم ، وأدنى إلى الحضم . لا تعصمه هذه الدروع المتينة التي تسيبها الوزن والقافية ، والموسيقى والصورة .

فإذا أضمت إلى هذه المقدمة ما كتبه شاعرنا العظيم في مواضع مختلفة وظروف مختلفة . حول الشعر والنثر والأدب عامة . استطعت أن تلخص مذهبه في الشعر الخالص أو في الشعر العالي . كما يقولون . فاشعر عنده كلام ، ولكنه كلام ممتاز . وامتنازه لا يجب أن يأتيه من معناه وحده ، بل يجب أن يأتيه من صيغته قبل كل شيء . حقيقة الشعر إنما تلمس في صيغته وشكله ، تلمس في وزنه الذي يجب أن يهر السمع ويؤثر فيه : تلمس في انسجامه الذي يجب أن يثير في النفس لذة الموسيقى . أو لذة أرقى من لذة الموسيقى : لأنها تلمس العقل والشعور والسمع جميعاً . ثم تلمس في صوره التي تروغ الخيال وتروغ معه الحسن أيضاً . ثم تلمس قبل كل شيء . وبعد كل شيء . في هذه العمقة التي لا أدرى كيف أسميها أو أحددها ،

والتي تضطرك إلى البحث والتفكير وإلى جهاد ما تحرق في غير ملل ولا يأس .

وطبعي بعد أن ثار هذا الخلاف العنيف الطويل حول هذه القصيدة أن تتجاوز حدود فرنسا ، ويعني بها النقاد الأجانب كما عني بها الفرنسيون . كما يعنون كل ما يصدر هذا الشاعر من الآثار . فقد ترجمت هذه القصيدة أربع مرات في اللغة الأسبانية ، وثلاث في اللغة الإنجليزية ، وثلاث في اللغة الألمانية ، ولكن أغريب أنها ترجمت في اللغة الفرنسية غيباً شعراً . ترجمها الكولونيل جودنو ، أرسلها إلى الشاعر . فكتب إليه الشاعر يقول : « أشكر لك خالص الشكر ما أرسلت إلي من ترجمة « المقبرة البحرية » إلى لغة أقرب إلى الموضوع . وسأضيف هذه الترجمة إلى التراجم الأسبانية الأربع . وإلى التراجم الإنجليزية الثلاث . وإلى تراجم الألمانية الثلاث . وإلى تراجم أخرى هذه القصيدة بد وقت إلي » . وقد عجبني جداً ما بذلت من الجهد ما ضير فيه من الخوص على أن تحتفظ ما استطعت من الأصل . وإذا كنت قد استطعت أن ترجم هذه القصيدة فليست هي إذا من القموض بحيث يقال : فإن قصيدة مظنة حقاً تحتاج إلى تعبير أعظم من هذا التعبير الذي أحدثته لتصبح ترجمتها أمراً مبسوراً . فأننا مدين لك بهذا الدليل الباضح على أن « المقبرة البحرية » هي . يمكن فهمه إذا عني القارئ بعض العناية بآراءها ورغب بعض الرغبة في فهمها » .

وأظن أن السخرية في هذا الكتاب أوضح من أن تحتاج إلى أن أدل عليها . ولكي تسألني أن أترجم لك هذه القصيدة كلها أو بعضها . ولكني معتذر من ذلك لأمرين : الأول — أنني أجد في قراءة القصيدة لذة راقية قوية حقاً ، ولكني لا أستطيع أن أقول إنني أفهمها على وجهها . وليس علي من ذلك بأس ما دام النقاد والأدباء الفرنسيون ، وهم أعلم مني طبعاً بفهمهم وأدبهم ، يختلفون في فهمها إلى

هذا الحد . والثاني — أن بول فاليري نفسه يرى أن ترجمة الشعر إلى الشرقتل لهذا الشعر وتشيل به ومحو لآيات الجمال فيه . وأعوذ بالله أن أقترف هذه الجناية أو أتورط في هذا الإلثم . ولكن في مصر شعراء يحسنون الفرنسية ، فهل لهم أن يسبقوا في ترجمة هذه التمسيدة شعرا عربيا ؟ وهل لأصدقائنا أصحاب الرسالة أن يجملوا للفائز في هذه المسابقة من الشعراء جزاء بالإلثم ما سيبدله من الجهد الذي سيكون عنيفا حقا ؟ ولكنه سيضع أمامه قراء اللغة العربية نموذجاً من أدق وأروع نماذج الشعر الحديث .

## صرعى الحضارة

١

سبين التاريخ لهذا الجيل أو للأجيال المقبلة عن الأسباب البعيدة التي قضت  
على الفرنسيين هذه الهزيمة الشكرة ، وعلى جيشهم العظيم هذا الاندحار الغريب .  
لناس مضطرون إلى أن يصدقوا ، لم يكونوا يستطيعون تصديقه منذ شهر واحد ،  
هو أن جيش فرنسا العظيم قد اندحر ، وأن ساء فرنسا الشاهق قد انهيار . ومن ذا  
الذى يستطيع أن يجادل في ذلك بعد أن أذعن قواد البر والبحر والجو اسلطان  
المتنصر ، وتلقوا منه شروط الهدنة . وتركوه يحتل بنجده نصف أرض الوطن ،  
فبلا أن ينزلوا له مما بقى لهم من عدة . وأن يجردوا له أسطوفه من سلاحه ، وأن  
يلوا منه حتى فرض الرقابة على الزاد والمراعى ! .

من ذا الذى يستطيع أن يجادل في أن هذا كله إن صور شيئا فبما يصور  
الهزيمة المنكرة والاندحار الغريب ! ومع ذلك فإن عقول الناس مهما يدر كما  
السهول ، وبما تلك عليا الحوادث أمرها ، لا تزال قادرة على التفكير ، وعلى أن  
تميز الخطأ من الصواب ، والحق من الباطل . إلى حد ما . وهي تعلم حق العلم أن  
فرنسا قد خسرت موقعتين عظيمتين ، ولكنها تعلم مع ذلك أنها حين طلبت  
الهدنة لم تكن قد فقدت كل مقدراتها على المقاومة وكل طاقتها للدفاع ؛ فلما  
بمباطورة ضخمة لم تمس ، ولما جيش عظيم في الشرق لم يحرب قوته ، وجيش عظيم  
آخر في أفريقيا الشمالية لم يبل من الحرب حلوا ولا مرأ ، وأسطول هو الأسطول

الثاني بين أساطيل أوروبا لم يتقدم من قوته قليلاً ولا كثيراً ، وجيش في الألب هُتَمَ  
إيطاليا بهاجته ، ولكنها لم تكد تفعل حتى طلبت إليها الهدنة . ورغب إليها  
قواد فرنسا في الوادعة . وقد بعد هذا كله أسطول في الجو كان يبلى في نصر  
الجيش المهزوم بلاء حسناً .

لما هذا كله ، وربما كان لما أكثر من هذا كله ، ومع ذلك طلبت الهدنة  
وأدعت شروطاً لتتصرف في أسابيع . هزيمة منكورة من ناحية ، وقدرة على المقاومة  
والدفاع من ناحية أخرى . هذان أمران لا سبيل إلى الشك فيهما ، ولكن  
لا سبيل إلى تغييرهما والملازمة بينهما إلا حين يبين التاريخ لهذا الجيل أو للأجيال  
المتباعدة عن الأسباب العديدة التي قصت على فرنسا أن تقف هذا الموقف  
المتناقض الغريب .

وأكبر الظن أن التاريخ حين يبين لنا عن هذه الأسباب سيعلمنا كيف  
نسمى هذا الموقف الفرنسي ؟ نسميه موقف الهزيمة . أم نسميه موقف الثورة ؟  
فإن في حياة فرنسا الآن كما نعرفها معرفة ناقصة جداً من غير شك مظاهر الهزيمة  
والثورة جميعاً ؛ فيها مظاهر الهزيمة التي تتجلى في إلقاء السلاح والمنفى في الإذعان  
للمظاهر إلى أبعد حد عرفه تاريخها الطويل ؛ فانس من السير على فرنسا أن تقبل  
مراقبة الراديو . ونيس من السير على فرنسا أن تقبل تسليم اللاجئين ، وأن تقبل  
لا من ألماب الظفرة وحدها . بل من إيطاليا التي لم تنزل بها شراً ولم تمسها بسوء .  
وفيها مظاهر الثورة ؛ فريش الوراء الذي طلب هذه الهدنة وقبل شروطها  
القاسية قائد عظيم ، قد قهر الألمان وانتصر عليهم منذ أقل من ربع قرن ، يُعَيِّنه قائد  
عظيم آخر فدأبى في الحرب الماضية أحسن البلاء وأعظمه خطاً من الجحد . وقد  
دعتهما الحكومة الفرنسية السابقة للإشراف على أمور الحرب ، وهي واثقة كل  
الثقة والشعب واثق معها كل الثقة بأنهما سيقودان فرنسا إلى النصر المؤزر والفوز

اعظيم . وما هي إلا أن يشرقا على أمور الحرب حتى تتظاهر الحوادث فتدفعهما إلى اللقاء السلاح .

وليس هذا كل شيء : فهما لا يلقين السلاح إلا بعد أن تستقيل الوزارة التي أنشئت إليهما بتقاليد الحرب ، والتي كانت تريد أن تمضي بالحرب إلى أقصى غاياتها . وإذا استقالت هذه الوزارة التي استعنت بهما واعتمدت عليهما لم تخلفها وزارة سياسية ، وإنما خلفتها وزارة عسكرية تقريباً ، ورئيسها المارشال بيتان ، ومن وراءها قائد الجيش وأمير البحر . ولا شك أن هذه الوزارة الجديدة نهضت بأعباء الحكم ، حتى تطلب الهدنة وأمر بالتسليم . وهذا نحن أولاء نسمع أخباراً عامضة ولكن لها معانها : فقد يقال إن هذه الحكومة الفرنسية التي أمضت الهدنة وألقت السلاح وضمت إليها سياسياً معروفاً قبله إلى إيطاليا ، تريد أن تغير نظام الحكم في فرنسا ، وأن تمس الدستور الفرنسي بأنواع من الإصلاح لا نعرفها شيئاً ، ولكنها تكاد تقطع بأنهم سيجدون سلطان الديمقراطية ، وسنمنحهم بالحكم بحراً إلا يكن ديكتاتورياً خالصاً ، فيكون ملائماً للنظم الدكتاتورية القائمة عند المنتصرين .

والأمر لا يقف عند هذا الحد ، ولكن ترى أجزاء الإمبراطورية الفرنسية تتردد تذبذباً ظاهراً جداً بين الإدعان للحكومة التي طلعت الهدنة وقبلتها ، والعصيان لهذه الحكومة والمضي في الحرب إلى جانب بريطانيا العظمى ، حتى يبلغ الكتاب الأسود . ثم ترى الفرنسيين المنشقين في أقطار الأرض بأنهم الهدنة وينكرونها ويمتنون أنهم يريدون أن يمضوا في الحرب إلى غيبتها . ثم يفر هذا الإباء ويخف هذا الانكار ، ويتردد الفرنسيون بين الإدعان والإباء ، ويقوم قائد فرنسي ممتاز من أعضاء الحكومة السابقة ، فيعلن العصيان ويدعو إلى الثورة ، ويخند جيشاً يعمل مع بريطانيا العظمى غير حافل بأمر رؤسائه ولا مستجيب لما وجهوا إليه من

دعاء . علام يدل هذا كله ؟ على أننا نجهل من أمر فرنسا أكثر مما نعلم ، وعلى أن للحياة الفرنسية في هذه الأيام مظهرين متناقضين : أحدهما مظهر الهزيمة ، والآخر مظهر الثورة . ومظهر الثورة هذا ليس مقصوراً على الذين يأتون السلم الدليلة ويريدون الحرب الشريفة من أتباع الجنرال دي جول ، بل هو واضح جداً عند الذين طلبوا الهدنة وألقوا السلاح ، وأخذوا يعملون لتغيير الدستور . فأنت ترى أن أمام التاريخ مشكلات عسيرة جداً ، يجب أن يحلها ، وأن يكشف عن حقيقة الأمر في هذا الجبل والأجبال التي تليه .

وقد حاول الماريشال يتان في بعض أحاديثه أن يبين عن الأسباب القريبة للهزيمة والثورة أيضاً ، فقال كلاماً يحسن أن نقف عنده وقفة ما ، فلعله أن يضى لنا وجه الحق في هذه المشكلة المعقدة التي تخضع لها حياة الفرنسيين . وسنرى إذا فكرت معي في فاته الماريشال يتان أن فرنسا المهزومة الثائرة مريرة . وأن مرضها ليس إلا الحضارة ، والحضارة التي بلغت طوراً ربما لم يكن الفرنسيون قادرين على أن يلفهوه ، أو على أن يحتملوا نتائجها وآثارها .

أسباب الهزيمة في رأي الماريشال يتان ثلاثة : قلة الولد ، وقلة الأداة ، وقلة الخليف . وما من شك في أن عدد الفرنسيين أقل من عدد الألمان ، وفي أن الجنود الفرنسيين كانوا يلقون ثلث الجنود الألمان أو أكثر من الثلث قليلاً ، ولكن لماذا أقل عدد الفرنسيين حتى اضطرتهم قلة العدد إلى الهزيمة ؟ السبب يسير جداً يعرفه الناس جميعاً ، ويردده الناس جميعاً ، وتشكو منه فرنسا منذ عهد بعيد ، دون أن تجد له دواء ، وهو أن الفرنسي قد تحضر وأمن في الحضارة ، حتى امتلأ بنفسه ، وحتى أصبح الفرد كل شيء ، يؤثر نفسه بكل شيء ، يؤثرها بأعظم حظ ممكن من اللذة ، ويجنبها أعظم حظ ممكن من الألم ، ولا يقبل أن تدخل الدولة في شأنه ولا أن تعرض لأمره ، ولا أن تنظم من حياته الخاصة ما تعود أن يستقل بتنظيمه .



إذا ألحت عليه الدولة في أن يستكثر من الولد لم يحفل بهذا الإلحاح ولم يهتم له ، إنما يعرض عنه ويلتصق سائراً من الدولة ومن أمرها ، ثم محضاً لتكاليف الحياة ومشقتها ، وما تفرضه كثرة الولد على الأسرة من أعباء ثقال مختلفة ، منها ما يتيسر رقت ، ومنها ما يتيسر الجيد ، ومنها ما يتيسر الفراغ لذات الحياة المادية العقلية أيضاً .

وكانت الحرب الماضية مغرية لفرنسا بالإقلال من الولد : لأن الفرنسيين كرهوا أن يلدوا للحرب . وكانت الحرب الماضية مغرية لألمانيا بالإكثار من الولد : لأن الألمان كرهوا أن يقتلوا فيدلوا .

وكذلك محنت فرنسا مع الحضارة إلى أقصى غاياتها ، فمحت بها واستمعت نتائجها . وأثبتت ألمانيا أن تستجيب للحضارة ، وآثرت أن تستجيب للفرصة الفردية الفريرة الاجتماعية . وكانت النتيجة ما سجله التاريخ في كتاب .

وليس من شاك في أن فرنسا كانت أقل أداة حرب من ألمانيا . ولكن لماذا ست أداة الحرب في فرنسا ؟ لأن الفرنسي تعسر وأمعن في الحضارة ، واستجاب لأمر العقل الفردي أكثر مما استجاب لداعي العقل الاجتماعي إن كان هناك عقل اجتماعي : فقد رأى الفرنسي أن الحياة لم تمنح للناس ليبدلوا في الجهود المضنية التي تنهي إلى الفناء ، وإنما منحت للناس لتكون عليهم نعمة ، ليستمتعوا بلذاتها ، ويتعجبوا آلامها : فأما الأغنياء والقادرون فأخذوا من اللذات بما أطاقوا وبأكثر مما أطاقوا ؛ وأما الفقراء والعاجزون فطالبوا بالمساواة الاجتماعية ، وظفروا منها بحظ عظيم ؛ فقلت ساعات العمل ، وارتفعت أجور العمل ، وتقرر مبدأ الراحة المأجورة . وضحت فرنسا من الإنصاف الاجتماعي إلى أمد بعيد حقاً ؛ واستطاع الفرنسي في الأعوام الأخيرة أن يرى نفسه بحق أعظم الأوربيين حظاً من الحضارة ، وأدنى الأوربيين إلى تحقيق العدل الاجتماعي . وفي أثناء ذلك كان الفرد الألماني والإيطالي

والروسي يغني في الجماعة فناء تاماً ، لا يوجد نفسه . وإنما يوجد للدولة ، لا ينعم بالحياة لأن من حقه أن ينعم بالحياة . وإنما يحيا لأن من حق الدولة أن يكون لها أفراد أحياء ، يعملون لها ويقتنون فيها أثناء السلم . ويموتون في سبيلها أثناء الحرب . وليس من شك في أن فرنسا قد كانت قبيلة الخليف في هذه الحرب بالقياس إلى الحرب الماضية : فقد كان معها في الحرب الماضية إيطاليا وأمريكا . وقد خذلتهما أمريكا في هذه الحرب ، وحاصمتها إيطاليا . وكان معها في الحرب الماضية روسيا إلى حد ما : ولكن روسيا خذلتها في هذه الحرب منذ أوها . وقد انضم إلى فرنسا في هذه الحرب حلفاء كثيرون ، ولكنهم انضموا إليها بعد قوات الوقت ، انضموا إليها لتعينهم لا ليعيها ، ومنهم من طلب إليهم المعونة فلما قدمتها إليهم خذلوا . وأسندوها لعدو كما فعل ملك نابجيك : فقد كان كثير من حلفاء فرنسا في هذه الحرب أعداء . عني لا أعواناً . ولكن ماذا فعل حلفاء فرنسا في هذه الحرب ؟ لأن فرنسا انحضرت وأعدت في الحصار وآثرت نفسها بالاعاقبة والذلة وانعمت الحرة أثناء السلم . فلم تؤمن الأمم الصغيرة قوتها ، ولم تعتمد على نصرتها ، فأثرت نفسها بالاعرة وانتظرت من الحية أمد فلم تنق منه إلا شراً . وأى شيء أبلغ في تصور عجز فرنسا عن إداعة الثقة في نفوس الأمم الصغيرة من أنها ضمنت استقلال تشكوسلافيا كما ثم تركتها شبهة هتلة ! ثم ضمنت استقلال اليونان ورومانيا ثم هي لا تستطيع أن تمنع اليونان ورومانيا شياً ! ومن قبل ذلك حالفت ولندا ثم لم تستطع أن تغني عنها من ألمانيا وروسيا شياً !

وكذلك أمنت فرنسا في الحصار حتى انتهت إلى مثل ما انتهت إليه «أثينا» في آخر القرن الخامس قبل المسيح ، حين هزمتها «أسبرتا» أشنع الهزيمة وأشدّها نكراً ، وجعلت تجرّد أسطولها من سلاحه ، وتترك حصونها على صوت المزمار ، على حين كان سقراط يطوف بفسفته الرائعة في الشوارع ويخلب العقول بحواره البديع في

فلاعب الرياضية . وأصاب فرنسا ما أصاب أثينا أثناء القرن الرابع قبل المسيح ، حين هزمها المقدونيون شر الهزيمة ، على حين كان فلاسفتها وخطبائها ومثلوها يخجلون العقول ويهرون الأبواب بمولع الأدب والفلسفة والفن .

ومن الحق أن فرنسا في هذه الأعوام الأخيرة كانت أعظم البلاد الأوروبية شيئاً من الحياة العقلية الرائعة والحياة الفنية الممتازة والحياة المادية المترفة ، فلما حدثت - واصطدمت الحضارة العقلية الخالصة بالحضارة المادية الخالصة كانت النتيجة سجله الماريسال بيتان .

ولاحقناق الواقعة الموقوتة خطرهما ، ولكن لها آثارها ونتائجها ؛ فقد انهزمت أمام أسبرتا وأمام فليب وأمام الإسكندر . ولكن أثينا كانت أعظم للناس . وأبقى فيهم ذكراً من أسبرتا ومن فليب ومن الإسكندر . وبما لا شك فيه أن الذين يذكرون أسبرتا وفليب والإسكندر ، والكتب يذكرون هذه الأسماء ، هم لا يريدون على ذلك شيئاً ؛ فإذا ذكروا أثينا فبهم لا يكتفون بذكرها ، ولكنهم يحجون عندها غذاء العقول والأرواح والنفوس . ماذا أقول ! بل هم يجذون عندها مادة هاتين الحضارتين : حضارة العقل وحضارة الجسم .

وبعد ، فقد قهرت فرنسا وثارت . وليست هذه أول مرة قهرت فيها فرنسا وثارت ، ولكن التاريخ قد علمنا أن فرنسا تافعة للعالم حين تنتصر وحين تهزم وحين تهدأ وحين تثور . والشئ الذي لا أشك ولا يمكن أن أشك فيه هو أن فرنسا التي أدهشت العالم بانتصارها وانهبها وهدوشها وثورتها ، لم تفرغ من إدهاش العالم ، وستدهشه وستنفعه ، وسيسرع العالم الذي هزم فرنسا الآن إلى معوتها وتأييدها ؛ لأن العالم لا يستطيع أن يستغنى عن فرنسا كما قال وزير خارجيتها منذ أيام .

## تبعة المفكرين

يظهر أن الحوادث الواقعة التي تسبق في سرعة مدهشة ، وفي وضوح نسبي كما يقال ، ستغنى هذا الجيل عن كثير جداً من جهود المؤرخين في التأويل والتعليق وفي الفلسفة والتحليل ؛ فالأمور في هذا العصر الحديث تجري على قوانين واضحة وأصول بيّنة ؛ وربما كان الظاهر منها أكثر من المستور ، والجلي منها أكثر من العامض الخفي . ومهما يكن من شيء . فلن يتعب الذين سيحاولون فهم الموقف الفرنسي في هذه الأيام ، كما تعب وكما سيتعب الذين حاولوا وما زالوا يحاولون فهم المواقف الفرنسية في الحرب الماضية وفي الحروب التي سبقتها .

ذلك أن حياة الفرنسيين بعد الحرب الماضية كانت واضحة جلية . وكانت أحداثها الكبرى تصدر عن السبب أكثر مما تصدر عن الحكومة ، وعن أحزاب الكبرى أكثر مما تصدر عن أفراد قليلين . وليس معنى هذا أن كل شيء واضح في الكارثة الفرنسية الواقعة ، ولكن الموضح فيها أكثر من الغموض ، والجلال فيها أعظم من اللبس والالتواء .

وقد كنت في الأسبوع الماضي متردداً متحفظاً في تصوير الكارثة الفرنسية . أصغياً بالهزيمة ، وأصغياً بالثورة ، وأترك للتاريخ تحليله الحق في ذلك . ولكن ذلك الفصل الذي كتبته في الأسبوع الماضي ، وفي مثل هذا اليوم من الأسبوع الماضي لم يكبد يظهر في الثقافة ، بل لم يكبد يرسل إلى الثقافة ، حتى جاءت الأنباء من هنا وهناك ، تكشف عن بعض ما كان غامضاً ، وتجلي بعض ما كان مستوراً .

فما يبق الآن شك ، ولا سبيل إلى الشك ، أن فرنسا نائرة ، ولم يبق الآن شك في أن عناية فرنسا المهزومة بتنظيم الثورة أشد من عنايتها بتدارك أعقاب الهزيمة . ثم لم يبق الآن شك في أن هناك إلى جانب الثورة الرسمية في أرض الوطن الفرنسي ثورة أخرى في أرض الغربة ليست أقل منها حدة وعنفاً .

لم تمض أسابيع على إذهاع فرنسا المنتصر ، حتى أخذ الماريشال يتقن وأعوانه يذون الدستور وينحرفون به عن الديمقراطية المحرفاً ظاهراً جداً ، وينحرفون به عن نظام الدكتاتورية ، كما يرى في ألمانيا وإيطاليا . فنحن نسمع كلاماً عن التمثيل النقابي ، وعن الحد من سلطة البرلمان ، والبسط في سلطان الحكومة ، وضمان الاستقرار والثبات لهذه الحكومة ، بالتقليل من حطر المسؤولية الوزارية . ونحن نسمع كلاماً عن تنظيم الأسرة ، وعن تنظيم العمل ، وعن محاولة تحقيق العدل الاجتماعي على نحو جديد ، وعن محاولة توجيه الشعب الفرنسي إلى الزراعة وصرفه عن الصناعة ؛ لأن في الزراعةطمئناً إلى الأرض وفراغاً لها ، وانصرافاً إلى استثمارها من التفكير في السياسة ، وعن المطالبة بالحرية — وبحرية الأحزاب خاصة — وعلى المطالبة بالمساواة الاجتماعية ، وعن احتلال المصانع ، وإفساد أدوات العمل ؛ وأن في الزراعة انصرافاً إلى هذا الكد الهادئ العنيف ، الذي يتعب الجسم ويريح العقل ، ولأن الصناعة هي مصدر الثورات الاجتماعية التي اضطربت لها أوروبا في القرن الماضي وفي هذا القرن أشد الاضطراب .

وليس من المحقق أن الفرنسيين الثائرين يريدون أن يصرفوا مواطنيهم عن الصناعة خضوعاً للمنتصر وسمياً إلى تمويهه كما يقول القائلون ؛ ولكن من المحقق أن المنتصر يرضيه أن تنصرف فرنسا عن الصناعة ليستأثر هوبها ، ويرضيه أن تنصرف فرنسا إلى الزراعة ليجد فيها تنتجها الأرض الفرنسية بعض ما يحتاج إليه من الطعام والشراب . وليس المهم أن يشجع الثائرون الفرنسيون في تحقيق أغراضهم

هذه أو يخففتوا ، ولكن المهم أنهم قد وضعوا لأنفسهم هذا البرنامج ، وسعوا إلى تحقيقه ، بل أسرعوا إلى تحقيقه . وكل هذا قد عرفناه في أيام قليلة ، وعرفنا منه أن الحكومة المنهزمة في فرنسا ليست منهزمة خفية ، ولكنها منهزمة نائرة . وبقى أن نعرف أكاست المخرجة مصدراً للثورة ، أم كانت الثورة مصدراً للمخرجة ؟ ولكن هناك ملاحظة أخرى يحسن أن نستعملها قبل أن نقف عند تحقيق الصلة بين المخرجة والثورة في فرنسا . وقد أشرت في الفصل السابق إلى أن لفرنسا إمبراطورية ضخمة لمس ، وحيثما في الشرق الأدنى لم يجرب قوته ، وحيثما آخر في أفريقيا الشمالية لم يذق مرارة الحرب ، وأسطولا عظيما لم يلق من أحد كيدا . وقد كان الظاهر الجلي بعد انهزام المارشال يتان أنت الإمبراطورية لا تريد إلقاء السلاح ، وأن جيش الشرق لا يريد أن يسلم ، وأن جيش أفريقيا الشمالية لا يريد أن يكف عن القتال ، وأن الأسطول لا يريد أن يجرّد من سلاحه قبل أن يجرب هذا السلاح ؛ ولكن أياما مضى وإذا الإمبراطورية مطيعة لسلطان المارشال يتان ، وإذا الجيشان يؤثران النافذة . وإذا الأسطول يأبى على حلفه فرنسا ما يقبله من أعداء فرنسا . فما تأويل هذا كله ؟

تأويله يسير جدا في اعتقد ، وهو أن أحزاب اليمين أو خصوم الديمقراطية يؤثرون كل شيء على أن نفلت منهم هذه الفرصة التي تتيح لهم دفن الجمهورية الثالثة وإقامة نظامهم الجديد . وهم بالطبع لا يعلنون أنهم يريدون أن ينقذوا ما يمكن إنقاذه كما قال بعض وزرائنا السابقين ، وإنما كان كل شيء يدل على أنهم يضيعون ما يمكن تضبيعه ؛ فهم قد أضاعوا الأسطول وقد كانوا يستطيعون إنقاذه لو استجابوا ما دعاهم إليه حليفتهم السابقة . وهم سيضيعون من غير شك أجزاء من إمبراطوريتهم ، ولعلهم أن يضيعوا خير أجزاء هذه الإمبراطورية ، ولعلهم كانوا يستطيعون مقاومتها أن يحتفظوا بهذه الإمبراطورية .

ولكن هذه الحجة قد أظهرت — كما أظهرت الحجة السابقة في فرنسا — أن  
 نهضة السياسة الحزبية أقوى من فكرة الوطنية ، وأن التأثيرين إذا تباروا لم يحفلوا  
 بى ، في سبيل ثورتهم ، ولم يردم عن هذه الثورة خطرهما يكن . والمهم هو أن  
 أراض الثورة في فرنسا أظهر جداً من أعراض الخريجة ، وأن جماعة من القادة  
 والسياسة الفرنسيين قد انتهوا فرصة الحرب وانتهزام فرنسا في موقعين من  
 باتعها ، ليثوروا بوطنهم ويحولوا سياسته الداخلية وأخارجية نحو يلا تالماً .  
 ببق أن نعرف مكان الشعب من هذه الثورة ورأيه فيها واستعدادها لها ونفوره  
 ها ؛ وهذا ما سنتبيناه الأيام أو الأسابيع أو الشهور المقبلة . ولكن هناك أشياء  
 تبيننا إلى حد بعيد على التمكن بموقف الشعب من هذه الثورة ؛ وهذه الأشياء  
 رافها الذين اتصلوا بالشعب الفرنسي من قرب كما اتصلت به في هذه الأعوام  
 الأخيرة ، والذين قرءوا آثار المفكرين الفرنسيين وأمعنوا في قراءتها كما أعمت  
 فيها منذ استطعت أن أقرأ الآفة الفرنسية وأفهم عن كتابها . وإن أتحدث من هذه  
 الأشياء في هذا الفصل إلا عن شىء واحد ، هو ببيعة المفكرين الفرنسيين في  
 ما أصاب فرنسا من شر الخريجة والثورة جميعاً . فقد كان الفرنسيون يفخرون  
 وكان من حقهم أن يفخروا — بأنهم قد انتهوا من حرية الرأى إلى  
 لم ينته إليه شعب من شعوب الأرض ؛ ظفروا بحرية الرأى بالمعنى  
 الدولة ، فكانوا يقولون ما يشاءون ويعملون ما يشاءون ؛ وكانت الدولة  
 لا تستطيع أن تتعرض لقائل مهما يقل ، ولا تستطيع أن تتعرض لعامل مهما يعمل ،  
 أن يحاول إفساد الأمن أو قلب النظام . وظفروا بالحرية أمام الشعب ؛ فكان  
 الرأى العام في فرنسا سمحاً إلى أبعد حدود الساحة ، لا يسأل قائل عن قوله ولا  
 عملاً عن عمله ، وإنما يرضى عما يحجب ويسخط على ما يكره ، دون أن يؤثر ذلك  
 في حرية القائلين والعاملين . ونشأ عن هذه الحرية رقى رائتة لحركة العقل ، ففكر

الناس كما أرادوا ، وقال الناس كما فكروا ، وعمل الناس كما قالوا . والفرنسي في العصر الحديث كالأثيني في التاريخ القديم . مشغوف بالسياسة كثير التفكير فيها ؛ ومن هنا كثرت الأحزاب السياسية في فرنسا كثرة لم تعرفها البلاد الأوربية الأخرى . والفرنسي كما يحب الحرية يحب العدل الاجتماعي وما ينتج عنه من المساواة بين الأفراد ؛ ولعله لم يعيش منذ القرن الثامن عشر لفكرة كما عاش لفكرة الحرية والعدل الاجتماعي ؛ ومن هنا كثرت التطرف في الآراء السياسية والاجتماعية ، وظهرت أعراض الاشتراكية والسيوعية في فرنسا قبل أن يظهر كارل ماركس ولينين . والفرنسي مؤمن بشخصيته ، وبشخصيته العقلية خاصة ، وهو ساحل أنداء ، يسخط جاداً ويسخط هزلاً ، ولن ترى فرنسياً راضياً مهما يكن حظله من النعمة ؛ ولن ترى فرنسياً مطمئناً مهما يكن حظ فرنسا من الأمن والاستقرار . والفرنسي متهاون متواكل ، لا تظهر قوته ومضاؤه إلا حين تدممه الكوارث وتفجؤه الخطوب . وقد انتصر الفرنسيون في الحرب الماضية ، فحبل إليهم أنهم قتلوا الحرب ودفنوها ، وأنها لن تبعث من مرقدها . وكتب كورتلين يقول : « إنه يفر للحرب الماضية ذنوبها لأنها آخر حرب ستعرفها الإنسانية » .

اطمان الفرنسيون إذاً إلى النصر وإلى الثروة والسيادة والنعيم . وجعل الحاربون القدماء يحاولون أن يستمتعوا بثمرات الانتصار ، فوق إلى ذلك أقلهم ، وحرّم ذلك أكثرهم . فبطر الموفقون وسخط المحرومون . وجعل الكتاب يصورون بطر هؤلاء وسخط هؤلاء . فأما الذين صوروا البطر فقد بقضوا الحرب إلى الناس ، لأنها تضع على الأغنياء غنائم وعلى الناعمين نعمتهم . وأما الذين صوروا السخط فقد بقضوا الحرب إلى الناس ، لأنها لم تمنع عن الحاربين شيئاً ، وإنما خيبت آمالهم وآذتهم في أنفسهم وأموالهم ثم انتهت بهم إلى نصر ليس خيراً من الهزيمة .

وكتاب آخرون نظروا إلى الأمور في أنفسها ، وبقضوا الحرب إلى الناس ،



لأنها عذو الحضارة ومصدر الموت والقناء والدمار . وبينما كان الفرنسيون في هذه  
الأوان من الخلاف ، لا يتفقون إلا على بغض الحرب ، وإن اختلفوا في أسباب  
هذا البغض ، فظهرت المذاهب السياسية الجديدة في إيطاليا وألمانيا . واشتد الصراع  
بين سياسة الحكم الإيطالية والألمانية والروسية . ولم يكن بد للفرنسيين من أن  
يسموا في أمر هذه السياسة شيئاً وأحزاباً ، ومن أن يجادلوا فيها ، كما تمودوا أن  
يجادلوا ، أحراراً مسرفين في الحرية . والشعب الفرنسي مثقف يعيش مع المفكرين  
تتأثرين من كتاباته ، يقرأ لهم ، ويشايخ بعضهم . ويخاض بعضهم الآخر ؛ فكان  
الخلاف الكتاب الفرنسيين في نظام الحكم وفي العدل الاجتماعي مصدراً لاختلاف  
المحب الفرنسي فيها . ولم تأت سنة ١٩٣٦ حتى كان هذا الخلاف قد بلغ أقصاه ،  
واعنى إلى نتائجها السياسية والاجتماعية الأولى ، حتى كانت الجبهة الشعبية ، وكان  
الاصلاح الاجتماعي العنيف الذي كان إلى الثورة أقرب منه إلى أى شيء آخر .  
وبما ظهرت المقاومة ، واشتد رد الفعل كما يقولون ، وانتقل الأمر من صراع عقلي  
إلى صراع عملي ؛ قوم يريدون أن يظفروا بالعدل ، وقوم يريدون أن يحتفظوا بما  
في أيديهم . وشغل الفرنسيون بهذا كله عن حقائق السياسة الخارجية ، ووضع  
الفرنسيون أصابعهم في آذانهم ، وأبوا أن يسموا ما كان سفاوهم برسولون إليهم  
من النذير . وليس أصدق من تصوير حال الفرنسيين هذه من موقفهم في الثورة  
الاسبانية ؛ فقد قطوع بعضهم انتصر الجمهورية ، وقطوع بعضهم انتصر الثورة ،  
وآزب الفرنسي الفرنسي ، وسمى الفرنسي للفرنسي ، وانتصر بعض الفرنسيين  
على بعضهم الآخر .

وأقبلت هذه الحرب مثاقلة متباينة . تدو حين وتثنى حيناً ، وتقرب يوماً  
وبعد يوماً ، حتى إذا بلغ الكتاب أجله وأصبحت الحرب أمراً واقعاً ، صادفت  
شيئاً لم يكن يفكر في الحرب ولا يريد لها . وإنما كان يفكر في الثورة وينها لها .  
وكانت أحزاب اليمين قد استطاعت أن تبلى من الحكم شيئاً ، فأيضت الاشتراكيين

والشيوعيين ، وحولت دلاليته عن حلفائه ، وجعلت تنقض أصول الإصلاح  
الاجتماعي قليلا قليلا . فلما أعلنت الحرب صرح الشر بين هذه الأحزاب وبين  
الشيوعيين ، وجعل بينهما ليكون صريحا بينها وبين الاشتراكيين ؛ ثم كان ما كان  
عما لست أذكره ، لأنك تعلمه حق العلم .

فأنت ترى أولاً أن كل شيء في فرنسا كان يهيئ لثورة عنيفة ، يصطدم بها  
طلاب العدل الاجتماعي بأصحاب رأس المال . وأنت ترى ثانياً أن الحرب قد أعادت  
أصحاب رأس المال على تحقيق نورتهم . وأنت ترى آخر الأمر أن المفكرين من  
كتاب فرنسا وفلاسفتها وفادة الرأي فيها هم المسئولون عن هذا ؛ لأنهم أجمعوا على  
شبهتين : تبغيض الحرب إلى الناس من جهة ، وتغيب الثورة إلى الناس من جهة  
أخرى . فلما تبغيض الحرب إلى الناس فقد صرفهم عن الاستعداد لها . وما  
تغيب الثورة إلى الناس فقد جعل بعض الفرنسيين لبعض عدوِّنا . وقد قرأت  
منذ أعوام كتاباً ضخماً يدرس أثر مدرسة المعلمين العليا في السياسة الفرنسية .  
ويبين أنه أثر منكر . وصاحب هذا الكتاب من أحزاب اليمين بالطبع ، وهو يعيب  
على مدرسة المعلمين أنها أخرجت لفرنسا دعاة الديمقراطية والاشتراكية في الجمهورية  
الثالثة ؛ فهي قد أخرجت جورس وبلوم وهويرو وبيان ليفيه ودلاديه . وأن  
الناس يقولون إن الجمهورية التي انهزمت في أسبانيا كانت جمهورية الأستاذة  
والمعلمين . فبلى فهم من هذا أن رجال التفكير والثقافة قد هموا بأمر ثم عجزوا عنه ،  
وقد آن لهم أن يُردُّوا إلى كتبهم ودروسهم ، وأن يُعزَّفوا عن السياسة حرفة ؟  
مسألة فيها نظر ! وأرجو أن أوفق للحديث عنها في مقال آخر .

## بين الثقافة والسياسة

إلى أى حد أثر المفكرون والثقفون في الحياة السياسية الفرنسية ؟ وإلى أى حد تمكن أن يسألوا عن هذه الكارثة التي انتهت بها بناء الجمهورية الثالثة ؟ سؤال يحتاج الجواب عنه إلى كثير من التفكير ، وإلى كثير من الإنصاف نوع خاص .

وقد ينبغي أن ينظر إلى هذه المسألة من ناحيتين مختلفتين : إحداهما الناحية التي ينظر منها خصوم الجمهورية الثالثة ، والتي نظر منها مؤلف الكتاب الذي شرت إليه في الحديث الماضي عن مدرسة المعلمين العليا وأثرها في السياسة الفرنسية ؛ وهي ناحية اشتغال العلماء والثقفين بالسياسة العامة ، ونهوضهم بأعباء الحكم ، ونجاحهم أو إخفاقهم فيما حاولوا من تدبير أمور فرنسا .

وليس من شك في أن مدرسة المعلمين العليا قد كان لها أثر ممتاز في حياة الجمهورية الثالثة . وليس من شك أيضاً في أن غيرها من معاهد التعليم وكليات الجامعة الفرنسية قد شاركت في قيادة السياسة الفرنسية واحتال تبعاتها . ويمكن أن تقسم هذه التبعات في شيء من الإجمال بين مدرسة المعلمين العليا وكلية الحقوق ؛ فأكثر الساسة الفرنسيين أثناء الجمهورية الثالثة قد تخرجوا في هذا المعهد وذلك ، وإن كان حظ مدرسة المعلمين العليا أظهر من حظ كلية الحقوق إلى حد ما . فمدرسة المعلمين العليا قد أخرجت زعماء الاشتراكية والديمقراطية ؛ فهي قد أخرجت جورديس وبلوم ، وهي قد أخرجت هيريو وريان ليفيه ودلاديه ، وهي قد أخرجت غير هؤلاء من الذين ألغوا الوزارات أو شاركوا فيها ، ومن الذين قدوا الأحزاب ونهضوا بزعمامة الشعب . ويمكن أن يقال إن فرنسا مدينة

بديتقراطيتها واشتراكيها وشيوعيتها لمدرسة المعلمين وكلية الآداب ، ومدينة  
بشيء من هذا الكلية العلوم أيضاً . ويمكن أن يقال في شيء من الإجمال أيضاً  
إن فرنسا مدينة بحفاظتها الجمهورية وبديتقراطيتها المعتدلة لكلية الحقوق ومدرسة  
العلوم السياسية .

والمسألة الخطيرة حقاً هي أن نعرف هل أخفقت الجمهورية الثالثة ؟ وهل كان  
إخفاقها نتيجة لنهوض هؤلاء الأعلام من رجال الثقافة بأعباء الحكم ؟  
أما أن الجمهورية الثالثة أخفقت فذلك شيء لا أستطيع أن أقوله ولا أن أطعن  
إليه ؛ ويكفي أن نعلم أن هذه الجمهورية الثالثة قد أنشأتها المزيمة ، فلم تلبث أن  
نهضت بالشعب الفرنسي ، وردت له مكانته المستازة في أوربا ، وأنشأت له في  
ثلاث عشرات من السنين هذه الإمبراطورية الضخمة التي جعلته من أقوى شعوب  
الأرض وأغناها وأعظمها بأساً . ثم هي أصلحت من شؤونه الداخلية بإصلاح  
غريباً مذهساً حقاً ، فشررت فيه العلم إلى أبعد مدى ممكن ، وحققت فيه من العدل  
الاجتماعي شيئاً كثيراً ، ثم أصلحت من شؤون الإدارة ما أفسدته الإمبراطورية  
الثانية . فإذا كان هذا كله خيراً كما تعارف الناس على أن هذا كله خير فلا يصح  
أن يقال إن هذه الجمهورية الثالثة قد أخفقت .

ثم هي لم تقف عند هذا ، ولكنها دفعت إلى الحرب الماضية أو اندفعت إليها ،  
وكانت أقصى حرب عرفها التاريخ إلى ذلك الوقت ، فثبتت لها وانتصرت فيها ،  
وأنارت للشعب الفرنسي من المزيمة ، وردت إليه الأكراس واللورين . فإذا كان  
هذا كله خيراً كما تعارف الناس فلا يمكن أن يقال إن هذه الجمهورية قد أخفقت ،  
ولا يمكن أن يقال إذاً إن المثقفين من رجال الأدب والعلم والحقوق قد أخفقوا فيما  
دبروا من أمرها ؛ وإنما الذي يجب أن يقال هو أن هذه الجمهورية قد نجحت  
نجاحاً باهراً ، وأن قادتها من زعماء الديتقراطية قد وقفوا خير ما كان يمكن  
أن يوقفوا له .

ومع ذلك فقد خسرت الجمهورية الثالثة موقعين خطيرتين في هذه الحرب ، انتهت بها هذه الخسارة إلى التسليم ، وقضى هذا التسليم على وجودها ، وعرض فرنسا لوضع نظام جديد من نظم الحكم قد يكون قريباً من الديمقراطية ، وقد يكون بعيداً عنها ، وقد يكون ملائماً أو غير ملائم للنظم الدكتاتورية في ألمانيا أو في إيطاليا ؛ وهذا كله إخفاق من غير شك .

فن المسؤول عن هذا الإخفاق ؟ أمى الجمهورية الثالثة من حيث إنها جمهورية  
ثالثة ؟ أم المثقفون الذين نهضوا بالأمر فيها من حيث إنهم مثقفون ؟

هنا يجب الإنصاف ، ويجب الحرص على ألا ترسل الأمور إرسالاً ، وعلى ألا تصدر في أحكامنا عن الهوى أو النظر القصير . إن الذى أخفق في هذه الحرب  
إن الآن ليست فرنسا وحدها ، وليست الديمقراطية وحدها ، وإنما أخفقت أوروبا كلها ؛ وهى لم تحقق بالهزام فرنسا ، وإنما أخفقت بإعلان الحرب ، بل أخفقت  
في إعلان الحرب ؛ أخفقت بقيام الدكتاتورية في ألمانيا وفي إيطاليا وفي روسيا  
وغيرها من البلاد الأوروبية الأخرى ؛ أخفقت لسبب يسير قريب ، وهو أنها لم  
تحسن تنظيم السلم بعد أن فرغت من الحرب الماضية ، لم تحسن ضبط النفس  
ولا تحقيق العدل ، لم تكن قوية كل القوة ولم تكن ضميعة كل الضعف ، لم  
تكن عادلة كل العدل ، ولم تكن جائرة كل الجور ، وإنما كانت شيئاً بين  
ذلك ، فأفرت سائماً مختلطة مشوهة ، بريئة إلى حد بعيد من الإنصاف والقصد ،  
مدبرة إلى حد بعيد للمبغض والحق ، مفسدة للعلاقات بين الغالب والمغلوب ، بل  
مفسدة للعلاقات بين المنتصرين أنفسهم ، وأى شئ ، أول على ذلك من فساد العلاقات  
بين إيطاليا وحلفائها القدماء ، ومن اضطراب الأمر بين فرنسا وإنجلترا في غير موطن  
من مواطن السياسة قبل إعلان هذه الحرب !

فتبعة الإخفاق إذاً ليست على فرنسا وحدها ، ولا على نظام الحكم فيها ، ولا على

ثقافة رجال الحكم فيها ، وإنما هي على أوروبا كلها ، وعلى الذين وضعوا معاهدات الصلح ، وعلى الذين ساسوا هذا الصلح بعد أن استقرت الأمور . والمهم هو أن نعرف أن الجمهورية الثالثة ورجالها المتقنين من مدرسة المعلمين العليا أو من كلية الحقوق أو من غير هذين المعينين لا ينبغي أن يحتملوا وحدهم تبعه السكارة الفرنسية ، على أن هناك الناحية الثانية التي أشرت إليها في أول الحديث ، والتي يمكن أن ينظر منها إلى حظ الثقافة والمثقفين فيما أصاب فرنسا من الهول . وهي ناحية الثقافة من حيث هي ثقافة ، من حيث هي ترقية للعقل وتوسيع للأفق وهما لآماد الفكر الإنساني ، من حيث هي مصدر لشعور الفرد بحقه وتقديره لواجبه ، ومن حيث هي مصدر لشعور الجماعة بحقه وتقديرها لواجبها وواجباتها المخطوب واحتمالها لأثقال الحياة . وهذه الناحية حذيرة بالعناية حقاً ، فهي وحدها الخطيرة ، وهي وحدها ذات الأثر البعيد في حياة الشعوب ، وفي قدرتها على البقاء وقوتها للمقاومة واستعدادها للمرق . والشئ الذي ليس فيه شك ولا يمكن أن يكون فيه شك هو أن أوروبا مدينة بترقيها السياسي والاجتماعي والمادي للثقافة وللثقافة وحدها . فالثقافة هي التي هدت علماء أوروبا إلى استكشاف العلم الحديث ، ثم إلى التفكير في تراث القدماء . ثم إلى إصلاح التفكير ، ثم إلى تجديد الفلسفة ، ثم إلى تغيير قيم الأشياء وتغيير الحكم عليها . والثقافة هي التي هدت أوروبا إلى فلسفة القرن الثامن عشر ، وإلى ما أنتجت هذه الفلسفة من الاعتراف بحرية الفرد والجماعة وبحقوق الإنسان في أمريكا وفي فرنسا . والثقافة هي التي هدت أوروبا وأمريكا إلى الديمقراطية الحديثة ، ثم إلى ما نشأ عنها من نظم الحكم الأخرى . فكل ما تمتاز به أوروبا وأمريكا من رقي وتفوق وسيادة على الطبيعة وعلى الأمم الضعيفة إنما هو نتيجة للثقافة وللثقافة وحدها . وقد كان من الأوليات التي أنتجت الثقافة في حقول الأوربيين والأمريكيين أن العلم حق للناس جميعاً

كالطعام والشراب والهواء ، وأن من أوجب واجبات الدولة أن تمكن الناس جميعاً من أن يتعلموا . وقد أصبح هذا أصلاً من أصول الحياة الحديثة ومتوماً من غوامتها : فلم يعرف العالم عصرًا انتشر فيه العلم أو قل انتشرت فيه المعرفة كهذا العصر ، ولم يعرف العالم عصرًا كثرت فيه أدوات المعرفة كهذا العصر : فالمدارس تشر التعليم في جميع الطبقات ، والمطابع تنشر الكتب لجميع الطبقات ، والصحف تنشر المعرفة في جميع الطبقات ، والراديو يقدم المعرفة إلى جميع الطبقات . ومعنى ذلك أن الشعور بالحق والواجب لم يبق مقصوراً كما كان على فئة من الناس ، وإنما شاع في كثرة الناس . ومعنى ذلك أن النضوج إلى العدل الاجتماعي لم يبق صورياً على الفلاسفة والمثقفين المتأزمين ، وإنما شاع بين الناس جميعاً . ولكن معنى ذلك أيضاً أن حظوظ الناس من المعرفة ليست متفقة ولا متوافقة ولا متقاربة ، وأن تقديرهم للأشياء ليس متشابهاً ، وأن مثلهم العليا ليست متقاربة : وإذا فالتقافة التي هدت أوروبا وأمريكا إلى الرقي السياسي والاقتصادي والاجتماعي قد أفسدت الأمر بين الطبقات في أوروبا وأمريكا ، والثقافة التي أتاحت التفوق لأوروبا وأمريكا قد عرّضت أوروبا وأمريكا لتشتتين به من ألوان الخلاف السياسي الخفيف الذي يدعو إلى الحرب بين الأمم ، والذي يدعو إلى الصراع بين الطبقات ، والذي يفتحي بالعالم إلى حيث نراه الآن . وقد كان حفظ فرنسا من خير الثقافة ونزرها كحفظ غيرها من الأمم الأوروبية أو أعظم من غيرها من الأمم الأوروبية : لأنها تفوقت على غيرها من الأمم في الثقافة ، فتفوقت على غيرها من الأمم فيما تنجحه الثقافة من الخير والشر . تخلصت من أعقاب الحضارة بفضل الثقافة ، وكونت إمبراطوريتها الضخمة بفضل الثقافة ، وحقت ما حققت من الإصلاح والعدل الاجتماعي بفضل الثقافة ، وانتصرت في الحرب الماضية بفضل الثقافة ، وأخذت تدبر بالسلم التي فرضتها كما ينعم المثقفون المسرفون في الثقافة ، وأخذت تحلل

وتعلم ، وتعمل وتكمل ، وتحسن ونسى ، كما يعمل المتنفون المسرقون في الثقافة ، فانتبهت إلى ما انتهت إليه .

وأى أمة من الأمم تبلغ من الثقافة ما بلغته فرنسا ، وتسلك بالثقافة الطريق التي سلكها فرنسا ، متبعية من غير شك إلى مثل ما انتهت إليه فرنسا ؛ لا يتفقدوا من ذلك إلا أن تحذف من ثقافتها . وإلا أن تكون هذه الثقافة تكويناً خاصاً يلغى آثارها ، ويغير نتائجها ، ويعلم الناس وكأنه لا يعلمهم ، ويهذب الناس وكأنه لا يهذبهم . وآية ذلك أن ما ظفرت به ألمانيا من التفوق كان ثمناً لتضييق الثقافة وتحييدها وتشويبها ، والحجر على حرية العقل ، وما نشأ عن ذلك من إلغاء شعور الفرد بحقه ، ثم من إلقاء طموحه إلى الحرية واستمتاعه بها ؛ وقل مثلاً ذلك في إيطاليا ، وقل مثله في روسيا أيضاً .

وإذا فصح بين طريقتين : إما أن يستقبل الثقافة أحراراً وتقبلها حرة ، ونمض فيها إلى أبعد مدى وأقصى أمد ، وتقبل نتائج هذا كله ، وهي التفوق مرة والإخفاق مرة أخرى ، والنهوض حيناً والعنور حيناً آخر ؛ وإما أن تستقبل الثقافة مقيدتين ، وتقبلها ضيقة محدودة ، ونصورها كما نشأ نحن لا كما نشأ هي ، كما نشأ القلة الطاغية ، لا كما نشأ الكثرة الطامحة إلى الحق والعدل والحرية ؛ وإذا فهو التفوق المادى والغلب الغليظ الخشن الذى لا تترف فيه ولا نعمة ولا فخر ؛ وإنما هي القوة ، والنمو وحدها ، والقوة التى إن ظفرت الآن فهي منهزمة غداً ؛ لأن العقل لا سبيل إلى قهره المتصل .

أما أنا فاختار الطريق الأولى ، وأقبل أن أتعرض لما تتعرض له الأمم الحرة من ألوان الخير والشر ومن اختلاف الخطوب ؛ فإن الحياة الحرة التى يملأها الطموح الحر إلى العدل ، والاستمتاع الحر بالحق ، والابتهاج الحر بنعيم المعرفة ، خليفة أن تشتريها بأعلى الأثمان .



# فهرس

صفحة	
٣	مع أدباءنا المعاصرين
١٢	فيض الحاضر للأستاذ أحمد بك أمين
٢٢	رجعة أبي الملاء للأستاذ عباس الخداد
٣٠	إلى صديق أحمد أمين
٣٧	الأنجليز في بلادهم
٤٨	زنوبيا
٥٦	الثقة والطربوش وزجاج النافعة
٦٢	حرير للسيدة قوت القلوب المرزاشية
٧١	مصر في مرآتي
٨٠	تاج البفسج
٨٧	١ - سلمى وقرينتها ٢ - أهل الكهف
٩٩	إلى الأستاذ توفيق الحكيم
١١١	١ - شمس زاد ٢ - نحو الور
١١٩	الأديب الحائر
١٣٠	رد على الدولة
١٣٦	براكدا، أو مشكلة الحكم
١٤٣	قصتان
١٥٢	يوميات أندريه جيد
١٦٤	السلطان الكامل
١٧٢	بين بين
١٨٥	ساعة
١٩٥	قصة الجمع المأفوي
٢٠٢	أسبوع جول رومان
٢١٢	حول قصيدة
٢١٩	صرعي الحضارة ١
٢٢٦	تبعة للفكرين ٢
٢٣٣	بين الثقافة والسياسة ٣

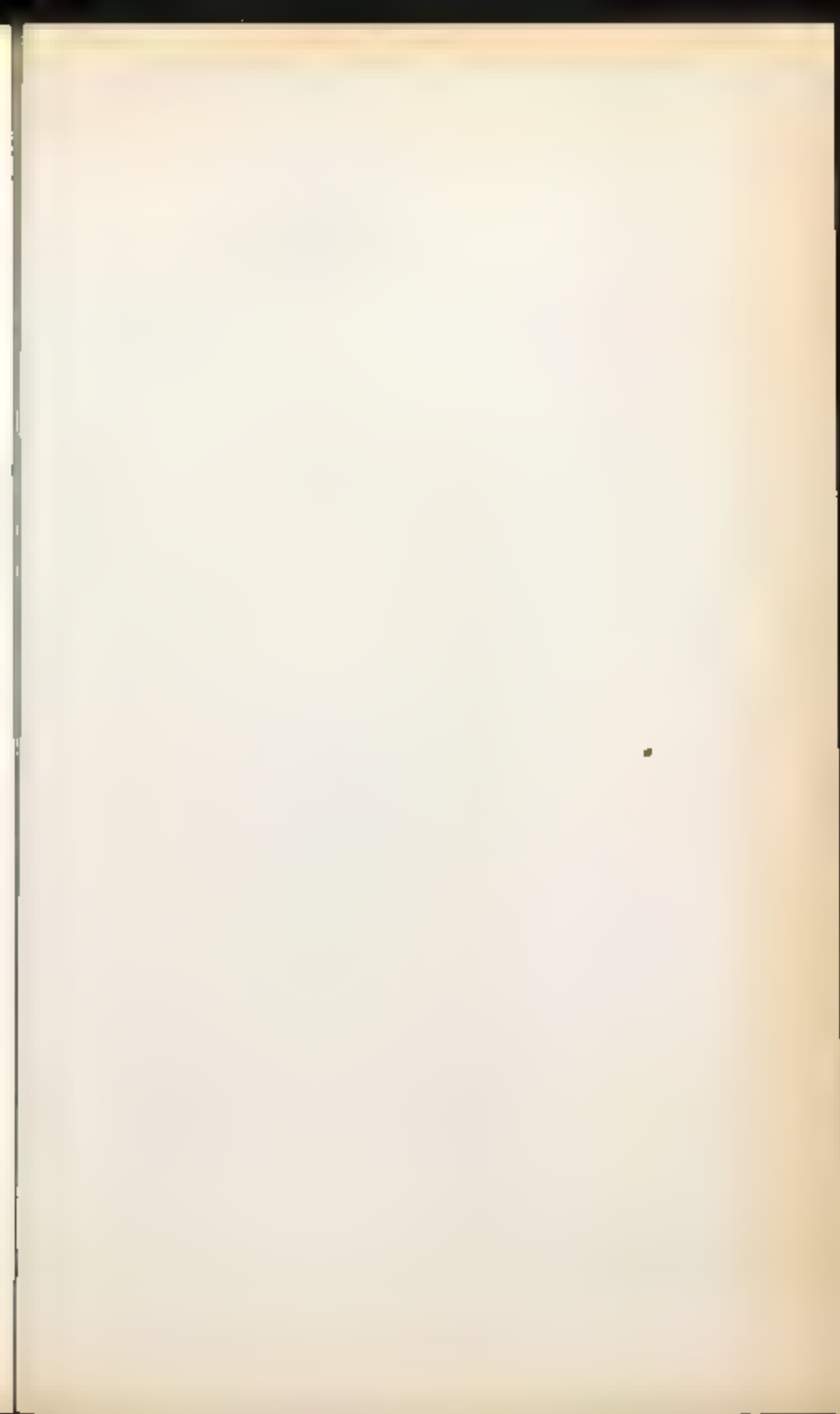


**Elmer Holmes  
Bobst Library**

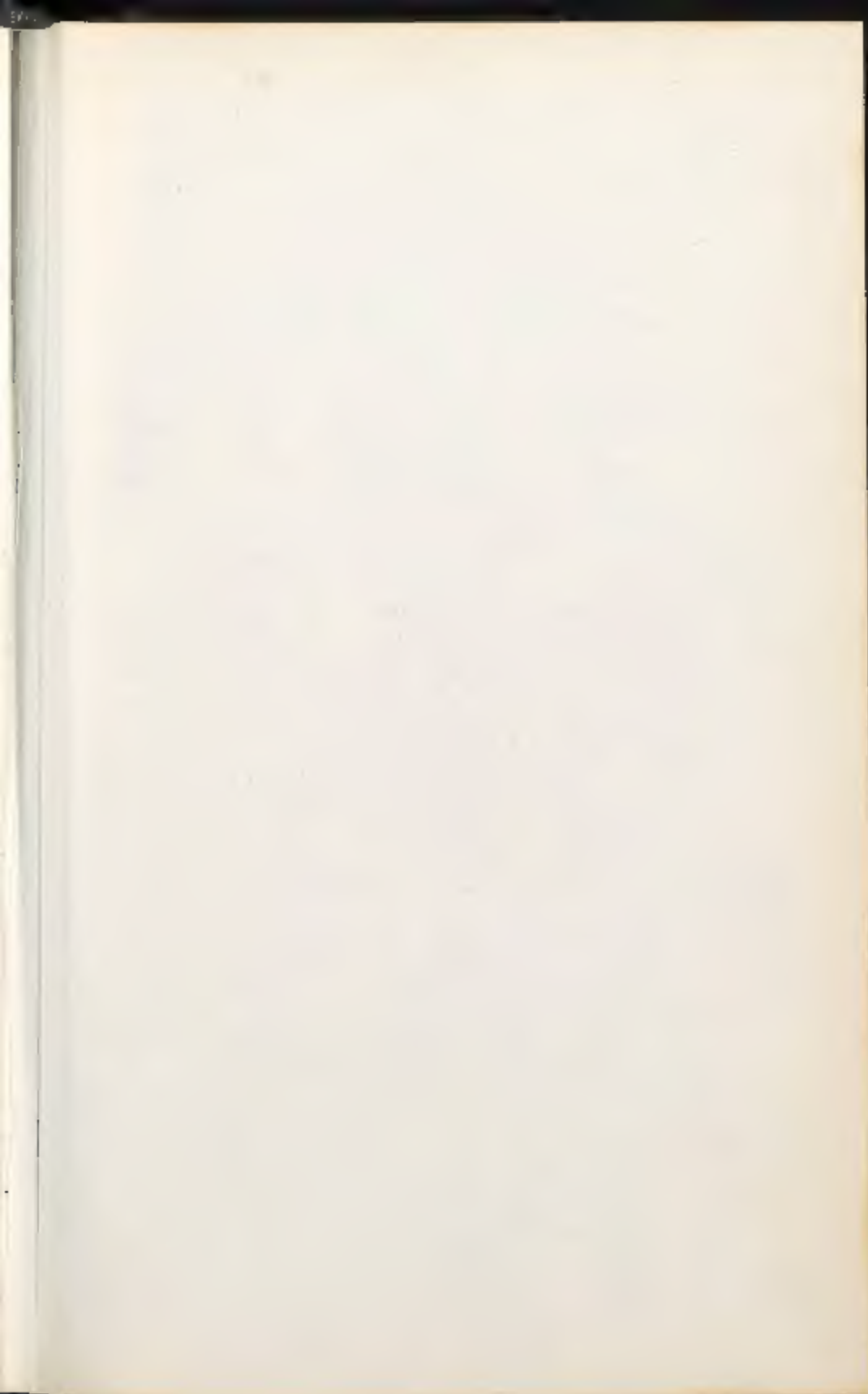
**New York  
University**

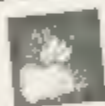
**Gaston Wiet  
Collection**











**Elmer Holmes  
Bobst Library**

**New York  
University**

NYU - 80851



31142 00409 8870

PJ7503 .T3 1945

Feb 21 8